سجل تحت رقم 1/1796
تاريخ 27 AVR. 2009
الرقم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان –
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
قسم الثقافة الشعبية

العلاقات السياسية و الفكرية المغاربية للدولة الزيانية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول 633 هـ–1236م/737هـ–1337م

أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الفنون

إعداد الطالب:
محمد مكيوي

إشراف:
د.الغوتي بسنوسي

لجنة المناقشة :

أ.د. عبد الحميد حاجيات	رئيسا	جامعة تلمسان
د. الغوتي بسنوسي	مقررا و مشرفا	جامعة تلمسان
أ.د. دحو فغرور	عضوا	جامعة وهران
أ.د. عبد العزيز فيلالي	عضوا	جامعة قسنطينة
أ.د.بوبة مجاني	عضوة	جامعة قسنطينة
د.لخضر عبدلي	عضوا	جامعة تلمسان

السنة الجامعية 1427–1428 هـ/2007–2008م

المقدمة

عاصرت دولة بني زيان فترة عصيبة في تاريخ الوجود الإسلامي بالأندلس حيث اشتد ضغط المسيحيين على المسلمين، و لذا كان اهتمام الباحثين خاصة الغربيين منهم بتاريخ هذه الحقبة.

و لا شك في أن الظروف الاستعمارية التي كانت سائدة بالمنطقة، قد وفرت لهؤلاء إمكانيات الاطلاع على أمهات المخطوطات العربية، فعملوا على تحقيق و نشر أكثر منها كما قاموا بدراسات لتاريخ الدولة الزيانية و خاصة حول دور التأسيس. و ما تزال دراساتهم هذه مرجعا هاما، من مراجع تاريخ الدولة الزيانية.

ورغم تعدد الدراسات و الأبحاث خاصة بعد أن استعادت الجزائر سيادتها فإن تاريخ هذه المنطقة ما يزال في حاجة ماسة وأكيدة إلى من يستجلي حقائقه و يستنطق أحداثه وخاصة ما تعلق منه بتاريخ بني زيان، هذا ما عزز رغبتي الشديدة في أن أقوم بهذه الدراسة المتواضعة آملا في إيضاح بعض الحقائق، وتسليط الضوء على البعض الآخر.

و إذا كان الكثير من المؤرخين يشكو قلة المصادر في تاريخ العصر الوسيط، فإن الأمر يختلف بالنسبة لتاريخ بني زيان، إذ أتيح لهم مؤرخون معاصرون تابعوا الأحداث عن كثب وسجلوا الوقائع التاريخية كشهود عيان، و أفاضوا في ذكر أخبار أمرائهم وسلاطينهم ومن هؤلاء المؤرخين من سمحت له ظروفه الخاصة أن يكون كاتبا أو وزيرا لهذا السلطان أو ذاك

فجاءت روايته أقرب إلى الحقيقة. منها إلى الإغراق في الخيال، و منهم من كان يرقب الأحداث عن بعد، فأجهد النفس في تقصي الأخبار والوقائع، فجاءت روايته مكملة لرواية غيره، و كلا الفريقين من المؤرخين له فضل في التدوين و التأريخ و أذكر من بين هؤلاء المؤرخين يحي بن خلدون و أخاه عبد الرحمن و معاصرهما الوزير لسان الدين بن الخطيب ومؤرخ السلطان أبي الحسن المريني الخطيب محمد بن مرزوق و غيرهم كثير.

و إذا كانت أعمالهم تتفاوت من حيث الحجم و القيمة فإنها بلا استثناء مصادر ضرورية، لا غنى للباحث عنها، و عليه أن يعتمد عليها في يقظة و حذر، لأنها لا تخلو من التحامل أحيانا، و التحيز أحايين أخرى، و ما لفت انتباهي أثناء الدراسة، خلو المكتبة التاريخية من التآليف المتعلقة بالعلاقات بين دول المغرب الإسلامي في العصر الوسيط إذ أن المؤرخين غالبا ما يتعرضون لها كفقرات موجزة، ضمن مؤلفاتهم متحاشين التعمق والإستنتاج لأن موضوع العلاقات السياسية و الفكرية، كان و ما يزال حجر الزاوية في التعاون أو الخلاف بين الدول.

و لذا وجدت نفسي أمام جملة من التساؤلات من بينها:

- ما هي العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة الزيانية؟
- أهي تعود إلى الموقع الجغرافي و ما نتج عنه من مميزات إيجابية؟
- أم تعود إلى طبيعة قبيل بني زيان؟
- أم إلى شخصية سلاطينها؟

– و ما هي العلاقات التي أقامتها مع دول المغرب الإسلامي سواء في المجال السياسي أم الفكري؟

إن اختياري للعلاقات السياسية و الفكرية للدولة الزيانية منذ تأسيسها لغاية عهد أبي تاشفين عبد الرحمن الأول أملته علي مجموعة من الاعتبارات و هي:

– إعادة الاهتمام بدراسة فترة التأسيس لكونها تشكل فترة القـــوة و الازدهـــار في تاريخ الدولة الزيانية.

– إعادة كتابة تاريخ المغرب الأوسط بأسلوب علمي، بعيد عن كل ضغط وإكراه.

– إيضاح بعض الحقائق و تسليط الضوء على بعضها الآخر.

– خلو المكتبة من التآليف المتعلقة بالعلاقات بين دول المغرب الإسلامي في العصـــر الوسيط.

و يعتبر الخوض في العلاقات السياسية و الفكرية المغاربية للدولة الزيانية في دورها الأول، من المهام الصعبة و المتعبة في الوقت نفسه ، لأن بعض المؤرخين الأوربيين حـــاولوا طمـــس معالم الشخصية العربية الإسلامية للمغرب الأوسط، و تزييف تاريخه بطرق ملتوية وأســـاليب مختلفة. و يكاد المتأمل في تاريخ الدولة الزيانية أن يجزم بأنها قد تعرضت لمؤامرة صمت بقيت أسبابها مجهولة، ومع ذلك فإن المتمعن في المراحل التاريخية لهذه الدولة قـــد يستشـــف مـــن أحداثها الأسباب الحقيقية لعدم وصول نصوصها كاملة إلى هذا العهد.

فكل المحن و الخطوب التي تعرضت لها الدولة الزيانية عبر أدوارها كافية لإتـــلاف وثائقهـــا و محور آثارها، و طمس معالمها. و بطبيعة الحال ينعكس ذلك كله على أعمـــال البـــاحثين حيث يصعب عليهم في ظروف شحيحة كهذه إبراز معلومات جديدة وافية.

و مع ذلك و رغم الصعوبات التي ظهرت خلال إعداد هذه الرســـالة، فقـــد وجـــدت التشجيعات و المساعدات مما خفف عني ثقل المهمة و أنساني ويلات البحـــث وصـــعوباته ودفع بي نحو العمل الجاد. لهذا فإنني حريص على تقديم جزيل الشـــــكر و الامتنان للأستاذ المشرف الدكتور الغوتي بسنوسي، نظرا لما قدمه إلي من مساعدة و نصح وتوجيه.

أما المنهج المتبع الذي سرت عليه في الكتابة فهو المنهج التاريخي، الذي يجمع بين عـــرض الحقائق بعد تمحيصهـــا و إستنتاجهـــا، و بين التحليل الذي يعلل الوقـــائع ويتعـــرض إلى تفسير دوافعها بقدر الإمكان.

و قد اعتمدت في هذا البحث على مجموعة كبيرة من المصادر الأصلية، كما استفدت من المراجع الحديثة التي تناولت موضوع البحث من قريب أو بعيد.

و سوف أقصر حديثي على تلك التي لها أهمية خاصة في استيفاء مادة البحث مراعيا ترتيبـــها تاريخيا و هي:

1/ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس:

و قد إختلف المؤرخون حول مؤلف هذا الكتاب فالبعض ينسبه إلى أبي العباس أحمد ابن أبي زرع و البعض ينسبه إلى صالح بن عبد الحليم الغرناطي و كلا المؤرخين عاش و مات بالمغرب في النصف الأول من القرن الثامن الهجري 14م.

و الكتاب يتناول تاريخ المغرب الأقصى من سنة 145هـ إلى 724هـ و اعتمد ابن أبي زرع كثيرا فيما كتب على عدة مصادر أغفل ذكر معظمها كما اعتمد فيما يظهر على وثائق رسمية و خاصة عند كلامه على حكام الأسرة المرينية.

2/ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لأبي زكرياء يحيى بن خلدون حوالي 734هـ/1333م 780هـ/1378م :

نشره ألفرديل في ثلاثة أجزاء في مجلدين بالجزائر 1904-1911م و الجزء الأول حققه الدكتور عبد الحميد حاجيات بالجزائر 1400هـ/1980م.

و بدأت حياة يحي بن خلدون السياسة عام 757هـ/1356م في خدمة الحفصيين ثم انتقل لخدمة بني عبد الواد و اتخذه أبو حمو كاتبا للإنشاء ثم التحق بالبلاط المريني ثم عاد لخدمة أبي حمو الذي رحب به وأعاده لمنصبه القديم إلى أن قتل في رمضان عام 780هـ / 1378م.

و رغم أن حياته السياسية كانت أقصر من حياة أخيه عبد الرحمن بن خلدون وأقل خطرا، فإنها مع ذلك أتاحت له فرصة كتابة مؤلف غزير المادة في التاريخ "بغية الرواد"اعتمد عليه كل من كتب عن تاريخ تلمسان و المغرب الأوسط.

و أهمية هذا الكتاب ترجع إلى تناول فترة حكم أبي حمو موسى الثاني وصلته بالقبائل العربية والزناتية و الإمارات المغربية.

وبحكم منصبه ككاتب سر أبي حمو الثاني إستطاع أن يطلع على الوثائق الرسمية بـــل وأن يذكر بعضها كاملة في مصنفه. و رغم أن يحيى لم يتناول في كتابه موضـــوعا متشـــعبا كموضوع أخيه عبد الرحمن و لم يظهر سموا في التفكير و لا براعة في النقد مثل ما فعل أخوه في كتابه، فإنه يمتاز بجودة أسلوبه و بلاغته.

و لم يكن مجرد بسط للتاريخ السياسي للمغرب الأوسط فحسب بل أورد فيه كذلك كثيرا من القصائد لشعراء البلاط الذين عاصروه و كذا الذين سبقوه و التي كثيرا ما احتوت على مادة تفوق في قيمتها المادة التاريخية.

و الكتاب يعطينا لمحة صادقة عن الحياة العقلية في عاصمة بني زيان في القرنين الســـابع والثامن للهجرة.

3/ كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر النصري الأمير الغرناطي الشاعر الكاتب المتوفي سنة 708هـ / 1404م.

نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور بالرباط سنة 1962. و رغم صغر حجمه فإنه تناول تاريخ بني زيان من جانب خاص فهو سجل يتضمن أسماء ملوكها و ألقابهم و أنسابهم و تواريخ ميلادهم و ولايتهم و وفاتهم، مع وصف ملامحهم الخلقية و ذكر رجال دولتهم من وزراء و حجاب و قضاة و كتاب وما خلفوه من بنين و بنات فهو أشبه بسجلات الحالـــة المدنية في أيامنا هذه.

و يلاحظ على ابن الأحمر أنه نقل كثيرا من فقرات الذخيرة السنية و القرطاس فأوردها برمتها دون إسناد إلى مصدر.

4/كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و العجم و البربر لعبد الرحمن بن خلدون 732هـ - 808هـ - 1332م -- 1406م :

طبع هذا الكتاب في بيروت سنة 1961 في سبعة أجزاء و الجزء الأول منه هو المقدمة المشهورة التي ينظر فيها للتاريخ على أنه فرع من الحكمة أي الفلسفة، وفي نفس الوقت تتضمن نظرية ابن خلدون حول القبائل العربية ودورها السلبي في المناطق التي إنتقلت إليها كما أنها تحتوي على معلومات هامة عن دور العرب الحضاري في المغرب والأندلس وأنظمة الحكم فيها.

أما بقية أجزاء التاريخ فهي تتناول أخبار العرب وأجيالهم منذ بدء الخليقة.

ثم أخبار البربر وأجيالهم ودولهم بديار المغرب، وأهم هذه الأجزاء بالنسبة لموضوع هذه الرسالة، الجزءان السادس والسابع ويتضمن كتاب عبد الرحمن بن خلدون المادة اللازمة لتوضيح العلاقات التي كانت قائمة بين دول بلاد المغرب الإسلامي ومن حالفهم من القبائل العربية أو البربرية.

وقد ساعد ابن خلدون على ذلك كفاءة سياسية فائقة وثق صلتها مع العلماء والرجال المبرزين في عهده واتصالاته بالقبائل العربية المختلفة لنصرة أرباب نعمته، ولهذا فهو ثمرة خمسين عاما قضاها المؤلف في مشاهدة الحوادث عن كثب وفي دراسة ما سبقه من كتب التاريخ ووثائق عصره السياسية والرسمية، دراسة واسعة.

5/ تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم الحفناوي:

هو الحفناوي بن الشيخ بن أبي قاسم، يرجع نسبه إلى سلالة سيدي محمد ابن عروس و سيدي المازاري بن يطو زعيم الخلوية بمدينة بوسعادة، و قد ولد

الحفنـــــاوي سنة 1852 و مات سنة 1942 في الديس و هي تبعد عن مدينة بوســعادة بحوالي 20 كلم.و أبوه هو الشيخ المعروف بمحمد أبي القاسم الهاملي، و قد كانت له شهرة كـــــــــبيرة في الهامـــل، و يعتبر من أشهـــر المدرسين بـــزاويتهـــا – زاوية الهامل –

ساهم الحفناوي في النهضة الجزائرية في بداية هذا القرن، و كان من مظاهرها انتعاش الصحافة العربية، و تأسيس النوادي الثقافية و الجمعيات و أهم ما ساهم بـــه الحفنـــاوي في النهضة الجزائرية، تأليفه لموسوعة تراجم في جزئين تناول فيها مشـــاهير الجزائـــريين الـــذين ساهموا في التاريخ السياسي و الثقافي لبلدهم، و قد نشر هذه الموسوعة تحت عنوان:(تعريف الخلف برجال السلف).

- تناول الحفناوي في كتابه هذا حياة شخصيات عاشت بين القرن العشر و بداية القرن العشرين و قد نشرته مطبعة فونتانا 1907.

لقد ساعدت الحفناوي مكانته في الوسط الثقافي على جمع المصادر التي أخـــذ عنـــها وهي مصادر هامة، و قد ترجم للعلماء و الفقهاء و الأدباء و القضاة، و بعض السياســيين كما ترجم للمتقدمين عنه و لمعاصريه، و قد ساعده على ذلك اتصاله بهؤلاء.

اعتمد الحفناوي في كتابه على ثلاثة أنواع من المصادر و هي:

أ- الكتب القديمة بالنسبة للتراجم القديمة.

ب- الاتصال المباشر بمعاصريه.

ج- المراسلات و تشمل: مراسلة العلماء لمده بالمعلومات التي تنقصه.

و رغم النقائص المجموعة بالكتاب، فإن (تعريف الخلف) يعتبر من أهم الكتب و هو تكملة لأعمال ابن مريم، و الغبريني و غيرهما.

6/ البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان لابن مريم:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، و قد نشره محمد بن أبي شنب.

- ترجم ابن مريم في_ البستان _ لإثنين و ثمانين و مائة عالم و ولي ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها.

- و رتب ابن مريم تراجمه حسب حروف الهجاء مبتدئا بمن إسمه أحمد و منهيا تراجمه بمن إسمه يحيى،وقد تفاوتت تراجمه في الطول تفاوتا كبيرا فبعضها لا يزيد على سطر واحد بينما خصص ابن مريم لبعض العلماء عدة صفحات من كتابه

- و مثلما تفاوتت التراجم في الطول فإنها تفاوتت من حيث أهمية المعلومات المذكورة بها.

و يمكن إستخراج عدة فوائد من _البستان_ ومن أنواع الفوائد التي يمكن استخراجها من كتاب ابن مريم، المعلومات التاريخية.

- و من الفوائد التاريخية بالعمران، ذكر أسماء بعض الأمكنة الموجودة بتلمسان و ضواحيها و مساجد و مدارس و أحياء و مقابر. كما يستخرج من _البستان_ فوائد خاصة بالحياة العلمية و الفكرية في المغرب الأوسط في العهد الزياني إذ ذكر المؤلف أكثر العلماء و الأدباء الذين عاشوا في ذلك العهد و أشار إلى آثارهم الفكرية وأورد في أغلب الأحيان أسماء شيوخهم و تلاميذهم، و الكتب المتبادلة في زمانهم.

و هذه الفوائد المتنوعة التي يتضمنها »البستان« تجعل من كتاب ابن مريم مصدرا هاما لتاريخ الدولة الزيانية و تاريخ المغرب الأوسط إذ هو مكمل للكتب التاريخية التي عنيت فقط بالأحداث العسكرية و السياسية.

7/الذخيرة السنية في الدولة المرينية لمؤلف مجهول:

محتوى الكتاب و قيمته:

قسم المؤلف الكتاب إلى عشرة أبواب، أولها في ذكر بني مرين و قبائلهم ونسبهم و خص الأبواب الأخرى لذكر أمرائهم مبتدئا بجدهم عبد الحق ثم تلاه الكلام على أبي سعيد عثمان فمحمد بن عبد الحق فأبي يحي بن عبد الحق، فأبي يوسف فأبي يعقوب فأبي ثابت فأبي الربيع سليمان، فلأبي سعيد الذي خص له الباب العاشر.

غير أن محمد بن أبي شنب لم ينشر من الكتاب إلا الأبواب الستة الأولى و ختم طبعته بهذه العبارة: "هذا ما وجد من هذا الكتاب و الحمد لرب الأرباب"

و زيادة على الأبواب العشرة، قسم المؤلف كل باب إلى فصول تتفاوت في الطول ولم يعط نفس الأهمية للأخبار كلها فبجانب الخبر المطول المجاور للصفحة، يوجد الخبر الذي لا يأخذ إلا بعض كلمات.

كما جاءت الذخيرة السنية مشحونة بالأخبار السياسية و الأخبار العلمية وبعض المعلومات الاقتصادية و الاجتماعية كغلاء المعيشة و أسعار المواد الغذائية والحالة الصحية و مما يزيد الكتاب أهمية في نظرنا هو إعتناء المؤلف الكبير بالعلاقات بين ملوك فاس و ملوك تلمسان، بل أضاف إليها معلومات تخص بني عبد الواد ومملكة تلمسان ولو لم تكن لها علاقة بفاس والدولة المرينية. وهذا لا يزيد الكتاب إلا أهمية بالنسبة لتاريخ بني عبد الواد وتاريخ المغرب الأوسط في عهدهم.

وبالإضافة إلى الشرح المفصل والطويل، إمتازت الذخيرة السنية بالدقة في السرد. إنها أكثر دقة من روض القرطاس الذي جاء أكثر تفصيلا وأكثر تدقيقا للأحداث الخاصة بالعلاقات المرينية

العبد الوادية من كل المصادر الأخرى حتى أهمها وهي زهر البستان في دولة بني زيان لمؤلف مجهول، وبغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، وكتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون.

وقد فاق روض القرطاس بتفصيله للأخبار الخاصة بالعلاقات العبد الوادية المرينية الكتب الثلاثة الأولى التي عاش أصحابها في ظل الدولة العبد الوادية، والتي لم تهتم إهتماما كبيرا بالوقائع وما أكثرها، التي دارت بين الدولتين وكانت الغلبة فيها أكثرها لبني مرين وفاق روض القرطاس أيضا – العبر- الذي ذكر الأحداث لكنه لم يفصلها. وبهذه المقارنة نكشف أن الذخيرة السنية أكثر تفصيلا وأكثر تدقيقا حتى من روض القرطاس.

غير أن الكتاب رغم أنه وضع لتاريخ الدولة المرينية، فهو مصدر متمم للمصادر الأخرى الخاصة بتاريخ الدولة العبد الزيانية.

8/ نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان لمحمد بن عبد الجليل التنسي، مؤرخ بني زيان:

ذكر التنسي في مقدمة الكتاب، أنه عزم على تأليف هذا الكتاب "الملوكي" لشكر ولي نعمته معاصره السلطان الزياني محمد المتوكل.

وقد قسم الكتاب إلى خمسة أقسام ثم جزأ كل قسم إلى عدد من الأبواب.

- أما القسم الأول: فهو في التعريف بنسبه وذكر بيان شرفه في الحديث والقديم يشمل على سبعة أبواب وخص الباب السابع منها، بعرض تاريخ بني زيان، وهذا الباب هو الذي له علاقة بموضوعنا وأهم باب في الكتاب لا من حيث الطول فقط بل من حيث المحتوى أيضا.

وإهتم القسم الثاني بما " يختص بالملك من الخصال" والقسم الثالث هو " في ذكر ملح ونوادر مستظرفة رويت عن أجناس مختلفة، والرابع والأخير ذكر المواعظ والحكم الواردة عن مختلف الأمم.

القيمة التاريخية للكتاب:

- إن الميزة الأولى للقسم التاريخي" لنظم الدر" هي أنه جاء على شكل تاريخ مختصر شمل أهم مراحل الدولة العبد الوادية ما عدا ما يسيء بسمعتها من أخبار، وذلك من يوم أسس يغمراسن بن زيان الدولة العبد الزيانية 633هـ- 1235م، حتى 868هـ-1464م في عهد السلطان محمد المتوكل.

إلا أن أكبر ميزة للكتاب هو أنه المصدر العربي الوحيد لتاريخ دولة بني زيان في فترة تزيد على سبعين سنة، أي مع نهاية أخبار السفر الثاني من " زهر البستان" وذلك سنة 764هـ/1363م، وتاريخ توقف يحي بن خلدون عن تدوين بغية الرواد " في سنة 777هـ/ 1376م، وإنتهاء أخبار كتاب "العبر" وذلك حوالي سنة 796هـ/ 1393م. إلى أن يختم التنسي أخباره سنة 868هـ/ 1464م.

وقد اعتمدت في هذا البحث كذلك على عدد من المراجع والأبحاث باللغة العربية والفرنسية التي ساعدتني كثيرا في تحليل الأحداث بالإضافة إلى أهميتها الكبيرة في التعرف على جوانب الموضوع على سبيل المثال لا الحصر – كتاب تلمسان في العهد الزياني- للأستاذ عبد العزيز فيلالي، وتكمن أهمية الكتاب في تناوله الدولة الزيانية من جميع الجوانب السياسية، الإقتصادية، والإجتماعية والثقافية فهو كتاب مرجعي هام بالنسبة للعهد الزياني، وكتاب –

تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر- لمحمد بن عمرو طمار- وكتاب – المغرب الكبير العصر الإسلامي- للدكتور: عبد العزيز سالم.

وقد إرتأيت بعد جهد وعناء أن أقسم موضوع رسالتي إلى أربعة فصول دعـــت إلى التنسيق بينها طبيعة البحث.

- الفصل الأول: ويحتوي دراسة سياسية لمنطقة المغرب الإسلامي قبل تأســـيس الدولـــة الزيانية، مع التركيز على ظهور قبيل بني زيان والعوامل المساعدة على تأسيس الدولـــة الزيانية.
- الفصل الثاني: وهو دارسة مركزة حول العلاقات السياسية الزيانية مع دول المغـــرب الإسلامي، حيث يتناول العلاقات الزيانية الحفصية، العلاقـــات الزيانيـــة الغرناطيـــة، العلاقات الزيانية المرينية.
- الفصل الثالث: وأفردته بالحديث عن تطور العلاقات الزيانية المرينية في عهد خلفـــاء يغمراسن بني زيان إلى غاية السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن الأول.
- الفصل الرابع: ويعالج الجانب الفكري في هذا الدور من حياة الدولة الزيانية من حيث طبيعة الصلات الفكرية بين بلدان المغرب الإسلامي، خلال هذه الفترة بالتركيز على التعليم ومؤسساته و العلوم التي إزدهرت في هذه الفترة.

ذلك هو الشكل العام الذي روعي في إعداد هذه الرسالة.

وقد تم ذلك بتوجيه من الأستاذ المشرف.ومع ذلك فإني على ثقة بأني لم أقدم من الجديد إلى يسيرا، لا تكاد معالمه تظهر أمام ما قدمه أساتذتي الأجلاء من بحوث وافية ودراسات مفيدة، لذا فلا يسعني في هذا المجال سوى الإستسماح مسبقا، لما قد يبدو في رسالتي هذه من تقصير وسهو وأخطاء.

والله ولي التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير **محمد مكيوي**

الفصل الأول

تأسيس الدولة الزيانية:

المدخل:

الخصائص الطبيعية:

1- إقليم الدولة:

يشغل إقليم هذه الدولة رقعة من الأرض كانت تعرف سابقـــا بالمغرب الأوسط ويمكن تحديد معالمها الآن –بما يسمى حاليا– وسط الوطن الجزائري و غربه.

حدودها:

لقد مرت بحالات مد و جزر، فلم تعرف حدودها وضعية معينة، خاصة الشرقية منها وهي التي عرفت تطورا ملحوظا منذ تولي السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن عرش تلمسان، و هذا تطبيقا لوصية يغمراسن بن زيان[1].حيث ركز معظم سلاطين الدولة الزيانية اهتمامهم نحو توسيع إقليم دولتهم على حساب الحفصيين (الجار الشرقي لدولتهم)، فامتدت بذلك الحدود الشرقية لدولتهم حتى جبال الزان (أكفادو) المتاخم لإمارة بجاية[2]. واستقرت عند واد بجاية أو الواد الكبير (واد الصومام)، كما حددها عبد الرحمن بن خلدون وصاحب

1- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة: ج 2،ص 472.

نفس المؤلف،العبر: ج 7،ص 156،175 يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر التاريخ بني عبد الواد: ج1، ص10.

2- التنسي: نظم الدر و العقيان، ص 184.

نظم الدر والعقيان، وهي الحدود الشرقية المتاخمة للدولة الحفصية، التي ظلت تابثة في أغلب فترات وجود الدولة الزيانية.

أما الحدود الغربية فقد امتازت بثباتها و استقرارها، واستطاع بنو زيان أن يحافظوا عليها مند عهد السلطان يغمراسن بن زيان وأن يرسموا لها معالم طبيعية تمثلت في واد ملوية (وواد صا)، وفيجيج في الغرب والجنوب الغربي إلى بلاد تاوريرت.

أما الحدود الشمالية فترسمها سواحل البحر الأبيض المتوسط.بينما بلغت في الناحية الجنوبية إلى نواحي ورجلان و غرداية و توات.

2- التضاريس:

أما المظاهر التضاريسية لهذه المنطقة فإنها تتشكل كالتالي:

أ- سلسلة جبال الأطلس التلي: (جبال تلمسان، الضاية، سعيدة، بني شقران، وانشريس، بليدة، جرجرة)، و تختلف هذه الجبال في محاذاتها للبحر من جهة لأخرى مخلفة بعض السهول الساحلية الضيقة من أهمها: سهل وهران، متيجة[1].

ب- الهضاب العليا: و هي عبارة عن سهول عليا تمتد جنوب سلسلة الأطلس التلي من ناحية ملوية غربا إلى منطقة الحضنة شرقا، و تغطي مساحات شاسعة تستغل في مجالات

[1]- حليمي عبد القادر: جغرافية الجزائر، دمشق، 1968، ص 146.

الرعي و بعض الزراعات المعاشية، كالشعير، حيث توجد بها بعض السهول الصالحة للزراعة و خاصة زراعة القمح كسهل تاهرت وسهل سعيدة[1].

جـ- سلسلة الأطلس الصحراوي: تتصل هذه السلسلة بين المناطق الشمالية الصالحة للزراعة و المناطق الجنوبية الصحراوية، و تشتمل من الغرب إلى الشرق: جبال القصور، جبال عمور، جبال أولاد نايل[2]. و من الطبيعي أن ينتج عن هذا التنوع في السطح اختلاف في أنماط المعيشة لدى السكان، حيث نلاحظ ازدواجية قديمة في المجتمع المغربي بين الفلاحين المستقرين و الرعاة المتنقلين، كما يلاحظ أن هؤلاء كثيرا ما كانوا يسمحون لأنفسهم بتجاوز المناطق الرعوية الدائمة إلى المناطق الزراعية، الأمر الذي كان يثير حساسية لدى الفلاحين، من الطرفين نتج عنه نوع من السلوك السلبي في العلاقات أدى أحيانا كثيرة إلى صراعات بين القبائل الرحل و المستقرين، من أصحاب الأراضي التي كانت تداهمها تلك القبائل بمواشيها.

3- المناخ:

و بخصوص المناخ يمكن القول أن مناخ المغرب الأوسط عموما يمتاز بالازدواجية التي تتجاذب قوة التأثير في المنطقة حسب الفصول، و هذه الازدواجية تتمثل في المناخ المتوسطي الرطب و المناخ الصحراوي الجاف. و معنى هذا أن منطقة المغرب الأوسط عبارة عن جبهة

---

[1]- حليمي عبد القادر: جغرافية الجزائر،دمشق ، ص،46،45.

[2]- حليمي عبد القادر: المصدر نفسه ص،72.

تلاقي المناخين المتباينين. فالمناخ المتوسطي المتصف بالرطوبة و الاعتدال في حالة الطقس، والتهاطل الشتوي، يسود السواحل، ثم يأخذ في التناقص كلما اتجهنا جنوبا، لنترك المجال للمناخ الصحراوي المتميز بالجفاف، و التفاوت الحراري، و ندرة التهاطل وكثرة الزوابع الرملية.

و تعتبر السهول العليا الغربية في المغرب الأوسط أفضل مثال على المناطق الواقعة تحت تأثير المناخين معا، و يلاحظ أن هذه التقلبات المناخية الضارة تقلل من أهمية المنطقة زراعيا ورعويا، الأمر الذي أصبغ عليها الفقر الدائم، فتحتم على سكانها أن يبحثوا لهم عن مجالات أرضية أخرى تساعدهم على كسب القوت، ومن ثم تعددت حركتهم الموسمية نحو الشمال عبر التاريخ[1].

و قد نجم عن هذه الخصائص الطبيعية الهامة المتمثلة في اتساع منطقة الهضاب العليا بالمغرب الأوسط إلى اتساع الأراضي الصالحة للرعي، الشيء الذي أدى إلى تكاثر البدو بها حيث أصبحوا يشكلون في المغرب الأوسط قوة يحسب لها حسابها خلال العصر الوسيط، تؤثر بصورة ملحوظة في تطوره السياسي و الحضاري[2].

---

[1]- السلاوي: الاستقصاء، ج2،ص145، عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ج 2،ص 55،61،ج 7، ص 85.

[2]- السلاوي: المصدر نفسه، ص 132،36، 195.

4- الخصائص البشرية:

يمكن تصنيف سكان الدولة الزيانية آنذاك إلى ثلاثة أصناف رئيسية هي: قبيلة الأسرة المالكة و بطونها، و القبائل الحليفة للأسرة المالكة، و القبائل الغارمة و الخاضعة لسلطة الدولة.

أ/ **قبيلة الأسرة المالكة**:و تسمى بطبيعة الحال –قبيلة بني عبد الوادي – و قد ذكر عبد الرحمن بن خلدون أن لهذه القبيلة بطون هي: «بنو ياتكين و بنو للو و بنو رصطف مصوحة وبنو تومرت و بنو قاسم»[1].

و بنو القاسم هم أشد بطون بني عبد الواد قوة و أكثرهم عصبية تنحدر عنهم بطون منها بطن بنو يكثيمن بن القاسم، و كانت لهم الرئاسة على القبيلة من قبل، و بنو مطهر بن يمن بن يزكن ابن القاسم، أيضا بنو علي بن القاسم و هو جد الأسرة المالكة. و هذا البطن هو أشد بطون بني القاسم عصبية و أقواهم ساعدا و أكثفهم جمعا و هذا البطن بدوره ينقسم إلى أربعة أفخاذ: «بنو طاع الله و بنو دلول و بنو كمي و بنو معطى بن جوهر والأربعة بنو علي»[2].

و قد كانت زعامة القبيل عند بني طاع الله، و على الخصوص في بَنِي محمد بن زيدان ابن تيدوكسن بن طاع الله.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 149.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه،ص، 150.

أما العلاقة بين هذا القبيل بجميع بطونه و بين الدولة، فيمكن استنتاجها من خلال بعض النصوص التي وردت في كتاب السلطان أبي حمو موسى الثاني –واسطة السلوك و من ذلك قوله: «يا بني انه ينبغي لك أن تكون محافظا على قبيلك، مواسيا لهم من كثيرك وقليلك، و لا تمنعهم من خيرك، و تختص منهم لنفسك من يكون محبا ناصحا، و مخلصا صالحا، و من تراه لاختصاصك أهلا، و لتقريبك و اصطفاك محلا و تقدم الأشياخ على المجموع، فان التابع يصلح بالمتبوع، فتحصل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم وأعيانهم و خيارهم، مما في جماعتك و سلطانك باذلا في خدمتك جهد استطاعته، مأمون الغاية من النميمة و الغيبة، سالما من النقيصة و الريبة، محرضا بجماعته على طاعة سلطانه الا بالصدق»[1].

و من خلال هذا النص تتجلى المكانة المعتبرة التي أعطاها السلطان العبد الوادي لأفراد قبيلته. أي أن قبيل السلطان كان شريكا في الحكم و شريكا في الفوائد بصورة مباشرة أو غير مباشرة. كما أن النكبات التي عرفتها الدولة تؤثر حتما على قبيل السلطان تأثيرا مباشرا أو غير مباشر.

---

[1]– أبو حمو موسى الثاني: واسطة السلوك في سياسة الملوك، دار مطبعة الدولة التونسية سنة 1962، ص76.

ب/ الحلفاء:

اختلفت قائمة الحلفاء من وقت لآخر في الدولة العبد الوادية، نظرا لاضطراب الأمزجة و اختلاف المصالح بين عهد و آخر.

مع بداية نشأة الدولة أحس يغمراسن بن زيان بضعف موقفه تجاه جيرانه، خاصة أعراب المعقل، فسارع إلى استقدام قبيلة بني عامر من أوطانهم في شرق البلاد و أقطعهم أراضي حول تلمسان لصد أعراب المعقل و حماية دولته.

فكانوا بذلك أحلافا له ضد خصومه و أعدائه من بني مرين و غيرهم، و يذكر عبد الرحمن بن خلدون أن لبني عامر هؤلاء ثلاثة بطون هي:

«بنو يعقوب بن عامر، و بنو حميد بن عامر، و بنو شافع بن عامر»[1].

و كانت رئاستهم في عهد يغمراسن بن زيان «لداود بن هلال بن عطاف بن رداد بن ركيش بن عياد بن منيع بن يعقوب». و يأتي حميد بن عامر في الدرجة الثانية بعد بني يعقوب ابن عامر، و شيخهم في عهد يغمراسن هو معروف بن سعيد بن رباب بن حامد بن جحوش ابن حجاز بن عبيد بن حميد و يعتبر هذا الشيخ بمثابة نائب لداود المذكور آنفا.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 6،ص 105، 116

و يبدو أن القبائل الحليفة للدولة تقدم ولاءها –في الغالب– بدوافع نفعية أكثر منها عاطفية. و لهذا كان السلطان ملزما في هذه الحالة إغداق الأموال و تخصيص الرواتب لرؤساء القبائل حفاظا على ولائهم للدولة.

جـــ/ القبائل الغارمة:

و هي جل القبائل الخاضعة للدولة العبد الوادية و التي تخضع لسلطانها قصرا و غلبة، وهذه القبائل مطالبة بدفع الغرائم.

و كانت هذه القبائل منذ قيام الدولة العبد الوادية عامل أرق و تعب لسلاطين الدولة العبد الوادية كافة، حيث كانت حياتهم كلها حروبا مع هذه القبائل الرافضة للسلطة كيفما كانت تلك السلطة، حبا في الاستقلال و رغبة في الانفراد، و كرها لكل عوامل الوحدة والانتظام.

و من بين تلك القبائل على سبيل المثال: مغراوة، و توجين و مليكش و غيرها.

و طبيعة العلاقة بين تلك القبائل و الدولة تتميز بطابع جبائي إذ كانت مصدر ثروة تلك الدولة و غناها.

5- النشاط الاقتصادي:

كان اقتصاد الدولة يقوم على ثلاثة دعائم أساسية هي: النشاط الفلاحي، و الحرف والمهن التقليدية، و الحركة التجارية.

أ- النشاط الفلاحي:

يعتبر النشاط الفلاحي، بمثابة العمود الفقري لاقتصاد هذه الدولة، لأن هذا النشاط تحترفه نسبة كبيرة جدا من سكانها حيث يعتبر مجتمعا فلاحيا تقريبا. و يتميز النشاط الفلاحي لهذه الدولة و كما هو الحال في دول المغرب الإسلامي –بطابعه الإقطاعي الواسع، إذ كانت جل الأراضي الزراعية و الرعوية بالهضاب العليا و السهول الداخلية و الساحلية- في تلك الدولة –عبارة عن أقطاعات للقبائل و العشائر: الأمازيغية و العربية و مفهوم الإقطاع هنا يختلف عن المفهوم الحديث له، ذلك المهموم الذي تشوبه روح الاستغلال و الاستعباد.

فالإقطاع بالمفهوم الإسلامي، يمكن تسميته بالالتزام [1] لأن الغرض منه هو التشجيع على استصلاح الأراضي من جهة، و مواصلة خدمتها و الالتزام باستثمارها من جهة أخرى.

---

[1]- الإقطاع قديم في الدول، و أصله أن الملك إذا فتح بلادا و أراد استبقاءها و استغلالها، فرقها على قواده في مقابل حربهم و أتعابهم ، أنظر عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة: ج 1، ص 228،229.

و الإقطاع في الإسلام يلزم المستفيد باستثمار أرضه و خدمتها، فان لم يستثمرها المستفيد بالإقطاع وجب انتزاعها منه ثم إقطاعها للذي هو على استعداد لخدمتها واستثمارها[1].

و نظام الإقطاع عمل به في المغرب الإسلامي قبل قيام الدولة العبد الوادية و هذه الدولة بالذات تدرجت نحو الملك و السلطان من الوضع الإقطاعي الذي عرفته كقبيلة، حيث أقطع الموحدون قبيلة بني عبد الواد قبل ارتقائها إلى مرتبة السلطان –المغرب الأوسط: من ملوية إلى البطحاء، كما أقطعوا بني توجين، وبني راشد شرق البلاد التي منحت للعبد الواديين[2].

و أول من عمل نظام الإقطاع في دولة بني عبد الواد هو السلطان يغمراسن بن زيان، مؤسس الدولة، حيث أقطع مشائخ قبيلة بني عامر بلاد البطحاء[3].

و تبعه في ذلك التقليد بنوه من سلاطين الدولة، و الذين استفادوا من نظام الإقطاع في عهد الدولة العبد الوادية قبائل كثيرة و ذلك عبر عهود السلاطين العبد الواديين كافة[4].

و يتم النشاط الفلاحي في دولة بني عبد الواد ضمن محورين رئيسيين:

1- حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص 226،229.

2- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 150، 151، 159.

3- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 95، 96.

4- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص، 96، 102، 103، 103، 124، 133، 135.

المحور الأول: و يتحقق في الأعمال الزراعية، و المحور الثاني: يعتمد على تربية الإبل والمواشي.

يتم النشاط الزراعي بصورة خاصة على شكلين من النشاط:

الشكل الأول: تمثله الزراعة الفصلية غير الدائمة و التي تمارسها القبائل الرحالة التي لا تستقر لكي تواصل الاعتناء بالأرض.

أما **الشكل الثاني:** فيتم بصورة أكثر جدية و هي الزراعة المستقرة و الدائمة و يقوم بها جل السكان عبر سهول البلاد. و هذا النوع من الزراعة له فوائد جمة، و أصحابه أكثر خبرة وكفاءة في الميادين الفلاحية عامة.

و المجالات التي تتم فيها النشاطات الزراعية بدولة بني عبد الواد كثيرة و منها على سبيل المثال: سهل تسالة، سهل وادي شلف، سهل تيارت، سهل متيجة بالإضافة إلى السهول الساحلية الأخرى: كسهل تنس و سهل وهران و الأراضي المحيطة بتلمسان.

و الإنتاج الزراعي كان يتميز بالتنوع، كزراعة الأشجار و فلاحتها، زراعة الحبوب من قمح و شعير و ذرة، يضاف إلى ذلك أنواع الخضر و الفواكه[1].

---

[1]- أشار يحيى ابن خلدون إلى بعض المنتوجات الزراعية التي تنتجها تلمسان فقال: "و يوجد بخارجها الخمائل الألفاف و الأرواح الأشبه و الحدائق الغالب، بما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين من الفواكه، و الرمان و الزيتون، و التين...، تنصب إليها من كل جبلها أنهار من ماء غيرآس، و بيض بساتينها خارجها و مغارس الشجر و منابت الحب" أنظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ج، 1، ص،10.

و لكن زراعة القمح و الشعير كانت، هي الغالبة على تلك الأنواع كلها تنتجها سهول المغرب الأوسط، ويلي ذلك أشجار الزيتون، و التين و الرمان[1].

ويفيض إنتاج القمح عن حاجة السكان، فتصدر بعض الكميات و يخزن البعض الآخر،حتى أن أبا حمو موسى الثاني كان يرسل إلى ملك غرناطة مساعدات تحتوي على كميات كبيرة من القمح، ففي سنة 1361/763 أرسل له خمسين ألف قدح من الزرع[2].

إلى جانب الحبوب، تنتشر في السهول و المرتفعات، أشجار الفاكهة مثل الكرز والمشمش و الزيتون و اللوز و الجوز[3] و الخروب في عدة جهات من الدولة[4]. و من الخضر التي كان يعرفونها و يزرعونها في بساتينهم: الفول، الكرنب، و البطيخ[5].

كما تحتل تربية المواشي جزءا هاما من النشاط الفلاحي، لأن المكونات التضاريسية التي تتمثل في ضعف التربة فوق المرتفعات الملتوية، و قلة الأمطار على هوامش الصحراء لا تسمح بزراعة وفيرة، فعوضتها تربية الحيوانات، و أهمها: الأغنام و تنتشر في الهضاب العليا جنوب تلمسان، و هي تغذي الحرفيين بالعاصمة الزيانية، بكميات كبيرة من الصوف[6].

---

[1]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج، 1، ص، 10.

[2]- يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج،2، تحقيق (BELL ALFRED)، الجزائر 1910، ص114.

[3]- البكري (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر أبو عبيد) المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب (هو جزء من المسالك و الممالك، نشره دوسلان، الجزائر 1957، ص، 76

[4] - Léon L'Africain, P 330é

[5]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص198.

[6]- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 134، 158.

وتربى الأبقار في السفوح الشمالية للأطلس الصحراوي[1]، و كانت تغذي صناعة الجلود بالمدن. وتنتشر في السهول و الهضاب العليا تربية البغال للركوب و الترحال[2] و الخيل للحروب. وتعتبر الإبل من مكاسب أهل النجعة[3].

ب- النشاط الصناعي:

و قد انتشرت في مدن الدولة حرف كثيرة كانت تعتمد على تصنيع الإنتاج الزراعي و الحيواني و بعض ما يستخرج من باطن الأرض. و قد إشتغل بها عدد كبير من السكان، وكان الإنتاج يفيض عن الحاجة في بعض الأحيان، فيصدر إلى البلدان المجاورة المغربية والإفريقية و الأوربية و من أهم هده الصناعات:

1- الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني المسمى الشريف الادريسي: القارة الإفريقية وذبرة الأندلس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق وتقديم وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1983 ، ص 57-71.

2- عبد الرحمن بن خلدون: العبر،ج7، ص 175،176.

3- يصف عبد الرحمن بن خلدون حياة البربر بقوله: "ملأوا البسائط و الجبال من تلوله و أرياقه و ضواحيه و أمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة و الطين و الشجر و من الشعر و الوبر. و ألفين أهل العز منهم و الغلبة لانتجاع المراعي لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء و الفقر الأملس و مكاسبهم الشاه و البقر و الخيل في الغالب للركوب والنتاج.و ربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، و معاش المستضعفين منهم بالفلح و دواجن السائمة، و معاش المعتزين أهل الانتجاع في إنتاج الإبل وظلال الرماح و قطع السابلة و لباسهم و أكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة، و يزعون عليها البرانس الكحل، و رؤوسهم في الغالب حاسرة، و ربما تعاهدوها بالحلف"، أنظر عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 175، 176.

صناعة النسيج: و تعتمد على الصوف بالدرجة الأولى و منها تصنيع الأقمشة[1]، و الأغطية التي يطلق عليها اسم "الحنبل" و الزرابي[2]، و الأكسية و البرانس التي وصلت إلى درجة عالية من الجودة في مدينة تلمسان، حيث كان الصناع[3].

و تصنع الأقمشة القطنية بتلمسان و ندرومة و هنين التي تنتج كميات كبيرة من القطن. و تتوجه كميات منه إلى هنين حيث يشتغل أغلب سكانها بنسيجه[4]. و بمستغانم وبرشك و مليانة و تدلس، تصنع الأقمشة الكتانية زيادة على الصوفية[5].

و في شرشال تتركز صناعة الحرير التي جلبها بعض الحرفيين من غرناطة[6] و من هذه الأقمشة تصنع الألبسة و تطرز بمدينة تلمسان[7]. و تتطلب صناعة المنسوجات الصباغة التي كانت متطورة في العباد و تدلس حيث تشغل جل اليد العاملة في المدينتين.

---

[1] - Fey (Henri Léón) : Histoire d'Oran, avant, pendant et après la domination Espagnole. Oran 1858 P 50.

[2] - Marçais (G) : Tlemcen P 93.

[3] - Léon L'Africain : op.cit.P 328.

[4] - Léon L'Africain : op.cit.P 345.

[5] - Léon L'Africain : op.cit.P 345.

[6] - بغية الرواد ج1، ص 92.

[7] - Marçais (G) : op.cit.P 93.

و لقد عثر على أفران غرب تلمسان كانت تستعمل لصناعة الخزف[1].

و بفضل انتشار مناجم الحديد قرب تفسرة[2]، اشتغل سكانها بالحدادة و كانوا يذهبون بإنتاجهم إلى العاصمة الزيانية[3]، و هناك يستغله المتخصصون في صنع الأسلحة من رماح ودروع و مختلف الآلات التي تحتاج إلى الحديد.

و تطورت بتلمسان، صناعة معدات ركوب الخيل، خاصة منها السروج، فتفنن الحرفيون في أشكالها و تجميلها.

و لعل وصف المؤرخين للشجرة الميكانيكية التي كانت بقصر أبي تاشفين الأول، وخزانة المنجانة بقصر أبي حمو موسى الثاني[4]، دليل على ازدهار الصناعات فالتحفتان تتطلبان إطلاعا كبيرا على أمور الميكانيكا الدقيقة، و فنية عالية، و يد عاملة ماهرة، فتكون التحفتان قمة ما وصل إليه فن الصناعة بتلمسان آنذاك.

كما ضرب ملوك بني زيان السكة بأسمائهم، و جلبوا لذلك أسرة بني الملاح من قرطبة[5] و كانت العملة تصنع من الذهب و الفضة و النحاس[6].

---

1 - Marçais (G) : op.cit.P.P 16 et 93.

2 - Marçais (G) : op.cit.P.P 16 et 93.

3- بغية الرواد، ج 2، ص 161.

4- المصدر نفسه، ص41،40، و المنجانة مثل الشجرة لم يعثر عليها.

5- العبر، ج 7، ص 217، بغية الرواد ج1، ص 213.

6 - Léon L'Africain : op.cit.P39.

وبالتالي كانت الدولة الزيانية التي استمرت حوالي ثلاث قرون عرفت نشاطات إقتصادية مختلفة خاصة في مجال الإنتاج الفلاحي، حيث كانت مكتفية ذاتيا وحققت أحيانا فائضا في إنتاج بعض المواد كالقمح، الذي كان يصدرونه، كما عرفت تطورا في مجال صناعة الحرف التي شهدت له بعض الآلات الميكانيكية و تحدث عنها بعض المؤرخين.

ج- النشاط التجاري:

إن الموقع الجغرافي للدولة الزيانية أعطى لها أهمية تجارية، حيث أصبحت همزة وصل بين أسواق أوربا، و أسواق أفريقيا السوداء و هذا ما يؤدي إلى ازدهار أسواق المغرب الإسلامي اقتصاديا.

و كانت السلع الواردة من أوربا تنحصر في بعض المنسوجات و الأسلحة من رماح وسيوف و خناجر، أما السلع الواردة من إفريقيا السوداء فتلخص في العبيد و الذهب.

أما السلع المصدرة من سوق الدولة الزيانية إلى إفريقيا فأهمها:

المنتوجات المحلية، أو الأوربية التي يعاد بيعها، ثم الأسلحة بأنواعها المذكورة آنفا، والمصنوعات الزجاجية، ثم بعض المنتوجات الزراعية، أما السلع المصدرة من سوق الدولة الزيانية إلى أوربا فيمكن حصرها ضمن ما يلي:

المنتوجـــات الفلاحية من قمح و شعير و فواكه و عسل و زيت، و كذلك الصوف و الجلود، ثم السلع التي يعاد بيعها بالواسطة من إفريقيا السوداء.

و قد كانت المسالك البرية، تصنف إلى صنفين من الطرق:

الصنف الأول: و تمثله الشبكة التي تربط بين أسواق الدولة و مدنها كافة، و أهم ما في تلك الشبكة، الطريق الذي يربط غرب البلاد بشرقها. و يمكن التعرف على ذلك المسلك من خلال الرحلة التي قام بها ابن بطوطة —معاصر الدولة الزيانية—من طنجة إلى تونس، و منها إلى مصر.

و قد ذكر ابن بطوطة المدن التي مر بها مع القافلة التي يرافقها و هي كالتالي: طنجة تلمسان، مليانة، الجزائر، بجاية، قسنطينة، بونة، تونس[1].

و لم يكن فقط هذا المسلك ، بل ثمة مسالك أخرى في جنوبه[2].

كما أن ابن بطوطة عندما عاد من رحلته بحرا و نزل بتنس اتجه منها إلى مازونة، ثم مستغانم، ثم تلمسان، فندرومة، ثم تازة، ففاس[3].

1- و من أهم تلك الرحلات رحلة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، المعروف بابن بطوطة 704هـ/779هـ-1304م/1377م.

2- ذكر العبدري في رحلته (الرحلة المغربية) بأنه تجنب طريقا يتجه إلى المدينة و سار نحو اليسار حتى وصل إلى مليانة، ص 22.

3-ابن بطوطة: الرحلة، ج 2، ص 755-757.

و من جهة أخرى فان محمد العبدري البلنسي قد سلك نفس الطريق الذي سلكه ابن بطوطة تقريبا، و إن كان أدق في التفاصيل من الأول، فعبر في مسلكه بالمدن التالية: تلمسان، مليانة، الجزائر، بجاية، ميلة، قسنطينة، بونة، و باجة، تونس..

أما الطريق الواصل بين تلمسان و إفريقيا السوداء، فهو كذلك عبارة عن شبكة من المسالك التي تصل أهم المدن في الشمال الإفريقي بوسط القارة السوداء.

و قد ذكر ابن بطوطة جميع القرى و النقاط المائية التي مرت بها قافلتهم عبر تلك الرحلة المضنية، و القرى التي مر بها في ذهابه منها التي اندثرت و قامت في مكانها قرى أخرى عرفت الآن بأسماء غير الأولى. و هي كالتالي:

سجلماسة[1]، و تغازي[2]، و زاغري[3]، و كارسخو[4]، ثم مالي[5] (و باسم هذه القرية سميت الدولة فيما بعد).

أما الطريق الذي سلكه عند عودته فكان غير الذي ذهب فيه. و عند رجوعه رافق بعض القوافل التجارية الأخرى. حيث مر بالقرى التالية:

1- شيدت على أطلال سجلماسة الآن قرية تدعى الريصالي.

2- و هي الآن في تراب موريتانيا، و تدعى ولاته.

3- تدعى الآن ديورة.

4- تقابلها قرية نكوكور.

5- قامت على أطلالها قرية تسمى نيامي.

قرى منسا[1]، ثم ميمة، تمبوكتو، ثم كوكو، ثم تكدا، ثم الهقار، ثم توات، ثم سجلماسة.

هذه بعض المسالك التي كانت تقطعها القوافل التجارية، ناقلة للبضائع المتبادلة، بين جنوب القارة و شمالها، و بالتالي بين القارة الإفريقية الممثلة بالمغرب الإسلامي و أوربا، فكان هذا المغرب أو شمال إفريقيا همزة وصل بين القارتين (أوربا و إفريقيا).

أما الموانئ التي كانت الدولة الزيانية تتعامل بواسطتها مع أوربا عبر البحر المتوسط فهي:

هنين، وهران، أرزيو، تنس، برشك، شرشال، الجزائر.

1- لم تعد هذه القرية موجودة الآن حيث اندثرت.

الأوضاع السياسية بمنطقة المغرب الإسلامي قبيل قيام الدولة الزيانية:

إنحلال دولة الموحدين و سقوطها:

1- بداية الانحلال:

في رمضان 1121/515 بويع محمد بن تومرت في السوس بالمغرب الأقصى[1]. فاندلعت ثورة أتباعه الموحدين مهددة وجود الدولة المرابطية التي رعاها في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي عبد الله بن ياسين فكريا و روحيا و أشادها يوسف بن تاشفين عسكريا و إداريا، و لم يكتب للمهدي أن يشهد نجاح ثورته و الانتصار على المرابطين و خلافتهم على حكم المغرب إلا أن ذلك تم على يد خليفته الأول عبد المؤمن بن علي يوم دخل مراكش فاتحا في شوال 541/ مارس 1147 [2]و اتخذها حاضرة لدولته الجديدة و السبب في انتصار الموحدين عائد للفكرة و التنظيم. فالفكرة الدينية القائمة على التوحيد المرتكزة على المهدية بعثت حماسة فائقة في نفوس الأتباع فاستهانوا بالمشاق لنشرها و استعذبوا الموت لبسط نفوذها فكانوا تحت رهن الإشارة لإمامهم ثم لخليفته من بعده. والتنظيم الدقيق ساعد على صهر القبائل المصمودية التي وحدت في بوتقة واحدة. و لهذين

---

[1] – أكثر الروايات تؤكد على هذا و لكن بعضها يشذ فيذكر 514 هـ أو 516 هـ أو 518 هـ و لا نستطيع أن نسلم برواية من يذكر 514 هـ لأن ابن تومرت في هذه السنة كان بمراكش، و في العام ذاته غادر إلى السوس، و لابد أنه بقي في السوس مدة يسيرة حتى اجتمع حوله أهله من هرغة مقتنعين بدعوته ثم أعلن أمره لما أصبح في منعة. و بالنسبة إلى الروايتين الأخيرتين فالأمر لا يعدو أن يكون تاريخ بيعات لما دخلت قبائل مختلفة في الدعوة مما جعل بعض الرواة يخلط بين البيعة الأولى و بيعات لاحقة و تعود البيعات أمر شائع عند الموحدين للخليفة الواحد في المناسبات المختلفة. راجع نظم الجمان ص59؛ البيان المغرب، ج4، ص 87؛ وفيات الأعيان، ج 4، ص 144؛الحلل الموشية ص 87، العبر ج 6 ص 469.

[2] – الكامل في التاريخ ج 2، ص 583؛ الحلل الموشية ص 114؛ البيان المغرب ج 3، ص 23.

العاملين لم يمض سوى ربع قرن على فتح مراكش حتى كانت الدولة قد امتدت من طرابلس الغرب شرقا إلى المحيط غربا، و من الصحراء الإفريقية جنوبا إلى جبال الشارات في الأندلس شمالا، و نعمت باستقرار و ازدهار، ففاقت ما سبقها من دول المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط عظمة و نفوذا. و بوفاة عبد المؤمن بن علي عام 1163/558، انتهت فترة التأسيس و مع خلفه و ابنه يوسف دخلت الدولة في حقبة الازدهار التي استمرت أيام المنصور و مدة يسيرة من خلافة الناصر. و خلال فترة الازدهار أشاعت الدولة العدل وضبطت البلاد[1]، فاتسعت التجارة و انتعشت الصناعة و كثر و عظم العمران. يقول عبد الواحد المراكشي عن أيام يوسف بن عبد المؤمن و ابنه المنصور، أنها كانت «أعيادا و أعراسا ومواسم، كثرة خصب، و انتشار آمن، و دور أرزاق، و اتساع معايش لم ير أهل المغرب أياما قط مثلها»[2].

و رافق النهضة الاقتصادية و ثبة فكرية فقد ازدهرت المعارف و تنوعت بفضل الطابع الفكري للدولة و تشجيع الخلفاء بما أجزلوا من عطاء لأهل العلم و شادوا من مساجد وأسسوا من مدارس و أقاموا من خزائن للكتب، فكثر العلماء في كل فن، الأمر الذي تصوره

---

[1] - المن بالإمامة ص 286؛ و أنظر: أراء مقاربة في البيان المغرب ج 3، ص 63؛ و روض القرطاس، ص 143.

[2] - المعجب، ج 3، ص 256.

كتب التراجم التي صنفت في هذه الفترة فاستوت «الشخصية العلمية للمغرب الإسلامي في صورتها التامة»[1].

و استمرت دولة الموحدين في عز و ازدهار حتى نهاية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، و مع مطلع القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي بدأ الهرم يدب في أوصال الدولة. ومن الصعوبة بمكان تحديد تاريخ لاضمحلال حضارة أو بداية انحلال دولة، لأن عوامل الانحلال تولد مع عوامل القيام، غير أن مظاهر الصحة و العافية تتغلب عليها، ولكنها تفصل فعلها الذي يزداد أثرا مع مرور الزمن و البعد عن حماسة دور النشأة. ثم تأتي فترة يظهر فيها بوضوح انحدار الدولة من القوة إلى الضعف، و نستطيع أن نعتبر تلك الفترة بداية طور الانحلال الظاهري.

و قد حددت تلك الفترة المصادر التاريخية بوفاة يوسف المنتصر عام 1123/620 لأنه يرمز لأوج عظمة الدولة الموحدية[2] و من بعده اضطرب الأمر و بدأ الخلاف[3].

و يبدو أن مرحلة الضعف تبدأ في الفترة الأخيرة من خلافة الناصر بن المنصور 503-1206/610-1213. ففي عام 1206/603 اتخذ الناصر خطوة أثبتت عجز الدولة عن إدارة رقعة ممتدة الأطراف متباعدة المسافات بمركزية مستحكمة. و لكي يتخلص من مشاكل

---

[1] – عبد الله كنون: النبوغ المغربي، ج 1، ص 110، 171.

[2] – الحلل الموشية، ص 135.

[3] – المعجب، ج 3، ص 329.

افريقية و ثوراتها التي أنهكت قوة الدولة المادية و البشرية عين واليا على افريقية بسلطات استثنائية جعلت الوالي مستقلا بأمرها[1] مما عبد الطريق لسلالة ذلك الوالي فيما بعد الاستقلال بها. و في سنة 1212/609، هزم الناصر في العقاب أمام النصارى تلك الهزيمة التي كانت السبب في ضياع الأندلس[2].

و أسباب الهزيمة خير ما يصور بداية مرحلة الانحلال و مظاهرها من استبداد وزراء[3] و تمرد أشياخ الموحدين[4] و إهمال موظفين[5]، و اختلال في نظام الجيش[6].

---

[1] – البيان المغرب، ج3، ص 225؛ العبر، ج 6، ص 583؛ تاريخ الدولتين، ص 18.

[2] – يطلق اسم ناڤاس في NAVAS اللغة الاسبانية على الوديان الفسيحة أو الأراضي الوطيئة، و المقصود هنا الوديان التي تنساب بين حبل الشارات، و قد وقعت هذه الموقعة في أحد الوديان القريبة من بلدة تولوسا، و لهذا عرفت في المصادر الاسبانية باسم لاس ناڤاس دي تولوسا Las Navastolosa، أما التسمية العربية فهي العقاب بضم العين نسبه إلى حصن أو قصر قديم مرتفع ينسب إلى الأمويين و قد أشار ابن عذاري إلى أن المنصور بن أبي عامر في القرن الرابع الهجري، بعث في طلب القائد المغربي جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي و كان مقيما في المغرب، فعبر المضيق بجيشه إلى الأندلس و نزل قصر العقاب بعد أن أعد له ما يصلح فيه. راجع: البيان المغرب، ج3، ص 241؛ روض القرطاس ص 159.

هذا و مازالت بقايا الحصن باقية إلى الآن، كما لا يزال الاسم الاسباني لاس ناڤاس دي تولوسا يطلق على قرية هناك، تخليدا لذكرى هذه المعركة انظر:

Henri Terrasse: Histoire du Maroci p 341

[3] – روض القرطاس، ص 157، 158.

[4] – البيان المغرب، ج3، ص 241.

[5] – نفس المصدر، ج 3، ص 236، 237.

[6] – أنظر: ما يذكره عبد الواحد المراكشي و ابن عذاري عن الاستعداد للحركة و سيره و تعبئته و خطته في القتال، المعجب،ج3،ص: 321، 322، و البيان المغرب، ج 3، ص 239، 242.

و ختم الناصر حياته بتعيين ابنه يوسف المستنصر خلفا و عمره ستة عشر عاما[1].

فتغلبت عليه أشياخ الموحدين[2] و بدأ تدخل مراكز القوة في الدولة في أعلى مستوياتهم.

و اذ تتبعنا مظاهر الانحلال منذ نشأة الدولة يمكن حصرها فيما يلي:

أ- الضعف السياسي:

نستطيع أن نحدد إطار الانحلال في جبهات سياسية و إدارية و عسكرية و رافق ضعف هذه الجبهات ثورات و فتن و تقلص في أراضي الدولة آل إلى سقوطها بعد أن انهار اقتصادها.

إن الضعف السياسي خير ما يتجلى في النزاع على الخلافة بين أبناء عبد المؤمن. فالموحدون منذ قيامهم حتى نهاية دولتهم لم يستطيعوا أن يضعوا نظاما ثابتا لتولي الخلافة، والراجح أن ابن تومرت توفي و لم يستخلف أحدا أو يبين طريقة اختياره[3]. أما ما يرويه عبد الواحد المراكشي من أن المهدي أوصى لعبد المؤمن[4] فليس إلا من زعم بني عبد المؤمن[5]

---

[1] – المعجب:ج3، ص 324؛ العبر، ج 6، ص 523.

[2] – البيان المغرب، ج 3، ص 243.

[3] – نظم الجمان، ص 130؛ وفيات الأعيان ج 4، ص 403.

[4] – المعجب،ج3 ،ص: 194، 196 و نقل ابن الأثير و النويري هذه الرواية دون أن يصرحا بمصدرهم و فيما يبدو أنها عن المعجب فقد عرفاه و نقل عنه، أنظر: الكامل، ج 10، ص 587.

[5] – روض القرطاس، ص 119.

تأكيدا لسلطانهم و تثبيتا لملكهم، و خاصة أن قبيل المهدي (هرغة)كان أول الناكرين لولاية عبد المؤمن المنتهزين للفرص كلما سمحت بذلك.

فبعد أن نجحت الدعوة و قامت الدولة، حاول أخوا المهدي عبد العزيز و عيسى الثورة عام 548[1]. ثم حاولاها ثانية بعد عام لما ولى عبد المؤمن عهده لابنه محمد.

و هناك ثلاثة مواقف تدعم الرأي القائل أن المهدي لم يستخلف أحدا أو يبين طريقة اختياره؛ أولا: كان ابن تومرت يحتذي خطوات النبي صلى الله عليه و سلم و قد مات الرسول و لم يستخلف أحدا أو يبين طريقة اختياره، و لا سيما أن المهدي مات و لم يكن له ذرية. ثانيا: لما توفي المهدي تشوف من بقي من العشرة و أهل الخمسين للأمر، فلو تم استخلاف المهدي لعبد المؤمن لما حدث نزاع بينه و بين هؤلاء. ثالثا: إن كتم وفاة المهدي وبيعة عبد المؤمن بيعة سرية ثم إعلان وفاة المهدي يدل على أن الأمر تم باتفاق بعض العناصر بعد وفاة المهدي و انتظروا حتى هيؤوا الأذهان لذلك.

لهذا لا نستبعد قول من يروي أن المهدي كان ميالا لعبد المؤمن، و في مرضه خص عبد المؤمن بالصلاة، فلما توفي و اشرأب من بقي من أهل العشرة و أهل الخمسين للأمر كان حل الأشكال هو تولية عبد المؤمن لأنه غريب عنهم و لسبقه و فضله و ميل المهدي إليه.

---

[1] – ابن عذاري: البيان المغرب، ج 3، ص 27، 28، بينما يجعل صاحب روض القرطاس المحاولة من قريب للمهدي يسميه يصلتين ص 127.

و لما اعتلى عبد المؤمن سدة الخلافة و انتقل بالدعوة من حالة الثورة إلى وضع الدولة و الحكم جعل الحكم وراثيا في عقبه فولى ابنه محمدا عهده في 1154/549، و استغل عبد المؤمن في دلك العرب الذين استقدمهم من افريقية بعد غزوه بجاية[1]. و أثار فعله هذا حفيظة (هرغة) ممثلة في حركة أخوي المهدي اللذين احتجا بقرابتهما للمهدي[2] و على الرغم من قضاء الخليفة الأول على حركتهما فقد و اجه بعد فترة يسيرة محاولة اغتيال من جماعة من هرغة في عام 1160/555 و هو عائد من غزوه لتونس، فاضطر لاستجلاب قبيلة كومية من ندرومة إلى مراكش في عام 1161/556 لتكون له سندا، فجعلهم ضمن القبائل الموحدية التي تأسس عليها الأمر و قدمهم على سائر هرغة و أهل تينملل[3]. فهكذا تبدلت الحركة الموحدية لما تسلمت السلطة من الفكرة و قيودها و ضوابطها إلى الوراثة. و أضاف عبد المؤمن إلى أسس الاختيار عاملا جديدا قبيل وفاته، ففي مرضه الذي توفي به عام 558 خلع ابنه محمدا عن عهده وولاه لابنه يوسف بسبب سوء سيرة الأول و شربه الخمر[4]. وفتح هذا الحادث بابين أثارا مشاكل قادت للنزاع الخطير في جهاز الدولة القيادي:

---

[1] – الكامل في التاريخ، ج 11، ص 211، النويري: نهاية الإرب ص 207-208.

[2] – مجموع أربع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، تحقيق ليفي بروفنسال، رباط الفتح، المطبعة الاقتصادية 1941؛

[3] – روض القرطاس ص 131.

[4] – المن بالإمامة ص 213- 217، 221-222؛ الكامل ج 11، ص 291-292؛ البيان المغرب ج 3، ص 54-55؛ روض القرطاس ص 132 و لكن عبد الواحد المراكشي و يتابعه ابن خلكان يرى أن خلع محمد كان بعد وفاة أبيه، انظر :المعجب،ج3 ،ص 236-237 و وفيات الأعيان ج 2، ص 404.

أولا: لم يقر مبدأ وراثة الابن الأكبر بخلافة أبيه، ثانيا: الالتزام الأخلاقي الديني أمر يمكن أن يكون مثار جدل بين القرابة فيدعي كل طامع منهم في الخلافة عدم صلاحية المختار لها، فتتسع شقة الخلاف، و هذا ما حدث عقب كل اختيار و استخلاف[1].

و كانت لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة و مصيرها، فمند وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن، يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين و العرب، بل و بأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوة في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها ساعد على اضمحلالها و زوالها. و نستطيع أن، نحدد أثار طريقة اختيار الخليفة و ما أعقبها من نزاع على السلطة في ثلاثة مظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد والاستعانة بالنصارى، و تولية حكام ضعاف.

ثانيا: في حمى المنافسة أراد كل فريق النصر بكل وسيلة فنسي أكثرهم المبادىء التي قامت عليها الدولة من نشر للفكرة و سيادة لسلطتها و مقاتلة لأعدائها، فبدأوا يبحثون عن العون ممن كان، فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى[2]، و المأمون لما نكث أهل مراكش بيعته و هو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها

---

[1] – المن بالإمامة ص 232، روض القرطاس ص 137، البيان المغرب ج 3، ص 58.

[2] – البيان المغرب، ج 3، ص 249؛ العبر ج 6، ص 527.

و أن يبني كنيسة للمسيحيين بمراكش مقابل عدد من الفرسان المسيحيين[1]، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة[2].

ثالثا: إن النزاع جعل المستنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر. إن ضعف الخلفاء يسر طريق مجموعات متعددة للسيطرة و التسلط على مقررات الدولة و التحكم في سياستها و توجيهها. و كان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية أم قبلية أم عسكرية.

ب- التفكك الإداري:

إن هذا النزاع بين بني عبد المؤمن، و وجود الخلفاء الضعفاء، و تسلط أشياخ الموحدين على العاصمة، و اضطراب الأحوال فيها، ساعد ولاة الأقاليم على الاستبداد بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائيا عن مراكش مستقلا بولايته.

فنتيجة لضعف الخلفاء استبد الولاة بولاياتهم و لاسيما السادة منهم، فمنذ أيام يوسف المستنصر بدأ حكام الولايات الاستبداد بمقاطعاتهم دون رقيب أو حسيب[3]. و مع توالي

---

[1] - البيان المغرب، ج 3، ص 264، روض القرطاس ص 167، و قد ذكر ابن عذاري أن عدد الجند النصارى خمسمائة بينما عند أبي زرع 12 ألفا.

[2] - روض القرطاس، ص 167.

[3] - البيان المغرب، ج 3، ص 249-250؛ روض القرطاس ص 164.

الضعف و الانهيار كان الولاة أحد ثلاثة: أما من السادة فحاول أن يستقل بولايته ليتخذها نواة للمطالبة بالخلافة، أو من أسرة موحدية لها الفضل في الدعوة و التطلع إلى الحكم، أو شخص طامع في الحكم و لا يقوى عليه فيبايع القوي من الحكام و يستبد في أغلب الأحيان.

فمن النوع الأول: أبو زيد البياسي في بلنسية 1224/621،[1] و في النوع الثاني: الحفصيون فقد امتنع الشيخ أبو محمد ابن الشيخ أبي حفص عن بيعة يوسف المستنصر لصغر سنه[2]، و مع المأمون انفصلوا بها[3]. و من النوع الثالث: يغمراسن بن زيان في تلمسان[4].

ج- الانهيار العسكري:

و مما لاشك فيه أن اختلال النظام السياسي، و انهيار الهيكل الإداري تركا أثرا بالغا في التنظيم العسكري للدولة، و قد كان هذا التنظيم الميزة الأساسية للموحدين مما يسر لهم الانتصار في البداية، وحفظ الدولة، و كان جيشهم رائعا في الترتيب، و ممتازا في الانضباط، و بارعا في الخطط الحربية وضعا و تنفيذا. ثم فقد كل هذه المميزات في حكم الناصر.

و خير ما يجسد ذلك واقعة العقاب. و من بعدها تابع مسيرته الهابطة، فتكرس انحلاله

---

[1] - البيان المغرب، ج 3، ص 248.

[2] - العبر ج 6، ص 523.

[3] - نفس المصدر ، ص 529.

[4] - البيان المغرب، ج 3، ص 414، 440؛ العبر ج 6، ص 542.

و تفككه في الهزائم المتكررة أمام بني زيان و بني مرين[1].

و يبدو أن عوامل انحلال الجيش و ضعفه تعود إلى ضعف الفكرة الموحدية في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم و جمعها لا القتال في سبيل مبدأ و الموت في سبيله والاستشهاد من أجله و قد ساعد على هذا التيار عاملان:

أولا: تبدل هدف القادة من ردع الثوار و جهاد الأعداء الكافرين إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية لفرض النفوذ لحساب أشخاص[2].

ثانيا: تزايد أعداد المرتزقة في الجيش من عرب و روم. و قد ورث الموحدون عن المرابطين استخدام العرب في جيشهم[3] و لكن الموحدين عمدوا إلى استجلابهم في أعداد كبيرة مند أيام عبد المؤمن، وسار على هديه يوسف ثم المنصور. و قد كان دافع الخليفتين الأولين الاستفادة من طاقات العرب في جهاد نصارى الأندلس بينما كان هدف المنصور إلى تغريبهم عقابا على فتنتهم في افريقية و تعاونهم مع بني غانية[4].

---

[1] – راجع البيان المغرب، ج 3، ص 392-394، 399؛ العبر ج 6، ص 537-542.

[2] – الكامل في التاريخ، ج 12، ص 146؛ نهاية الارب ص 227-229.

[3] – هناك إشارات عن اشتراك أعداد من العرب في جيش المرابطين، انظر : نظم الجمان ص 10 و الحلل الموشية ص 101.

[4] – للمقارنة بين سياسة هؤلاء الخلفاء في هذا الموضوع راجع: المعجب،ج3 ،ص: 224-226؛ الكامل ج 11، ص 245-247؛ البيان المغرب ج3، ص 38-76-88-89، 113-114؛ روض القرطاس ص 130.

بالإضافة إلى وجود عامل له خطره في انهيار الجيش الموحدي خاصة في الجبهة الأندلسية فقد طرد الناصر زعماء الأندلسيين عن جيشه بإيعاز من وزيره[1] ابن جامع، ففقد قوة بشرية هائلة كانت تتسم بالصمود في وجه الزحف النصراني في تلك الجبهة من الدولة المترامية الأطراف.

د- اتساع نطاق الثورات و الفتن الداخلية:

و رافق ضعف الحكام و نزاعهم، وانهيار الإدارة و تفككها، واختلال الجيش و نظامه، وضعف الأسطول و فقدانه، ثلاثة مظاهر:

الثورات و الفتن الداخلية وتقلص أراضي الدولة و الانهيار الاقتصادي. يقول عبد الله كنون عن أيام ابن تومرت إن «المغرب اذ ذاك و في كل وقت هو القبائل»[2]. و القبيلة لا تعترف بسلطة خارج نطاق القبيلة إلا تحت الظروف القاهرة فهي لا ترقى لفهم مسألة الدولة. و قد وعى ابن تومرت هذه الحقيقة، فكون هيئة استشارية من زعماء القبائل التي وحدت، فحفظ القبيلة المصمودية في إطار جماعي رعى وحدتها. فلما نجحت الثورة واجهت دولتها الوليدة ثورات خطيرة من القبائل الأخرى، لأن خلفاء ابن تومرت لم يستوعبوا القبائل الجديدة في إطارهم التنظيمي. و ثورات القبائل الأولى تعددت دوافعها منها ما قام بدافع التقليد أو لفقدان المركز الممتاز، فمن النوع الأول ثورة محمد بن عبد الله بن هود الماسي

---

[1] - الروض المعطار، ص 137-138؛ الاستقصاء ، ج2، ص 22-223

[2] - كنون عبد الله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ج 1، ص 63.

الملقب بالهادي بالسوس فقد قام باقتداء بابن تومرت[1] مدفوعا بالنجاح الذي حققه عبد المؤمن بن علي فثار سنة 1147/541 بعد فتح مراكش، و سيطر على البلاد ما عدا مراكش و فاس، و كاد أن يعصف بالنصر الموحدي، غير أن عبد المؤمن تمكن من القضاء عليه في العام ذاته[2]

و من النوع الثاني الثورات التي اندلعت بعد ولاية يوسف بن عبد المؤمن في جبل غمارة موطن الثورات القبلية منذ أيام الفتح الاسلامي[3]، و شملت بلاد صنهاجة، و ما قضي عليها إلا بعد جهد جهيد في سنة 1167/562 بعدها اضطر يوسف للخروج بنفسه[4]. ولكن الثورات في هذه المناطق لم تنقطع طوال أيام ازدهار الدولة و قد كان لطبيعة المغرب القبلية مناخا صالحا لذوي الطموح السياسي منذ نجاح الأدارسة[5].

إن كان هذا حال المغرب أيام قدرة الدولة على الحركة فلا ريب أن هذه القبائل وجدت فرصتها مع الضعف السياسي و الإداري و العسكري. و قد وجدت تعبيرا عن نفسها في مجموعة زناتية دخلت المغرب حديثا هي قبائل بني مرين، و كذا بني عبد الواد بالمغرب الأوسط[6].

---

[1] – الحلل الموشية، ص 121.

[2] – البيان المغرب ج3، ص 27؛ الحلل الموشية، ص 121؛ روض القرطاس ص 123-124.

[3] – ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 198.

[4] – المن بالإمامة ص 307-321، إبن كثير: الكامل ج11، ص 312-313، البيان المغرب ج 3، ص 69-72

[5] – المعجب:ج3 ،ص 329: البيان المغرب، ج 3، ص 280؛ العبر، ج 6، ص 531.

[6] – البيان المغرب :ج 3، ص 280؛ العبر، ج 6، ص 531.

أما النوع الثالث: فيتمثل في القبائل المرابطية التي فقدت مركزها الممتاز بسقوط دولتهم، و قد كانا ابنا غانية يحيى و محمد المسوفيان ولاة لعلي بن يوسف على بعض ولايات الأندلس و خاصة قرطبة ففشلا في الاحتفاظ بها ففر محمد إلى ميورقة و استبد بها و ظل على نهج المراطبين من دعاء لبني العباس[1].

و لما توفي خلفه ابنه أبو إسحاق فوفدت عليه بقايا لمتونة. و يبدو أن المرابطين اتخذوا ميورقة مركزا لتجمع فلولهم، غير أن أبا إسحاق الميورقي ظل على علاقة طيبة بالموحدين دون أن يبايعهم، فلم يقنعهم دلك فأرادوا الدعاء لهم في منابر ميورقة، فأرسلوا إلى بني غانية في أواخر أيام يوسف محدرين و توفي أبو إسحاق قبل أن يرد عليهم في سنة 1183/579 وخلفه ابنه علي[2].

و لما علم علي بوفاة يوسف بالأندلس غدر برسل الموحدين، و داخل جماعة من بجاية طمعا بأخدها[3]، و دخلها سنة 1184/580 [4]في غياب واليها[5]. و ملك قلعة بني

---

[1] – انظر عن بداية الميورقيين: المعجب ص 267-268؛ أعمال الأعلام،القسم الثالث، ص: 253-254؛ العبر ج 6، ص 391.

[2] – انظر: المعجب،ج3 ،ص: 199-270؛ البيان المغرب، ج3، ص 146؛ الروض المعطار ص 189.

[3] – مجموع أربع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، باعتناء ليفي بروفنسال، رباط الفتح المطبقة الاقتصادية، ص 170؛ المعجب ص 270؛ البيان المغرب ج3، ص 146.

[4] – المعجب،ج3، ص 266؛ روض القرطاس ص 179، ولكن في البيان المغرب ج 3، ص 146، الاستقصاء ج2، ص 159 تذكر الأحداث في عام 581هـ غير أن الزركشي يضيف قائلا: و قبل عام 582هـ و قد رجحت قول المراكشي لمعاصرته للأحداث.

[5] – المعجب: ج3، ص: 270، الكامل، ج 11، ص 507.

حماد و الجزائر و مليانة ثم سار إلى قسنطينة، غير أن قومها قاوموه فحاصرها[1]، و استطاع الجيش الموحدي بقيادة السيد أبي حفص استعادة هذه المدن منه و فر الميورقي إلى بلاد الجريد[2]. و كتب لحركته فصل جديد ينهك الدولة و لا يقضي عليها حتى تنفصل افريقية عن مراكش و في الجريد بدأ تعاون بني غانية مع الأغزاز المصريين و العرب.

فمند سنة 1185/581 استطاع الحلف الميورقي العربي السيطرة على بلاد الجريد[3]. و لم تهدأ البلاد نسبيا إلا بخروج المنصور إليها بنفسه في جيش كبير سنة 583/[4]1187. ففر علي الميورقي إلى الصحراء، و استسلم العرب، فغرب عددا من هيلال و جشم[5]. وتوفي علي الميورقي بعد فترة يسيرة و خلفه أخوه يحي في الأمر[6]. و حاول الموحدون السيطرة على جزيرة ميورقة حتى يقضوا على قاعدة الخطر الميورقي في افريقية غير أن بني غانية استطاعوا استردادها بمساعدة الصقليين[7].

و لما اشتغل المنصور بأمر الأندلس 590-593/1194-1197، سيطر يحي بن غانية على أغلب البلاد، فاضطر لمصالحة النصارى، و لكنه توفي قبل أن يتحرك إلى افريقية.

---

[1] - رسائل موحدية، ص 172-173، المعجب ص 272؛ البيان المغرب ج3، ص 148-149؛ الاستقصاء، ج 2، ص 160.

[2] - البيان المغرب ج 3، ص 149؛ الاستقصاء، ج 2، ص 160.

[3] - المعجب:ج3 ، ص 272؛ ابن خلدون: العبر ج 6،ص 395-396.

[4] - انظر: رسائل موحدية ص 173؛ المعجب ص 272؛ ابن عذارى: البيان المغرب ج 3، ص149، روض القرطاس ص 143-144.

[5] - الاستقصاء، ج 2، ص 168.

[6] - راجع اختلاف المصادر في تاريخ الوفاة في المعجب ص 273؛ وفيات الأعيان ج 6،ص 19.

[7] - المعجب: ج3 ،ص 276؛ البيان المغرب، ج 3، ص 155-156.

فكان على خلفه ابن الناصر أن يواجه الأحداث، فهزمت جيوشه، فرأى أن يعزل من بافريقية بأخذ قاعدتهم جزيرة ميورقة. ففي ختام القرن السادس هجري، الثاني عشر ميلادي سيطر أسطوله على ميورقة[1]. ثم خرج بنفسه في سنة 1205/601 و لم يرجع إلى حضرته إلا سنة 1208/604 [2] و يبدو أنه اقتنع باستحالة سيطرة العاصمة على منطقة صحراوية بعيدة وشاسعة و مليئة بالعناصر المشاغبة فأوكل أمر افريقية في سنة 1207/603 للشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي.

و لكن رغم جهوده الجبارة لم يستطع القضاء على ثورات الميورقيين و حلفائهم من أغزاز[3] و عرب.إلا أن فعله ثبت للحفصيين قدما في افريقية مهدت لهم الاستقلال بها عام 1230/627 و كتب لهم القضاء على الميورقيين بمقتل يحي بن غانية سنة 1233/630، ولكن بعد أن وطدوا دعائم استقلالهم عن الخلافة بمراكش. إن ثورات الميورقيين و الأغزاز

---

1 – راجع اختلاف في الروايات في تحديد السنة في المعجب: ج3 ،ص: 315؛ البيان المغرب ج 3، ص 215؛ روض القرطاس، ص 317-318؛ رسائل موحدية ص 351-159.

2 – البيان المغرب، ج 3، ص 219-226.

3 – **الأغزاز**: هي من القبائل التركية التي كانت تسكن قبل انتشار الإسلام، أواسط آسيا من أطراف الصين شرقا إلى البحر الأسود غربا، كانت هذه القبائل تعيش في معظمها على الرعي و تربية المواشي، و اشتهرت بالفروسية و الرمي بالقوس و النشاب. و قد اعتنقت الإسلام في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، عرفت لدى المؤرخين المسلمين باسم التركمان و عند الروم باسم ذكرهم المؤرخون المغاربة باسم الغز و الأغزاز و يبدو أن جالية الأغزاز قد حلت ببلاد المغرب الإسلامي على عدة مراحل و في فترات زمنية متعاقبة. و قد استعملهم الموحدون في جهادهم ضد المسيحيين في الأندلس و كان للأغزاز دور كبير في هذه الحرب المقدسة، لما كانوا يتميزون به من خفة الحركة و سرعة و المهارة في الرشق بالنبال.لما انهارت الدولة الموحدية دخل الأعزاز في خدمة جيوش الدول التي قامت على انقاض الدولة الموحدية ، و قد التحق بعضهم بجيش يغمراسن ابتداء من سنة 1235/633، و لكن يبدو خلط الأمر على قسم المؤرخون، فاختلفوا في انتماءاتهم العرقية فذكرهم يحي بن خلدون بالأغزاز، بينما جعلهم أخوه عبد الرحمن بن خلدون أكرادا.أنظر: ابن عذاري: بيان المغرب، قسم الموحدين ص: 189-192-103-105-205-236، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 289-290، يحي بن خلدون: بغية الرواد ، ج 1، ص 215، عبد الرحمن بن خلدون: العبر ج 7، ص 231-232، التنسي: نظم الدر، ص 142-144، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 139.

والأعراب، و ثورات البربر على اختلاف دوافعها أنهكت الدولة في أيام عزها. فقد دوخت هذه الثورات الدولة الموحدية و أسهمت في انحلالها، و ذلك لطبيعة المنطقة الصحراوية وتركيبها البشري، وبعدها عن العاصمة، وتعاطف السكان المحليين مع الثوار، و انشغال العاصمة بمعارك في جبهتين في آن واحد:افريقية و أندلسية.

هكذا انفرط عقد المغرب الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي وغابت شمس إمبراطورية الموحدين و حل محلها بالتدريج أربع دول مستقلة هي:

1-الدولة الحفصية في تونس سنة 627هـ/1230م.

2-دولة بني زيان في تلمسان و نواحيها بالمغرب الأوسط سنة 633هـ/1235م.

3-دولة بني مرين أو بني عبد الحق و هي الدولة التي استقلت بالمغرب الأقصى بعد أن قضت على خلافة الموحدين نهائيا سنة 668هـ/1269م.

4-مملكة غرناطة و هي آخر ما تبقى للمسلمين من ممتلكات في اسبانيا و قد استقل بها بنو الأحمر أو بنو نصر سنة 635هـ/1238م.

كما أن هذه الدول لم تعترف ببعضها لبعض بالاستقلال، فاستمرت الحروب بينها وتقاربت قواتهم الحربية، و السياسية، فلم ينحسم النزاع.

لكن الظاهرة التي تستحق التسجيل فيما يتعلق بهذه المحاولات، هي أنها لم تنطلق من منطلق انفصالي، بل أن كل واحد من الذين ثاروا على السلطة المركزية كان يحاول أن يحقق تحت ظله، نفس الوحدة التي كانت موجودة في عهد الموحدين، لكن هناك عوامل أخرى حالت دون تحقيق هذه الوحدة، و أبرزها هو التكتل الذي قد تم بين بعض الفرق الهلالية، وبين بعض القبائل الزناتية التي لم تستقر في المدن أو حولها، مما حال دون أن يتحقق التوازن بين الريف و المدينة، كما منع المدينة من أن تنجح في بسط نفوذها على الريف والمدينة لمدة طويلة. و زاد في أهمية هذا العامل أن الثورات التي نجحت بعد ضعف و انهيار دولة الموحدين، خلفت خرائب، مما ضاعفت من نسبة الاختلال في التوازن بين الريف والمدينة، و ضعف سلطان المدينة بحيث أصبحت عاجزة أن تفرض احترام السلطة المركزية.

و قد تأثر المغرب الأوسط بهذا الوضع أكثر من غيره، حيث أن هذه الظروف هي التي مكنت قبيلة من القبائل الرحل، هي قبيلة بني عبد الواد، من فرض سلطانها على تلمسان.

و قد كان بنو زيان من خلفاء الموحدين و كانوا مخلصين في حلفهم للموحدين. لكن ضعف الموحدين، دفع أصدقاؤهم، يغمراسن بن زيان إلى إدراك ما في هذا الضعف من خطر على بني عبد الواد، إذ تدهور و انحلال الموحدين قد يؤدي إلى ضياع السلطة المحلية من حلفائهم. و قد عرف يغمراسن كيف يختار الوقت المناسب لإعلان استقلاله و إيجاد دولة مستقلة استمرت من سنة 633هـ/1235م إلى سنة 962هـ/1554م.

2- ظهور بني زيان:

بنو زيان فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة الكبيرة التي كانت تقطن المراكز الانتقالية بين التل و الصحراء و كانوا موالين للدول التي كانت تبسط نفوذها على المنطقة ولهذا كان لهم وزن في الميدان السياسي و العسكري، الشيء الذي جعل الدول تسعى الى مساعدتهم و بالتالي التقرب منهم، و كانوا ينتجعون المراعي الخصبة، و يترددون على المناطق التي تقع ما بين فجيج و مديونة و جبل راشد[1]، و في عهد المرابطين انتقل بنو زيان إلى غرب المغرب الأوسط، تحت ضغط الهلاليين، و لما وصل الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي 524-558هـ/1130-1163م إلى هذه الديار بجيوشه، اعترضتهم زناتة و في مقدمتهم بنو زيان، فكانت حروب مشهورة و على اثر ذلك انحاز بنو عبد الواد إلى الموحدين و أصبحوا من أخلص قبائل زناتة لهم، فاتخذوهم أنصارا و حماة[2].ومن هنا بدأوا يتطلعون إلى السلطة وحب التملك[3].

و كان العدد الأكبر من هذه الطبقة يعود إلى بني واسين بن يصليتين إخوة مغراوة وبني يفرن[4].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 148.

[2]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 198.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 120، يحي بن خلدون المصدر السابق، ج1، ص 198.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 120، 147.

و هذه الطبقة تحتوي على بطون عديدة: فمنهم بنو مرين و هم الأكثر عددا و الأقوى سلطة، ثم يليها بنو زيان الذين يحتلون المرتبة الثانية من حيث المكانة و القوة، و أخيرا بنو توجين[1].

لقد كان بنو واسين و من تشعب منهم من القبائل الشهيرة قد ملكوا الصحراء ما بين ملوية و أرض الزاب[2].

و قد منعت عنهم الأرياف من المغربين، و كانت تحت ملك قبائل زناتة مثل. بني ومانو، و بني يلومي بالمغرب الأوسط، و بني يفرن و مغراوة بتلمسان[3].

و كانت هذه القبائل تقدم المساعدات لبني واسين من أسلحة و مال و حبوب، مقابل وقوف بني واسين إلى جانبهم إذا ما زاحمتهم أو هاجمتهم ملوك صنهاجة و غيرها من الأخطار[4].

---

[1]- ابن أبي زرع: روض الاقرطاس، ط،1973، ص 278، ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 334، عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب و الأندلس، القاهرة، القسم الثاني، ص 335.

[2]- الزاب: هي المنطقة الواقعة جنوب الأوراس و عاصمة ولاية بسكرة و كانت أهم قواعدها في العصر الوسيط و بهذه المنطقة و بالقرب من بسكرة استشهد العربي الفاتح (عقبة ابن نافع) للتفصيل انظر: البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، ص 328، دائرة المعارف الإسلامية، ص 34.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 148، 149، يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد ، ج 1، ص 179، 180.

4- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 120، 147.

و عندما نزح بنو هلال إلى الشمال الإفريقي قضوا على دولة صنهاجة بالقيروان، ثم زحفوا إلى المغرب الأوسط، فدافع بنو حماد عن دولتهم و طلبوا مديد المساعدة للدفاع عن بلادهم، فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة و جمعوا من كان في حلفهم من بني ياسين و هم على التوالي كل من: بني مرين و بني زيان و بني توجين و بني راشد وعقدوا على حرب الهلاليين لوزيرهم أبي سعدي خليفة من بني يفرن غير أن الهلاليين استطاعوا التغلب و بالتالي هزيمتهم لقبائل زناتة. و كان من نتائج هذه الهزيمة طردهم من بلاد المغرب الأوسط[1].

و عاد بنو واسين هؤلاء من: بني مرين و بني زيان و بني توجين عن بلاد المغرب الأوسط إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط من جبل راشد حتى ملوية وفجيع، ثم سجلماسة،ولاذوا ببني ومانو وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط، و بالتالي تقسيمهم تلك المنطقة الصحراوية بينهم.

فكان لبني مرين الناحية الغربية بتيكورارين و دبدو إلى ملوية و سجلماسة و ابتعدوا عن بني ومانو و بني يلومي.

1- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 128.

و كان بنو بادين من الناحية الشرقية، شرق المغرب الأوسط ما بين فجيج و مديونة إلى جبل راشد و مصاب، و كانت بينهم و بين بني مرين فتن متصلة نتيجة اتصالهم في المواطن و بحكم الجوار.

و كان بنو بادين أربعة بطون: بنو زيان، بنو توجين، بنو زردال، وبنو مصاب و كان ينظم إليهم بطن وهم إخوتهم بنو راشد[1]، وكان موطنهم الجبل المشهور باسم «عمور»، و ينقسم بنو زيان في نفس الوقت بطون قد ذكرها ابن خلدون و هي ستة: بنو ياكين، بنو للو، بنو وصطف،مصوحة –بنوتمرت، بنو القاسم، و الفرع الأخير هو الذي كانت بيده الرئاسة خلال عهد الموحدين نظرا لقوتهم و تعدد بطونهم، فمنهم: بنو يكنيمن بن القاسم، و كان منهم ويغرن بن مسعود بن يكنيمن و أخواه يكنيمن و عمر، و كان أيضا أعدوي ابن يكنيمن الأكبر، ويقال الأصغر، و منهم أيضا عبد الحق بن منغفاد من ولد ويغرن.

و كانت الرئاسة فيهم في عهد عبد المؤمن بن علي لعبد الحق بن منغفاد و أعدوي بن يكنيمن. و عبد الحق هو الذي استنفد الغنائم من يد بني مرين، و قتل المخصب بمسوف حين بعثه عبد المؤمن بن علي مع الموحدين لذلك[2].

1- بنو راشد: كانوا أحلافا لبني عبد الواد و كانت رئاستهم في عهد يغمراسن لونزمار بن إبراهيم بن عمران، و ذكر ابن خلدون في العبر: ج 7، ص 121 "و فيها من غير أهل الملك: بنو راشد إخوة بادين" و كان موطن بني راشد الجبل المشهور بهم في الصحراء، راجع.نفس المرجع، ص 129.

2- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج 1، ص 186، 140؛ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 149.

و من بطون بني القاسم بنو مطهر[1] بن يمل بن يزكن بن القاسم، و كان حمامة بن مطهر من شيوخهم في عهد عبد المؤمن، و أبلي في حروب زناتة مع الموحدين، و من بطون بني القاسم أيضا بنو علي، و إليهم انتهت الرئاسة، و هم أشد عصبية و أكثر عددا، و بالتالي فهم أربعة بطون: بنو طاع الله و بنو دلول، و بنو كمي، و بنو معطي بن جوهر، و نصاب الرئاسة كانت في بني طاع الله بن محمد بن زكران بن تيدوكسن بن طاع الله.

و هناك من المؤرخين من يريد أن يربط نسبهم بالأدارسة العلويين و بالتالي ينفي نسبهم البربري، غير أن هذا زعم لا سند له كما ذكر ابن خلدون، و حتى يغمراسن عندما أبلغ الخبر لم يستسغه و كان جوابه: «إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله و أما الدنيا فنلناها بسيوفنا»[2]، و قد أخلص هذا الفرع الأخير الطاعة للموحدين عندما قامت دولتهم و قد استطاعوا التأثير على الموحدين، الشيء الذي أدى بالموحدين إلى اقتطاع بلاد بني وامانو وبني يلومي و امتلكوها، في الوقت الذي سيطر فيه بنو مرين بعد دخول بني زيان المغرب الأوسط على تلك الصحراء فتوسعوا فيها. و هكذا بدأ بنو مرين و بنو زيان من بطون واسين

1- **بنو مطهر**: من أبناء عمومة بني عبد الواد، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج7، ص 149- 150.

2- لقد ذكر يحي بن خلدون أن بني زيان شرفاء، و ذلك لأن أحد الأدارسة من سلالة ادريس مؤسس الدولة الإدريسية بفاس و اسمه القاسم، انضاف الى قبيل بني زيان، و تزوج فيهم و نسل منهم ذرية صالحة. انظر: يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ، ج1، ص 102، 103. و قد وافقه الرأي التنسي في شرف بني زيان، ذكر أيضا أن بني زيان من ذرية القاسم الإدريسي، أما عبد الرحمن بن خلدون فقد أنكر هذا النسب و اعتبره زعما لا سند له. راجع عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 149.

إعادة مكانة زناتة، و أعطوا لها طابع الدولة، و نافسهم في ذلك إخوانهم مغراوة و بنو توجين، فتطاولوا إلى مقاسمتهم الملك و السلطة و مساهمتهم في الأمر[1].

وقد ظل بنو زيان في متابعة هذه القبائل للقضاء عليها تدريجيا و إخضاعها لسلطتهم، حتى ضعفوا و كانت نتيجة ضعفهم تقوية جانب بني زيان و بني مرين.

و قد حدثت الفتنة بين بني طاع الله و بني كمي إلى أن قتل قندوز بن كمي بن زيان ابن ثابت بن زقدان و مشيخته[2] و قام بأمرهم بعده جابر بن عمه يوسف بن محمد، فثأر من قندوز بن زيان بن عمه، و يقال بعث برأسه و رؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت، فنصبت عليها القدور نفاية لنفوسهم من شأن أبيه زيان[3]، و افترق بنو كمي و فر بهم عبد الله بن قندوز كبيرهم، فلحقوا بتونس و نزلوا على الأمير الحفصي[4].

و استبد جابر بن يوسف بن محمد برئاسة بني زيان. و ظلت إقامة بني زيان بضواحي المغرب الأوسط، حيث اكتسحها بنو غانية و انتهت بلاد زناتة و قتل أمراءهم و دخل

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 150، 157، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص 169- 170، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث، من كتاب أعمال الأعلام للوزير الغرناطي، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق و تعليق أحمد مختار العبادي الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني، ص 153، 166.

[2]- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 198، 199.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق: ج 7، ص 151.

[4]- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 199؛ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 151.

تلمسان ووهران و استباحها و غيرها من بلاد المغرب الأوسط[1]. و في هذه الفترة كانت تلمسان تحت ولاية أبي سعيد أخي المأمون و كان غافلا ضعيف التدبير.

و تمكن الحسن بن حيون من مشيخة قومه كومية و كانت في نفسه عداوة و ضغائن يكنها لبني زيان، سببها تلك المكانة التي كانت لبني زيان على المنطقة وأهلها، وبتدبير من ابن حبون أذى أبو سعيد جماعة مشيخة بني زيان قد وفدوا عليه فاعتقلهم، وكان في مدينة تلمسان جماعة من بقايا لمتونة قد تجافتهم الدولة. فأبقاهم عبد المؤمن في الديوان و جعلهم مع الحامية، و كان زعيمهم في ذلك العهد إبراهيم بن إسماعيل بن علان، فشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني زيان، غير أنهم ردوه بدون جدوى، الشيء الذي أدى به إلى الغضب و بالتالي الانتفاض و القيام بدعوة الرابطين و تحديد ملكهم، كما بايع يحي بن غانية، فاغتال الحسن بن حبون لحينه و ألقى القبض على أبي سعيد و أطلق مشيخة بني زيان و نقض طاعة المأمون و في سنة 624هـ ، وصل الخبر إلى ابن غانية، فسار إليه في نفس الوقت، الذي بدأ يفكر في الفتك بمشيخة بني زيان، الذين يعتبرون عائقا لنجاح مخططه[2].

غير أن جابر بن يوسف شيخ بني زيان قد فطن و كان نتيجة افتضاح أمره اللقاء الذي نتج عنه الفتك بابراهيم بن علان، و بادر جابر بن يوسف إلى البلد و نادى بدعوة المأمون

1- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 151.

2- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج 7، ص 199؛ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق: ج 7، ص 152.

وطاعته و كشف لأهلها القناع عن مكر ابن علان بهم و ما أوقعهم فيه من ورطة ابن غانية فحمدوا رأيه و شكروه على صنيعه و جددوا البيعة للمأمون[1].

و اجتمع بجابر كافة بني زيان و أحلافهم من بني راشد و بعث إلى المأمون الطاعة وطلب تكليفه في القيام بدعوته، فخاطبه بالشكر و أقر له البيعة على تلمسان و سائر بلاد زناتة، فاضطلع بالأمر في المغرب الأوسط، و كانت هذه الولاية بمثابة المرحلة التمهيدية للوصول إلى صهوة الملك الذي عاشه بنو زيان، ثم خرج عليه أهل ندرومة بعد ذلك، فنازلهم و هلك في حصارهم[2].

و قام بالأمر من بعده ابنه الحسن و جدد له المأمون البيعة على الولاية غير أنه كان ضعيفا و غير قادر على ذلك، الشيء الذي جعله يتخلى عن الولاية لعمه عثمان بن يوسف الذي كان يتصف بسوء التصرف، كثير الجور فثارت ضده الرعايا بتلمسان و أخرجوه سنة 631ھ و أقاموا مكانه ابن عمه زقدان بن زيان بن ثابت الملقب بأبي عزة، فاستدعوه لها وولوه على أنفسهم و بلدهم و سلموه أمرهم[3].

و كان من جهته مضطلعا بأمور زناتة مستبدا برئاستهم مستوليا على كافة الضواحي فخرج عليه بنو مطهر و على قومه و اتبعهم بنو راشد أحلافهم منذ عهد الصحراء. غير أن

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر: ج 7، ص 153.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه: ، ص 153.

[3]- يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: ج 1، ص 199، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق: ج 7، ص 153.

أبا عزة جمع سائر قبائل بني زيان، فكانت بينهم و بينه حروبا انتهت بهلاكه سنة 633ه فقام بالأمر من بعده أخوه يغمراسن بن زيان الذي رضيت القبائل عنه، فأقرّ له الرشيد البيعة[1].

3- عوامل نشأة الدولة الزيانية:

كانت دولة بني زيان في بداية أمرها ضعيفة، بحكم عدة عوامل منها:

أولا: موقعها الجغرافي الذي كان وسطا بين دولتين هما: الحفصية، و المرينية فكان حالها كالمحور بني شقي الرحى، فما تنهي حربها مع أصحاب اليمين (الحفصيين) دفاعا عن كيانها، حتى تبدأ حربها مع أصحاب اليسار (المرينيين). و هكذا كانت حدود الدولة تتسع وتتقلص حتى لآخر أيامها[2].

ثانيا: قلة الأنصار في بداية عهدها[3]. و قد أضيفت الدولة الزيانية بكبوات، جعلتها تختفي من خريطة المغرب الاسلامي ثم تعود من جديد بعد كل مرة و هذا بفضل إرادة

1- تولى يغمراسن الحكم سنة 633/1236-681/1283 انظر: عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 153، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: ج 1، ص 199.

2- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ج7، ص 162، 163، التنسي: نظم الدور و العقيان، ص 113.

3- ذكر عبد الرحمن بن خلدون أن تعداد بني زيان في بداية أمرهم لم يتجاوز الألف بينما بلغ عدد بني مرين ثلاثة آلاف، انظر المقدمة، ج 2، ص 475، أما بغية الرواد ليحي بن خلدون يقدر عدد الحفصيين الذين قاتلوا بني زيان في بداية نشأة دولتهم بأثنى عشر ألف من الراكبين .أما الزركشي فيقول: أن عدد الحفصيين كان "أربعة و ستون ألفا من الفرسان" في غزوهم ليغمراسن بتلمسان. انظر: تاريخ الدولتين، ص 29. و في العبر قدر ابن خلدون أعداد بني مرين سنة (610/1271) حين قاموا بغزو تلمسان، بثلاثين ألفا. انظر: العبر، ج 7، ص 379، و مهما كان عددهم في الروايات جميعها، اتفقت على تفوق الحفصيين، و المرينيين عددا و عدة على بني زيان.

أصحاب الحكم فيها و بفضل عزيمة أنصارهم رغم قتلهم. و هكذا يمكن حصر عوامل نشأة الدولة الزيانية كما يلي:

أ- العامل الاجتماعي:

لقد برزت هذه الدولة للوجود بفضل إرادة و تماسك أفراد تلك القبيلة[1]. و تدرجت القبيلة المذكورة نحو الملك و السلطان من طورها الأول حتى وصلت إلى طور الرئاسة[2].

ثم قفزت إلى طور الملك و السلطان[3] في عهد الموحدين بقيام الدولة الزيانية.

فمنذ البداية استدعت الضرورة الاجتماعية جمع شمل تلك الأسر الزيانية ضمن عشائر ثم اتحدت العشائر فأصبحت قبيلة.

لقد استدعت الرغبة في الأمن و الرغبة في التطلع إلى القوة من تلك الأسر و العشائر إلى توحيد صفوفها ضمن وحدة اجتماعية أكثر فعالية. و هكذا نشأت قبيلة بني زيان كما تنشأ القبائل جميعا.لقد ساعد الوضع الاجتماعي الجيد لتلك القبيلة على اكتساب احترام غيرها، من القبائل، و بالتالي اكتساب تقدير الموحدين و عطفهم فبالإضافة إلى عدد عشائر

---

[1]- أنظر: ما كتبه ابن خلدون حول نشوء الدولة بواسطة العصبية القبلية، المقدمة، ج 2، ص 439، 440.

[2]- و ذلك باتحاد عدة أسر في إطار وحدة سياسية أولية، ترعى مصالح القبيلة و يتم اتحادها في الغالب بواسطة القوة و الغلبة، فالأسرة ذات العصبية الأقوى هي التي تضم الأسر الأخرى، و هذا ما يحدث كذلك عند اتحاد القبائل في سبيل تشييد دولة ما.

[3]- يشرح ابن خلدون تطور الإنسان نحو السلطان و الملك بصورة عامة: انظر: المقدمة،ج 2، ص 513.

وبطون تلك القبيلة، فكانت تمتلك خيرات و مواهب عديدة أهلتها لذلك الاحترام و ذلك التقدير.

ب- العامل الاقتصادي:

كان للعامل الاقتصادي أهمية كبرى في انتقال القبيلة إلى مرتبة الدولة، فبعد أن انتقلت هذه القبيلة من طور الرعي عندما كانت تضرب في الصحراء، طولا و عرضا إلى طور الزراعة في عهد الموحدين الذين أقطعوهم "عامة بلاد بني يلومي و بني وامانو"[1]. و بفضل الموارد الاقتصادية التي بين أيديهم قويت شوكتهم فهيمنوا على القبائل الأخرى بعصبيتهم – اقتصاديا- فازداد تأثيرهم، و اشتدت فعاليتهم، حتى على الدولة الموحدية نفسها. و بذلك تمهد الطريق نحو قيام الدولة الزيانية.

ج- العامل السياسي:

بدأ هذا العامل يلعب دوره منذ أن أصبح قبيل بني زيان يهتم و يعتني بالمواقف السياسية التي تقتضيها ضرورة الحفاظ على الموارد الاقتصادية، التي منحت له من قبل الدولة الموحدية.

---

[1]- تعود هاتان القبيلتان إلى زناتة و كانتا تحتلان حل ربوع المغرب الأوسط فبنوا وأعنوا و كانوا منتشرين شرق وادي شلف (من البحر إلى الصحراء). و بنو يلومي غربه، انظر: العبر، ج 7، ص 114، 119.

فكان على هذا القبيل أن يلبي دعوة الدولة الموحدية كلما استدعت الضرورة ذلك. وهكذا أضحت السياسة تشغلهم، كما كانت تشغلهم المراعي، و الغارات، و الترحال. و في أواخر حياة الدولة الموحدية تطلب الظرف السياسي من بني زيان —مواقف سياسية مغايرة وسريعة، حيث سارع شيخ القبيلة (جابر بن يوسف)، إلى اصطياد الفرصة الملائمة، و لم يدعها تفوته، فقفز بقبيلته نحو الملك و السلطان.

و لما تولى يغمراسن بن زيان الرئاسة أضاف إلى الصرح الذي شيده سلفه لبناته الأخيرة، فنشأت بذلك الدولة الزيانية[1].

---

[1]- في الامكان مراجعة ذلك بتوسع في العبر، ج 7، ص 148-154-162-163 و بغية الرواد، ج 1، ص 104-108، التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 108.

4- دور يغمراسن في تأسيس الدولة:

في سنة 1235م عهد الخليفة الموحدي الرشيد بولايـــة تلمسان وإقليمها ليغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد العبد الوادي[1]، الذي ولد سنة 603هـ/1206م و بويع يوم توفي أخوه الأمير أبوعزة 633هـ/1236م و كان معروفا عند قومه بالـــدهاء السيـــاسي، و الشجاعة و الحزم، و حصافة الرأي، و مكارم الأخلاق وإيثار ذوي الفضل و العلم، فكان ذلك كما قال عبد الرحمن بن خلدون: «كان يغمراسن ابن زيان بن ثابت ابن محمد من أشد بني عبد الواد بأسا و أعظمهم في النفوس، مهابة وإجلالا وأعرفهم بمصالح قبيله و أقواهم كاهلا، اشتهـــر بحصافة الرأي و سداد التدبير وقوة العزيمة. معظما عند الخاصة و العامة، يرجعون إليه في كل الأمور عندما تداهمهم النوازل والعوادي»[2].

و قال لسان الدين بن الخطيب[3]:

---

[1] – أصله عابد الوادي، صفة جدهم المتبتل بواد عناك، راجع:هذا عند يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج 2، ص 186.

[2] – عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 162.

[3] – محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر، ط 2، 1964، دار اليقظة العربية، ص 85.

أول ملاك لهم يغمور[1] ليث الثرى و البطل المشهور

تثني عليه حومة الميدان مـــا لامرىء ببأسه يـــدان

لاقى الجيوش من بني مرين كالليث يحمي جانب العرين

و كان لا يزال شابا عندما بويع بالإمارة بعد مقتل أخيه أبي عزة[2] فاضطلع بالأمر في عزم وقدرة، و أخضع إلى سلطانه كل الدين كانوا قد خرجوا عن طاعة أخيه، و يعد يغمراسن من أشد سلاطين بني زيان حرصا على علاقته بقبائل المغرب الأوسط و أعرفهم بمصالح قومه، فأحسن السيرة مع الرعية، و استمال أغلب القبائل العربية و لاسيما عرب زغبة و كذلك بطون زناتة[3]، حتى يتمكن من الدفاع عن دولته من الأخطار التي يمكن أن تداهمه من الداخل و الخارج، فانتقى جيشا من زناتة، و أضاف إليه فرقا من عناصر مختلفة كالغز والروم في بداية الأمر، من الرامحة و الناشبة و الفرسان، ووفر الأسلحة و الذخيرة له حتى يستطيع القيام بواجبه الدفاعي على البلاد، و استحدث مجلسا وزاريا، و اختار لديوانه نخبة

1- إن هذا الاسم أمازيغي الأصل إلا أنه إختلف في نطقه، و محل الخلاف في شكل الغين، فذكر ابن تاويت الطنجي (التعريف بابن خلدون، ص 152). إن مؤلف كتاب العبر قد ضبط هذا الاسم في أغلب الأحيان بياء فغين مفتوحة تتبعها ميم ساكنة فراء مفتوحة تليها سين مفتوحة فنون ساكنة (يغمراسن)، أما الشكل الذي جرى عليه المؤرخون الغربيون فهو كالتالي: ياء مفتوحة تليها غين ساكنة فميم مضمومة، و لا نعلم من أين استخرج أولئك المؤرخون ضبطهم. أما تلمسان حي مازال أهل عاصمة بني زيان يطلقون هذا الاسم على أولادهم، فإننا نجد النطقين، فبعضهم يستعملونه بغين مفتوحة و الآخرون بغين مضمومة. إلا أن جميعهم يحذفون الياء من الاسم. و لكن يبقى في الغالب نطق العلم، الذي يحمله مؤسس الدولة الزيانية بغين مضمومة تتبعها ميم ساكنة مع الاحتفاظ بالياء في البداية لأن كل المؤرخين القدامى استعملوا الاسم بالياء يغمراسن.

2- بويع يوم وفاة أخيه أبي عزة زيدان يوم الأحد الرابع و العشرين من ذي القعدة سنة 633ه 1236م، و نجد التاريخ نفسه في العبر، ج 7، ص 162، أما ابن الأحمر، روضة النسرين، ص 45، أن البيعة كانت سنة 1233/631.

3- أحاط يغمراسن دولته بسياج من القبائل العربية و الزناتية، فكانت له درعا واقيا، وخطا دفاعيا أماميا، ضد خصومه بني مرين و بني حفص، أنظر: أبو راس معسطري: عجائب الأمصار، ورقة، 14-أ

من الكتاب الوافدين إليه من الجاليات الأندلسية المهاجرة، فآثرهم يغمراسن و قربهم إلى مجلسه متخذا بذلك لنفسه مظهرا من مظاهر الملك و السلطة[1]، و لم يبق للموحدين إلا الدعاء على المنابر[2]

و جعل من مدينة تلمسان، قاعدة لحكمه الفتي، و مند دلك الوقت أضحى نجم عاصمة بني زيان يعلو شيئا فشيئا، و يتألق في الأفق مع مرور الأيام و السنوات، حتى صارت حاضرة من الحواضر العالمية في دلك الوقت[3].

---

[1]-وفد على بلاط يغمراسن الأديب ابن وضاح و أبو بكر خطاب و قد استعملهما في كتابة الرسائل الموجهة إلى الموحدين، انظر: العبر، ج 7، ص 162-163.

[2]-لم يذكر الأخوان يحيى و عبد الرحمن بن خلدون أن يغمراسن قطع علاقاته مع الخليفة الرشيد الموحدي بمراكش، قال ابن خلدون: العبر، ج 7، ص 162-163 و مما يغمراسن آثار الدولة المومنية و عطل الأمر و النهي باسمها، و لم يترك من رسوم دولتهم و ألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش. و ذكر يحيى بن خلدون: البغية، ج 1، ص 112، و عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 164، أن تقرب خليفة مراكش من الأمير الزياني و إتحافه بالهدايا هو الذي شجع الأمير أبا زكرياء الحفصي الاستقلال بافريقية. و مما قاله عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 164. عن تطور العلاقات بين تلمسان و مراكش: (و كان يغمراسن مند تقلد طاعة آل عبد المومن أقام دعوتهم متحيزا إليهم سلما و حربا على عدوهم) و قد ذكر ابن خلدون أن سبب تقاربه هدا هو اتفاقهما على عداوة بني مرين الدين كانوا خطرا على كلا الدولتين، و كان هدا التحالف بين الخليفة بمراكش و الحكم الجديد بالمغرب الأوسط هو الحافز الحقيقي للأمير الحفصي لينازل تلمسان سنة هـ639/1242م.

[3]- تقع مدينة تلمسان على ارتفاع 830' عن سطح البحر، و تحيط بها الجبال و الهضاب الصخرية من الجهة الجنوبية و تحدها من الشمال الغربي مرتفع ترارة، و جبل فلاوسن، أما من الشمال الشرقي، فتوجد مرتفعات السبعة شيوخ و تامالا.

تشرف المدينة، من الناحية الشمالية على سهول خصبة، تعرف بسهول «الحناية» الممتدة نحو الغرب، حيث تتصل بسهول لالة مغنية.

و كانت هده الجبال و الهضاب التي تكسوها غابة من شجر الصنوبر بمثابة حصون قوية، تحميها من الغزاة. و المدينة في حد ذاتها، تقع في الشمال الغربي للمغرب الأوسط، تحت سفوح الجبال، في مكان مائل نحو الغرب، و هو أكثر الأقاليم اعتدالا في المناخ و أكثرها وفرة في المياه و النبات و الحيوان.

يتوفر موقع تلمسان، على المسطحات المائية، بحكم التكوينات الجيولوجية التي تخزن بكميات هائلة، من مياه الأمطار، و على الرغم من الجبال المتقطعة المحيطة بتلمسان، فان لها ممرات سهلة، تربطها بالساحل، فقد كانت لها طرق حيوية نحو موانىء هنين و أرشقول و هو الشيء الذي زاد من أهميتها فازدهرت اقتصاديا، و انتعشت فكريا و تطورت عمرانيا و نمت ديموغرافيا لأن موانئها تقرب من موانىء الأندلس و تقابلها و لا تبعد عنها كثيرا.

و هكذا بدأ يغمراسن عهده و أمر الرعية في اضطراب و قلق و لم يكن هدا بالأمر الهين كما كان يتوقع و يظن، لأن أوضاع المغرب الإسلامي آنذاك كانت معقدة حيث أن دولة الموحدين دخلت طور الانهيار و أصبح سقوطها أمرا مفروغا منه، في نفس الوقت الذي برزت فيه زعامة الحفصيين بتونس وزعامة بني مرين بالمغرب و الكل يدعي لنفسه أحقية وراثة الموحدين، فوجد يغمراسن نفسه و إمارته بين نارين، و نتيجة لهده الوضعية المعقدة وبحكم موقع دولة بني زيان و ظروفها المعقدة، بين مملكتين مرين غربا، و الحفصيين شرقا، حكم عليها أن تكون مسرحا و ميدانا فسيحا للصراع بين هاتين الدولتين، في جمع أقطار المغرب الإسلامي، و الاستيلاء على طرفيه، و كانت هده الوقائع المذكورة بيـــن دول المغرب و الحوادث السياسية المتجددة درسا عمليا ليغمراسن، حيث انتهج سياسة خاصة

لقد جعلها موقعها المميز أن تفتح أبوابها لتجارة أوربا و تجار المغرب و المشرق، كما أعطى لها هدا الموقع أهمية استراتيجية تتمثل في كونها تقع في مكان تقاطع الطريقين التجاريين الهامين في بلاد المغرب الإسلامي و هما: الطريق الرابط بين الشرق و الغرب، المار بوادي شلف إلى تلمسان و منها إلى فاس فسجلماسة و الطريق الذي يصل الشمال بالجنوب، مرورا بمدينة ضجيج و توات إلى بلاد السودان.

فقد وفر لها هدا الموقع حصانة طبيعية قوية و بالتالي سهولة الدفاع و قوة الصمود أمام الغزاة، فضلا عما تحويه من مياه جوفية و ما تشتمل عليه من سهول خصبة فسيحة، و بساتين خضراء تتوفر على فواكه و خضر و محاصيل زراعية متنوعة، لأن جبال تلمسان المحيطة بها تعد خزانا طبيعيا للمياه تتوزع على ينابيع كثيرة حول المدينة، كما كانت تنحدر من هده الجبال أودية عديدة منها: وادي الصفصيف و يسر و الوريط و غيرها من الأودية.

للتفصيل أنظر:

عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج1، ص 162، 163، يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 84، ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 8، حسن الوزان: وصف إفريقيا، ج 2، ص 15، محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص135، 136.

- Dhina (A): Le royaume Abdel Ouadide a l'époque d'Abou Hamou 1er et Abou Tachfin 1er O.P.U Alger p 31.

- Marçais (G): Tlemcen ville d'art et d'histoire 2 eme congrés de la Fondation des sociétés avants de l'Afrique du nord Tlemcen publié par soin de la société historique Algérien Alger 1963 p 31

تتصف بالمرونة و ترتكز على الولاء لأواخر خلفاء الموحدين بمراكش و لأمراء بني نصر بالأندلس ليدعم بذلك مركز حكمه و على العداء لبني مرين الذين يحاولون القضاء على دولته ليتوسعوا بذلك على حسابه[1]، و كان يتظاهر بالمصاهرة و الولاء للحفصيين عندما كانوا أقوياء و عندما ضعفوا بدأ خلفاؤه يوسعون رقعة دولتهم على حسابهم[2].

ثم تفرغ يغمراسن بعد ذلك لإخضاع القبائل المنشقة و المخالفة له من مغراوة وتوجين، فهاجمها عدة مرات حتى استقامت، و هكذا تتجلى لنا بوضوح مساعي يغمراسن الجادة لتدعيم أركان دولته رغم ما كان يتهددها من أخطار في الداخل و الخارج. و قد كللت هده السياسة بالنجاح و الانتصار، حيث لم ينته أجله سنة 1283 حتى كانت هده الدولة مرهوبة الجانب عالية الشأن في المغرب الإسلامي. و يؤكد هذا رسائل التعازي التي تقاطرت على عاصمته بعد وفاته[3].

---

[1]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ، ج 1، ص 116، أنظر التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 175، 176، الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 49.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 188-189.

[3]- من رسائل التعزية التي وصلت بلاد الزيانيين من الملك الناصري من بني الأحمر من الأندلس لأبي سعيد عثمان حول وفاة أبيه يغمراسن، و قد جاء في الجواب على تلك الرسالة بتحرير كاتب يغمراسن بن أبي بكر بن خطاب: «إن الصداقة التي تربط بين الملكين متينة لا تحيل صفاءها الأيام»؛ و لو حللنا مضمون بعض تلك الرسائل التي تبودلت بين مملكتي غرناطة و تلمسان، فإنها توضح لنا مدى العلاقات السياسية الوحيدة التي كانت تصل بين مملكتي غرناطة و تلمسان في القرن السابع للهجرة و قد تأكدت هذه العلاقة السياسية لأسباب سياسية، و اقتصادية و اجتماعية، في القرنين الثامن و التاسع للهجرة، و كانت تتصف بالصفاء و التعاون. للتفصيل انظر: يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 116؛ التنسي: المصدر السابق، ص 175، 176؛ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 193.

زيادة على ذلك توافد عدد كبير من رجالات الأندلس المشهورين على عاصمته للاستقرار بها و على رأسهم الكاتب الشاعر البليغ أبو بكر بن خطاب الذي أصبح كاتبا ليغمراسن، يتولى تحرير رسائله إلى كل الجهات خاصة تونس و الأندلس و المغرب و عندما بدأ يغمراسن يسعى إلى تحقيق الاستقرار لدولته لم يتخل عن ارتباطه بالبدو و لم يستغن عن مساندتهم. حيث واجه صف العرب و زناتة المتكون من ذوي عبيد الله و بني مرين بصف آخر، يعتمد فيه على عرب سويد من قبيلة زغبة. حيث صارت سويد أحلافا له، بل ذهب به الأمر إلى استقدام بطون أخرى من زغبة من بني عامر و بني حميان، و اقتطع الأراضي لبني عامر في نواحي وهران و تلمسان ليصدر بهم خطر خصومه الثعالبة المقيمين بسهل متيجة[1]، أما قبيلة بني حميان فقد أقامها بالصحراء، فكانت له حصنا منيعا من خطر بني مرين[2].

وقد تمكن يغمراسن بن زيان بفضل وحداته المتكونة من زغبة من قهر ذوي عبيد الله و محاولته الهجوم على بني مرين، لكن سرعان ما أدار ظهره لبني زغبة فتركهم يرحلون وكذلك الأمر مع سويد[3]، و يعود هذا إلى كون يغمراسن بن زيان أصبح يأنس في نفسه القوة، و بالتالي التخلي عنهم بعد أن اعتمد عليهم وقت الشدة.

1- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 6، ص 64؛ الميلي: تاريخ الجزائر، ج 2، ص 159.

2- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 105-116.

3- **السويد:** كانت هذه القبيلة علاقاتها حسنة مع بني زيان في بداية الأمر، فاقطعوها أراضي البطحا و منحوها ضرائب هذه الأراضي إلا أن العلاقة الطيبة تغيرت بسبب الموقف المتصلب ليغمراسن ضد زعمائها، فزّارا بجوار بني توجين خصوم بني زيان فكانوا يحرضون بني مرين على غزو تلمسان، انظر: عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 46-48.

و قد ظلت القبائل العربية في المغرب الإسلامي في هذا العصر تشكل قوة لها تأثير كبير على دول المغرب الإسلامي، حيث كانت حاجة تلك الدول إلى القبائل العربية شيئا ضروريا، فقربوا رؤساءهم بالمصاهرة و المجالسة و الاستشارة و اقتطاعهم الأراضي و منحهم العطايا و الهدايا و الامتيازات.

و قد عبر ابن خلدون عن هده الظاهرة بقوله: «ما شرحناه مرارا من تغلب العرب على الضواحي و الكثير من الأمصار، و تقلص ظل الدولة عن القاصية و ارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر و تضاؤل قدرتها عن قدرتهم، و إعطاء اليد في مغالبتهم، ببدل رغائب الأموال و إقطاع البلاد، و النزول عن الكثير من الأمصار و القنوع، بالتضريب بينهم و الإغراء بعضهم ببعض»[1].

عندما تمكن بنو مرين من هزيمة الموحدين والاستيلاء على عاصمتهم، مدينة مراكش، والقضاء على عرشهم من المغرب الأقصى نهائيا سنة 668هـ/ 1269م بقيادة أميرهم يعقوب بن عبد الحق (656- 685هـ/ 1258- 1286م)، وحلوا محلهم، لم يبق ليغمراسن طمع فيما كان يراوده حلمه ويتمناه، فمال لمهادنة بني مرين وخاصة بعد المعارك العديدة التي كانت بينه وبينهم والتي انهزم فيها حيث كانت الأولى سنة 646هـ/ 1249م، والثانية سنة 660هـ/ 1271م، والثالثة وهي أعنفها كانت سنة 679هـ/

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 190.

1279م، بخرزوزة[1]، خرج يغمراسن منها جميعا منهزما امام الجيش المريني، الذي ظل واقفا له بالمرصاد، ولذلك أوصى يغمراسن ابنه ولي عهده عثمان، قبل وفاته وألح عليه، بعدم التعرض لبني مرين أو التحرش بهم، والعمل على مسالمتهم وإبرام معاهدة السلم معهم، وإذا اضطر إلى المجابهة يستحسن أن يعتصم خلف أسوار مدينة تلمسان الحصينة والمقاومة من بعيد، لما يتميزون به من كثرة العدد وفرة المدد، وفي هذا الصدد يقول عبد الرحمن بن خلدون: " أوصى دادا [2]غمراسن دادا عثمان...وقال له: يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا لوفود مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن الذي أنت بعيدا عنها فإياك واعتماد لقائهم، وعليك بالياذ بالجدران متى دلفوا إليك[3]". وأوصاه أيضا بأن لا يتوانى في توسيع نفوذه شرقا نحو بني حفص، وفي هذا المجال يقول صاحب العبر: " حاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عملات الموحدين وممالكهم، ليستفحل به ملك، وتكافئ حشد العدو بحشدك، ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك[4]".وكان السلطان يغمراسن قد عمل على تصفية الجو السياسي مع بني حفص وربط صلة قوية معهم عن طريق المصاهرة، إذ أرسل وفدا هاما إلى تونس ليخطب أبنة السلطان أبي إسحاق إبراهيم

---

[1] -Bouali (S.A) les, 83 deux grands siéges, P37.

[2]- لفظة دادا كناية عن غاية التعظيم باللسان الزياني، أنظر: العبر، ج7، ص 189.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 189، 190.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ج 7 ، ص 190.

(678- 683هـ/ 1279- 1284م)، لابنه الأمير ولي عهده أبي سعيد عثمان، ولكن شاءت الأقدار أن يتوفى يغمراسن بوادي رهيو قرب شلف، بعد أن استقبل موكب العروس بمليانة سنة 681هـ/ 1283م، بحفاوة بالغة تليق بمقامها تكريما وإرضاءا لأبيها، وكان خروجه لحمايتها من غارات قبيلة توجين ومغراوة[1] رغم كبر سنه الذي تجاوز السبعين سنة، ولم يعلم ولي العهد عن وفاة أبيه حتى وصلت العروس إلى بيتها بتلمسان، فكانت مراسيم الإحتفال بالزواج موازية لتجهيز جثمان السلطان فدفن بدار الراحة بالجامع الأعظم[2]فتولى الأمر بعده، ولي عهده من بعده، ابنه أبي سعيد عثمان بن يغمراسن[3]، ولعل فترات الهدنة التي تطلع لها يغمراسن وولي عهده أبي سعيد عثمان من بعده كان نتيجة دراسة معمقة ومعطيات استخبارية هامة، عن خصومهم بني مرين، لأن المعلومات والإستخبارات تلعب دورا هاما وحيويا في مجال الإستقرار والأمن.

لقد حكم يغمراسن بن زيان حوالي 48 سنة، أثبت خلالها على أنه أمير ذكي قادر عنيد، فقد عرف كيف يؤمن دولته ويحصنها ويحميها من بني حفص تارة ومن المرينيين تارة أخرى حتى أصبحت هذه الإمارة من أقوى إمارات المغرب الإسلامي طوال أيامه.

---

[1]- ابن مرزوق:المسند الصحيح،ص 18، انظر أيضا: بغية الرواد، ج1، ص 115.

[2]- يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ص 115، المسند، ص 118.

[3]- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ص 207.

الفصل الثاني

العلاقات السياسية الزيانية مع دول المغرب الإسلامي:

العـــلاقـــات الزيانية الحـــفصية:

لقد كان لمبايعة خليفة الموحدين علي السعيد من بني عبد المؤمن بمراكش اضطراب كبير أدى إلى نقض البيعة وشق عصا الطاعة في كثير من أرجاء المغرب، فكانت فرصة لخروج ولاة النواحي عن الخليفة ونبذ طاعته، وكان من بينهم عبد الله بن زكرياء الهزوجي صاحب تلمسان، فنشأ عن ذلك بينه وبين يغمراسن بن زيان المتحيز يومئذ لبني عبد المؤمن خلاف ونزاع كبير أدى إلى تسلط يغمراسن بن زياد على تلمسان، وتمكن من زمام السلطة والملك، فعلت مكانته على سائر أحياء زناتة الشيء الذي أدى إلى ظهور منافسين له من زناتة خاصة بني توجين، ومغراوة، فخرجوا على طاعته، فاستعدّ لمحاربتهم ومنازلتهم في ديارهم، فكانت له معهم حروب عديدة ومشهورة، وقد تحالفت هذه القبائل مع الأمير الحفصي أبي زكرياء بن أبي حفص[1]، الذي استقل بشؤون إفريقية واقتطعها من الدولة الموحدية.

وكانت له مطامع توسعية ترمي إلى الإستيلاء على المغرب وبالتالي تمكنه من كرسي الدعوة بمراكش، وكان يعتقد أن تحالفه مع زناتة يوصله إلى ما يصبو إليه[2]. وكان يغمراسن

[1]- أبو زكرياء مؤسس الدولة الحفصية بتونس 625هـ/ 1228م، راجع عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج6، ص 594- 595.

[2]- نفس المؤلف: المصدر السابق، ج7، ص 163- 164- 165.

ابن زيان منذ تقلده الحكم متحيزا للموحدين[1]، الشيء الذي جعل الرشيد يضاعفه الإحسان والإخلاص، وإغداقه بالهدايا والأموال نظرا لمحاربته بني مرين المتمردين على سلطته[2].

هذا الإتصال الذي كان موجودا بين يغمراسن والرشيد أدي بالأمير الحفصي إلى استنكاره، بحكم مجاورته له[3]،ولهذا وفد عليه نخبة من رؤساء توجين ومغراوة مستنجدين به ضد يغمراسن، كانت الفرصة السانحة التي تمكنه من تحقيق أهدافه البعيدة التي ترمي إلى الاستيلاء على المغرب والتمكن من كرسي الدعوة بمراكش[4].

وقد كان لتوجين ملك ما بين سعيدة غربا إلى المدية شرقا، وكانت لهم قلعة أولاد سلامة ومنداس وكان لأولاد منديل نواحي شلف ومليانة ومازونة، فنزل سنة 1242 في مليانة ومنها راسل يغمراسن بن زيان يطلب طاعته فأبى، حينئذ حاصرت جيوش الحفصيين تلمسان وبالغت في التنكيل بأهلها، فخرج يغمراسن من باب العقبة لرد هجوم بني حفص، فانهزم ونجا بنفسه باتجاهه نحو الصحراء، وسقطت تلمسان بين أيدي الحفصيين سنة 1242م5[5]، ودخل يومئذ الحفصيون تلمسان ولكن سرعان ما ارتحلوا عنها عائدين إلى تونس بعد أن عقدوا لعبد القوي بن العباس أمر بني توجين.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 164، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج1، ص 205.

[2]- من سنة 633هـ/ 1235م إلى سنة 640هـ/ 1242م، أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 163- 167.

[3]- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 198، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 164.

[4]- تحرك أبو زكرياء إلى تلمسان في عهد الرشيد سنة 639هـ/ 1241م على ذكر ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 165، والزركشي: تاريخ الدولتين، ص 21، وهو نفس تاريخ وصول الهدايا من الرشيد صاحب مراكش ليغمراسن بني زيان، دون الأمير أبي زكرياء، أنظر يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 205،

[5]- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، ط1، ج3، ص 360- 362، تاريخ الدولتين، ص 29، العبر، ج6، ص 607- 610.

1- الولاء للحفصيين:

عندما تأكد يغمراسن بن زيان من اتفاق الكثير من سادة العالم الإسلامي ودوله، شرقا وغربا على مبايعة الحفصيين، أرسل والدته- سوت – النساء[1] إلى أبي زكرياء الحفصي بتقديم مراسيم البيعة نيابة عنه، وقبلها أبو زكرياء راضيا عن ولدها، فاغتنمت الوالدة يومئذ هذه الفرصة وقدمت للسلطان اقتراحا يتضمن طلب العفو عن يغمراسن والسماح له بالعودة إلى رئاسة قومه من بني زيان، تحت طاعة الخليفة، فعقد لها أبو زكرياء ذلك كله، وأذن في عودة يغمراسن إلى إمارته على شروط بينهما، وتمت عقدة المبايعة على ذلك، وعاد يغمراسن إلى تلمسان، وأخذ يتصرف في أهلها وأموالها، وكان السلطان الحفصي يدرك ما يكنه يغمراسن من الحقد والضغينة للحفصيين،فأقطع القطائع حول تلمسان، وأحدث إمارات بني توجين، ومغراوة، وقلد كلا من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي، ومنصور مليكشي ملوكا منافسين ليغمراسن[2].

بقي بنو زيان على ولائهم للحفصيين، وهم يكنون العداوة والحقد لمغراوة وتوجين، وفي سنة 666هـ فرت قبيلة رياح أمام المستنصر إلى بني زيان، فأعانوهم على استرجاع وطنهم

---

[1]- هناك اتفاق بين الأخوين عبد الرحمن بن خلدون ويحي بن خلدون غير أن يحي بن خلدون لم يذكر الدور الذي قامت به –سوت– النساء أم يغمراسن في الصلح بينه وبين صاحب إفريقية، راجع: عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 167، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج1، ص 205.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 166- 167: يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 206.

بشن غارات على مغراوة وتوجين، حيث فتحوا مليانة سنة 669هـ، والمدية 687هـ، واستولوا على موطنهم[1].

أما بنو مرين فقد تخوفوا من ولاء يغمراسن بن زيان لأبي زكرياء، ولهذا بعثت له بالطاعة ووعدته مد يد العون على فتح مراكش، وأمدهم المستنصر لما توجهوا إلى مراكش، بالمال والخيل والعتاد، فلما فتحت خطبت له بها زمنا ثم انقطعت، وبقي بين الدولتين مهادات وروابط ودية، وتأكدت أكثر بالمصاهرة سنة 730هـ، وقد وفد أبو يحي أبو بكر بن أبي زكرياء، وشيخ الموحدين ابن عبد الله بن تافراتي على أبي سعيد سلطان بني مرين، مستنجدا به على أبي تاشفين الأول، فوعده بالمصاهرة وخطب فاطمة شقيقة أبي زكرياء لابنه أبي الحسن، فزفت إليه سنة 731هـ، وقتلت في واقعة طريق سنة 741هـ، فخطب أبو الحسن بعدها لنفسه أختها شقيقة الفضل سنة 746هـ، وزفت إليه سنة 747هـ[2].

2- موقف الموحدين من التحالف الزياني الحفصي:

لقد أثار هذا الحلف المبرم بين دولة بني زيان الناشئة ودولة الحفصيين ضغائن وأحقاد في صدور رؤساء الدولة الموحدية، وساءها انفرادهما دونها، لذلك خشيت من اتحادهما ضدها[3].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 202- 203.

[2]- السلاوي: الإستقصاء، ج3، ص 25.

[3]- التنسي: نظم الدر، ص 118.

لكن عندما حاول الموحدون مواجهة هذا الوضع الجديد فشلوا، وانهزم جيشهم الذي قاده الخليفة الحسن السعيد في معركة تامزيزدكت[1] قرب وجدة سنة646 هـ/ 1248م، وفي نفس العام قتل الحسن السعيد على يدي بني زيان الذين استولوا على أملاكه وذخائره[2]، ومن هذا التاريخ أصبح الخلاف شديدا بين بني مرين وبني زيان، الذين يعتبرون تابعين للإمارة الحفصية ببجاية.

ذكر عبد الرحمن بن خلدون في هذا الصدد بقوله: " كانت الدعوة الحفصية بإفريقية قد انقسمت بين أعاصمهم في تونس وبجاية وأعمالها، وكانت التخوم بينهما بلد عجيسة وشتاتة. وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص بن زكرياء الأول، له الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضر ة، وفي عهده بايعه بنو زيان، وأصبحوا يدعون له على منابرهم باسمه. وكانت لهم مع الأمير أبي زكرياء الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينه وبينهم"[3]. ويعني بذلك المصاهرة التي تمت بين الأمير عثمان بن يغمراسن بن زيان والأمير الحفصي صاحب بجاية.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر ، ج7، ص 169، يطلق حسن الوزان على هذا الحصن قصر تمزيزدكت بينما يسميه التنسي: حصن تامزيزديت أما صاحب البغية فيذكره بجيل تمزجزحت ويقع جنوب وجدة بنحو 20 كلم وكذلك سماه صاحب الذخيرة السنية بـــ " تامزجردت" وهي كلها متشابهة متقاربة تدل على معنى واحد أنظر: وصف إفريقية ج2، ص 11، نظم الدر، ص 118، بغية الرواد، ص 206، الذخيرة السنية، ص 78.

[2]- الذخائر كالعقد اليتيم، وغضار الزمرد ومصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي خطه بيده، وكان قد انتقل بعد وفاة الخليفة إلى خلفاء بني أمية، ومنهم إلى عبد الرحمن الداخل بالأندلس عن طريق شقيقته أم الأصبغ، فأوقفه عبد الرحمن الداخل بجامع قرطبة، وعندما استولى عبد المؤمن الموحدي على الأندلس نقله إلى عاصمته مدينة مراكش ففشاه بلوحين عليهما صفائح الذهب وأحجار كريمة ثم انتقل كما هو في الظن إلى بني زيان ولما استولى أبو الحسن المريني على تلمسان سنة 737هـ / 1337م انتقل إلى بني مرين، أنظر: التنسي: نظم الدر، ص 123.

[3]- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر تاريخ ملوك بني عبد الواد، ج1، ص 116، التنسي: المصدر السابق، ص 175- 176، الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 49، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 188.

رغم التوتر الذي حصل عندما حاول الأمير عثمان بن يغمراسن أن يغزو بجاية إلا أنه سرعان ما عادت المياه إلى مجاريها، واستمر بنو زيان تابعين للحفصيين إلى أن غزا السلطان المريني يوسف بن يعقوب تلمسان سنة 1299م، وفرض عليها الحصار، وأسس مدينة المنصورة كمعسكر لجيشه، فاستعان عندئذ عثمان بن يغمراسن بأمير بجاية الحفصي الذي قدم نجدة كبيرة لبني زيان، التقت بالقوات المرينية في جبل الزاب، واوقعت بها هزيمة كبيرة في معركة — مرسى الرؤوس- لكثرة ما تساقط من خلالها من رؤوس العباد[1].

3- إسقاط التبعية الحفصية:

هذه الحادثة زادت في توتر الخلاف والمنافسة بين يوسف المريني، وصاحب بجاية الحفصي أبي زكرياء الأوسط الذي كان على خلاف مع صاحب عرش تونس الحفصي، ولذلك استغل أبو عصيدة بن الواثق الحفصي سلطان تونس الفرصة، وحاول أن يحكّم صلاته بالسلطان المريني ويتعاون معه على إسقاط دولة بني زيان، فردّ على ذلك الأمير عثمان بن يغمراسن بإسقاط الدعوة الحفصية من منابر تلمسان، فأسقط التبعية التي تربط عرش تلمسان بعرش تونس الحفصي وبذلك ينتهي الدور الأول من تاريخ هذه الدولة[2].

---

[1]- ولوفرة ما تساقط هناك من القتلى والجرحى بجبل الزاب، سميت هذه المعركة بمعركة — مرسى الرؤوس- قال عبد الرحمن بن خلدون: واستمر القتل منهم وبقيت عظامهم ماثلة بمصارهم سنين.أنظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 370- 374، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 195، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر تاريخ ملوك بني عبد الواد ج1، ص 209- 210، التنسي: نظم الدر، ص 130- 131.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 188- 189.

هذا الدور[1] من حياة الدولة الزيانية، والذي ينحصر ما بين 633هـ/1235م، 700هـ/1300م، أي منذ قيام الدولة في عهد يغمراسن بن زيان، الذي التزم بالدعوة على منابره للموحدين بمراكش أولا، ثم للحفصيين بتونس ثانيا، إلى أن سقطت تلك الدعوة بأمر من السلطان أبي سعيد عثمان.

تميز هذا الدور عن غيره بطابع تتجلى فيه السيادة، ضمن إطار زمني لا غير أما الإطار الديني فترك للخلفاء.

تصرف يغمراسن جاء بناءا على هذا الإعتبار، حين اشترط عليه أبو زكرياء الحفصي إعلان الدعوة على منابر الدولة الزيانية، فقال يغمراسن بن زيان: " تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا"[2]، مشيرا بذلك إلى انتماء الحفصيين للموحدين، أصحاب الحق بالخلافة في المغرب الإسلامي.

أما خارج تلك الأعواد (المنابر) فهو أمر آخر، يهمه هو صاحب السلطة الزمنية، ولم يكن الدعاء للحفصيين مقتصرا على دولة بني عبد الواد (في عهد يغمراسن) فحسب، بل تجاوزتها إلى الكثير من دول المنطقة، ولو كان الأمر يعني السيادة، لما قبل السلطان المريني (يعقوب بن عبد الحق[3] بتلك الدعوة ودولته قوية اقتصاديا وبشريا وعسكريا.

---

[1]- يمثل هذه الفترة حاكمان هما: يغمراسن بن زيان 633هـ/ 1235- 681هـ/ 1283م، عثمان بن يغمراسن، 681هـ/1283 703هـ/ 1303م، للتفصيل، أنظر: يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج1، ص 205، التنسي: نظم الدر، ص 116.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ج2، ص 652.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 652، السلاوي: الإستقصاء ، ج3، ص 28- 29.

ولو كان الأمر يتعلق بالسيادة لما تجرأ يغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد، على خرق حرمة الدولة الحفصية – كما حدث بالفعل – حين اكتسح ديار حلفاء بني حفص، من بني توجين، ومغراوة ومليكش، وألزمهم بدفع الضرائب والجباية لدولته.

كما أن تنازل الحفصيين – منذ عهد أبي زكرياء – عن بجاية إحدى مقاطعات مملكتهم لسلطان بني زيان[1]، يدل على أن سيادة الدولة الزيانية كانت محفوظة، لأن فاقد السيادة عادة يلزم بدفع الجباية والضرائب لا أخذها، وجباية الأموال شرط من شروط السيادة، وإحدى خصائص الملك والسلطان[2]، هذا بالإضافة إلى دلك أن الدعوة للحفصيين لم تتجاوز 67 سنة، وهده المدة الزمنية ليست عمر الدولة بكامله، بل تمثل فترة أولية من فترات حياتها، كانت خلالها الدولة العبد الوادية في طور النشوء والتأسيس، ثم تلتها فترات أخرى، تطورت خلالها نحو السيادة المطلقة، سواء في جانبها الروحي أو الزمني.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 166، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج1، ص 113، التنسي: نظم الدر ص 118.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ج2، ص 513، 514.

العلاقـــات الزيـــانية الغرنـــاطية:

كانت لمدينة تلمسان عاصمة الزيانيين، صلات وثيقة ببلاد الأندلس، ولا سيما بغرناطة، عاصمة بني نصر، وقد حصل بين الجانبين تأثر " متبادل، ومتواصل، مما ساهم في إثراء حضارة القطرين مدة قرون عديدة.

غير أن صلات تلمسان بالأندلس لم تبلغ أوجها، إلا عندما تأسست الدولة الزيانية سنة 633هـ/ 1235م[1]. فكانت العلاقات قائمة بالدرجة الأولى مع غرناطة في عهد ملوك بني نصر. وقد تظافرت العوامل لتوطيد هذه العلاقات بين تلمسان وغرناطة وإرسائها على أسس متينة، إذ أنّ هناك تشابها كبيرا بين المدينتين من حيث موقعهما الجغرافي ومناخهما، وكونهما عاصمتين لدولتين تم تأسيسهما وازدهارهما في نفس الفترة، ولعبتا دورا هاما في تاريخ المنطقة خلال فترة حاسمة، صادفتا المنافسة الطويلة المدى التي قامت بين دول المغرب الثلاث، الحفصية، والزيانية، والمرينية، وتطلع المرينيون خاصة إلى توسيع نفوذهم وسلطتهم عبر سائر أقطار المغرب الإسلامي، كان لها أثر ملحوظ في تقارب ملوك تلمسان وغرناطة في المجال السياسي، وتحالفهم في مناسبات عديدة، وارتباطهم الوثيق في جميع المجالات[2].

---

[1]– عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 302.

[2]– عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 302.

ومما دعّم هذا التقارب أن كلتا الدولتين عرفتا تقلبات سياسية عديدة، واستهدفتا لأخطار مختلفة، فكانت النجدات بينهما متبادلة، والتعاون مستمر من الجانبين[1].

لم يخفف من متاعب الدولة الزيانية سوى تأييد ملوك غرناطة لما كانوا يخشونه من أطماع بني مرين في ملك الأندلس كما فعل المرابطون والموحدون من قبل، ومن ثم عمل بنو نصر على تأييد بني زيان بشتى الوسائل ضد المرنيين.

وكان من نتائج هذه السياسة، أن ارتبطت تلمسان بعجلة غرناطة في مختلف الميادين السياسية والحضارية، حتى صار لها طابع أندلسي نلمسه بوضوح في مساجدها ومدارسها ومبانيها، وقد ساعد على تدعيم هذه الروابط أن معظم ثغور الدولة الزيانية كانت عامرة بالجاليات الأندلسية من قديم، بل إن بعضها كان من بنائهم ومن أهم تلك الثغور نذكر هنين التي تقابل المرية[2]، في شرق الأندلس، ووهران التي بناها الأندلسيون، ومستغانم التي تقابل دانية Dania في شرق الأندلس[3].

ولهذا كانت العلاقة محكمة ووطيدة بين البلدين تبودلت فيها السفارات والهدايا والمراسلات السلطانية[4].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 304.

[2]- أنظر: التعريف، بابن خلدون و رحلته غربا وشرقا، ص 38.

[3]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص 150.

[4]- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2، ص 170- 181، 280- 307، المقري، أزهار الرياض: ج1، ص 249- 261، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص 122- 127.

و تواصلت العلاقات بعد ذلك بالتركيز على مساعدة بني زيان لملوك غرناطة في الدفاع عن مملكتهم، حيث أن جيش بني نصر كان يشمل كثيرا من فرسان بني زيان، وكان أبو حمو موسى يتبرع في كل سنة على أهل الأندلس بالمال و الخيل و الزرع، ويرى ذلك من الجهاد في سبيل الله و كانت له مواقف مشرقة في إنقاذ أهل الأندلس من الهلاك، فقد وجه إليهم سنة 763هـ/ 1361م، خمسين ألف قدح من الزرع وقد شكره على ذلك لسان الدين بن الخطيب. ومن المقطوعات البديعة في مخاطبة هذا السلطان يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس، قوله:

لقد زار الجزيرة منك بـــحر * يمد فليس تعرف منه جزرا**

أعدت لها بعهدك عهد موسى * سميك فهي تتلو منه ذكـــرا**

أقمت جدارها و أخذت كثرا * و لو شئت اتخذت عليه أجرا**

و مما يؤكد هذا وجود وثيقتين الأولى رسالة وردت على بلاطات تلمسان في شهر رمضان سنة 767هـ/جوان سنة 1366م من طرف محمد الغني بالله سلطان مملكة بني نصر من إنشاء وزيره.لسان الدين بن الخطيب[1]. إلى أبي حمو موسى الثاني سلطان دولة بني زيان ليستنجد به لنصر المسلمين في الأندلس ضد خطر خطة نصرانية ترمي إلى القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس نهائيا.

---

[1]- وردت رسالة لسان الدين بن الخطيب الأولى في كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، ليحي بن خلدون: طبع الجزائر 1910،ج2، ص170- 174، و وردت به كذلك الرسالة الثانية به و هي أيضا من إنشاء لسان الدين بن الخطيب في نفس الجزء، ص 174 - 181.

و الرسالة الثانية بعثها السلطان الغني بالله إلى أبي حمو الثاني أيضا من إنشاء لسان الدين بن الخطيب يشكر ويمدح فيها أبا حمو بما قدم من الأموال الضخمة و السفن المشحونة بالخيل و السلاح[1].

يقول لسان الدين بن الخطيب في الرسالة الأولى: "إن البابا لّما أعيته الحيلة في جمع كلمة النصارى في قشتالة جعل يحرك جموعا كثيرة من الناس لتعين الكونت على أخيه "**بيدرو القاسي**". فإذا انتصر الكونت تحالف النصارى الأسبان جميعا ضد المسلمين، وقسم البابا تراث الدولة الإسلامية بالأندلس بين قشتالة و أراجون فتأخذ أراجون الشاطئ الشرقي الجنوبي حتى لمرية، و تأخذ قشتالة الباقي و تحتل الأساطيل الساحل الجنوبي لقطع المساعدة التي تأتي من المغرب ،كما أتفقوا على إتلاف سائر الغلاّت الزراعية لإرغام المسلمين على الإستسلام هذا ما جعل الغني بالله يتخوف من خطة البابا فيبعث بهده الرسالة، طالبا مساعدة أبي حمو موسى الثاني شارحا له الخطة النصرانية للقضاء على المسلمين وعلى آخر معقل لهم بالأندلس. وكانت مملكة غرناطة ضعيفة أمام هذه الأقوام الكثيرة، وهكذا استجاب أبو حمو لما يفهم من الرسالة الثانية، وعندما وصلت هذه المساعدة الزيانية إلى الأندلس لما ذكر ابن الخطيب، اغتنمت مملكة غرناطة فرصة استمرار الحروب الأهلية بمملكة قشتالة في استعمال هذه الإعانة لاستعادة الحصون والثغور التي استولى عليها النصارى من قبل، وقام بنو نصر

[1]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، ص 174- 193، 194، ابن الخطيب: الإحاطة، ص 51- 52.

بغزوات عديدة واستطاعوا فعلا أن يسترجعوا الكثير من المناطق المغتصبة، وهكذا ظهرت المملكة الإسلامية بالأندلس في تلك الفترة بمظهر قوة هائلة لم تعرف من زمن بعيد[1].

العلاقـــات الزيـــانية المـــرينية:

لقد كانت للهزائم المتتالية للموحدين، سببا في ضعفهم وضياع هيبتهم، أمام تطلعات القبائل الكبيرة وطموحاتها، ولم تلبث أن ظهر خلال هذه الظروف الصعبة الحفصيون وهم فرع من الموحدين من هنتاتة ونجحوا في تأسيس دولتهم في الجزء الشرقي للدولة وجعلوا عاصمتهم مدينة تدنس 625هـ/1227م[2]، وتمكن بنو زيان من تأسيس دولتهم عام 633هـ/ 1235م، وكانت عاصمتهم مدينة تلمسان[3]، واستطاع بنو الأحمر أن يشيدوا دولتهم بالأندلس سنة 629هـ/ 1230م، واتخذوا من غرناطة قاعدة لهم، وأخيرا جاء المرينيون الذين تم على أيدهم القضاء على ما تبقى من نفوذ الموحدين نهائيا سنة 668هـ/ 1269م، وأسسوا دولة لهم كانت حاضرتها فاس[4].

وادعت كل واحدة من هذه الدول أحقية وراثة ملك الموحدين، واختلفت لتبرير مواقفها حججا وبراهين، واستطاع الحفصيون في الأيام الأولى بسط نفوذهم الأدبي على المنطقة خاصة بعد أن تم اقتحام تلمسان من طرف السلطان الحفصي أبي زكرياء يحي الأول

1- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، ج2، ص 180، ابن الخطيب: الإحاطة: ج2، ص 51-52.

2- ابن عذاري: البيان، ج3، ص 231، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج6، ص 404.

3- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 84، عبد الرحمن بن خلدون:المصدر السابق، ج7، ص 448، طبعة بيروت.

4- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ج7، ص 342.

سنة 640هـ/ 1242م، فبايعهم الزيانيون، وتصدر للدعوة باسمهم المرينيون بالمغرب الأقصى.

غير أن نفوذ الحفصيين في الجهة الغربية، ساعد بنو زيان، على خلع الطاعة وحذا حذوهم المرينيون، فقطعوا الخطبة باسمهم بعد سقوط مراكش بقليل، وأصبحوا آنذاك القوة الأولى بالمنطقة، وكان بنو زيان يرون في ازدياد نفوذ بني مرين خطرا يهدد كيانهم فاستعملوا كل الوسائل المتوفرة لديهم لإضعاف جارهم القوي، ونجم عن ذلك الشعور بالعداء، توتر العلاقات بينهم ودخلوا في تنافس مرير كانت الغلبة فيه دوما لفاس. غير أننا لو حللنا بدقة وتعمق أسباب هذا التنافس لاستنتجنا أنه كان بين الحيين منذ كانوا متجاورين بالصحراء وكانت الحدود بين الفريقين من وادي "صا" إلى فكيك[1].

ولما بدأت دولة الموحدين في الانهيار وتغلب، بنو مرين على عدة نواحي من المغرب، كان الموحدون يستعينون ببني زيان، ولهذا فالضغائن التي وجدت بين بني مرين وبني زيان قديمة، ناشئة عن الجوار في المواطن ثم الملك والمنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة، والظاهر أن المصلحة الذاتية لكل قبيل كانت تطغى على روابط الدم والعقيدة، فالخلاف كان مستمرا والهوة كبيرة بينهم فكثرت الحروب بينهم، وكان ملك بني مرين أعظم فكان الفوز لهم غالبا[2]، حيث أن دولة بني مرين الناشئة كانت، غير راضية بمجاورة قبيل بني زيان المنافس لها

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 171، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 187- 188.

[2]- ذكر عبد الرحمن بن خلدون أن تعداد بني زيان في بداية عهدهم كان ألفا بينما كان بنو مرين ثلاثة آلاف، أنظر: المقدمة، ج1، ص 475.

وذلك لتأكدها من المكانة التي يتبوأها هذا القبيل في ميدان السياسة والحروب بالمغرب الأوسط، فنشأت عن ذلك عداوة بين القبيلتين كان مبعثها المنافسة على رئاسة زناتة والتطلع إلى وراثة الموحدين في المغرب الإسلامي، ونتيجة لهذا لم ير المغرب الأوسط طيلة هذه المجاورة الحتمية مسالمة وقد زاد هذا التنافس في عهد يغمراسن الذي انتهج سياسة تهدف إلى بسط نفوذه على الجهات الغربية وبالتالي الاستيلاء على تاوريرت[1] حتى تازة، أي على الأقل امتلاك القسم الشرقي من المغرب الأقصى، غير أن هذا التنافس يشتد أكثر بعد مقتل الحسن السعيد الأمير الموحدي على يد بني زيان بضواحي تلمسان، و هذا الحادث كان بمثابة بداية التطلع إلى السلطة والملك والتوسع على حساب أملاك الموحدين الذين كانوا في مرحلة الاحتضار[2].

1- التنافس الزيـــاني المريـــني:

ويعود تاريخ هذا التنافس إلى ما بعد هزيمة الموحدين بضواحي تلمسان لما استولى الأمير أبو بكر المريني على مدينة فاس توجه في ربيع الأول 647هـ إلى فزاز[3]. وقد استخلف وراءه على فاس مولاه السعود بن خرباش من جماعة الحشم أحلاف بني مرين، وكان الأمير أبو بكر عند فتحه فاس قد استبقى من كان فيها من عسكر بني عبد المؤمن من غير نسبهم،

1- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 277، وهذه المدينة المرينية توجد الآن غرب مدينة وجدة بـ 136كلم، أنظر: أيضا عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج2، ص 146.

2- راجع ذلك بتوسع في العبر: ج7، ص 148- 154- 162- 163، بغية الرواد، ج1، ص 104- 108، التنسي: نظم الدر والعقيان،ص 111- 116.

3- منطقة جبلية تشمل شمال تادلا.

وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المائتين، ولى عليهم قائدا منهم يقال له شرير الزنجي. فوقع بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس تحالف، في الوقت الذي عزم فيه الفاسيون الفتك بالسعود وتحويل الدعوة إلى المرتضى. فاجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي وفاوضوه في ذلك، فوافقهم الرأي فاستدعوا شريرا وقالوا له: " تقتل هذا الأسود وتضبط البلد حتى يكتب إلى المرتضى فيبعث لنا من يقوم بأمرنا[1]".

فأجابهم إلى ذلك وكان ميله إلى الموحدين وهواه معهم. ولما كانت صبيحة الثلاثاء من شوال 647هـ طلع بعض الأشياخ كعادتهم إلى القصبة للسلام على السعيد، فدخلوا عليه بمجلس حكمه فهاجوه ببعض المحاورات فغضب فوثبوا عليه، ونادوا بشعارهم وكان شرير الزنجي واقفا أمام القصبة فاقتحم السعود وقتله وقتل معه أربعة من رجاله فاقتحموا القصر وانتهبوه[2] وسلبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد.

وبعثوا ببيعتهم إلى المرتضى صاحب مراكش. وقد وصل خبر هذا الحادث إلى الأمير أبي بكر وهو يحاصر بلاد فزاز. ففك عنها الحصار وأتجه إلى فاس فأطبق عليها الحصار وقطع عنها الماء والغذاء ومنع الداخل والخارج، وطلب أهل فاس النجدة من الخليفة الموحدي المرتضى.

ولكن المرتضى لم يبعث إلى فاس بالمدد وبقيت مغلقة تنتظر مصيرها غير أنه استنجد بيغمراسن على الأمير أبي بكر فأجابه يغمراسن إلى ذلك طامعا في أن يكون ذلك سببا له في

---

[1]- السلاوي: الإستقصاء، ج3، ص 15-16-17، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 172.

[2]- قدرت الأموال التي استولى عليها المتمردون بثلاثمائة ألف دينار وفق ما جاء عند ابن عذاري: البيان المغرب، ص 300.

تملك المغرب وسلما للصعود إلى ذروة ملكه فاستعد لذلك، فخرج من تلمسان لعرقلة جهود أبي بكر في فاس[1] ووصل خبر خروجه من تلمسان إلى الأمير أبي بكر، فجمع كتائبه وتوجه إليه قبل وصوله إلى تخوم بلاده، لقيه بوادي إسلي من بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد[2].

في الوقت الذي فر يغمراسن في فلولة نحو تلمسان تاركا محلته بما فيها نهبا وسلبا لبني مرين وكانت هذه الواقعة في ذي الحجة سنة 647هـ وعاد الأمير أبو بكر إلى فاس ليحاصرها من جديد ودام ذلك الحصار الشديد أزيد من تسعة أشهر عرف خلالها أهل فاس جميع ألوان الحرمان والبؤس[3].

2- التنافس حول سجلماسة:

لما كانت سنة 655هـ استعد الأمير أبو بكر لمحاربة يغمراسن بن زيان وسمع به يغمراسن فاستعد هو أيضا، فكان اللقاء بينهما بأبي سليط[4] فاقتتلوا وانهزم يغمراسن، وأقر الأمير أبو بكر على متابعته فأوقفه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين

1- ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 305.

2- ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص 305، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 172.

3- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 309.

4- اللقاء الثاني بين يغمراسن والمرينيين كان بوادي أبي سليط قرب وجدة 655هـ/ 1258م.

يغمراسن فرجع[1] ولما قرب الوصول إلى أحواز فاس بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعه لتحالف كان بينه وبين أهلها أطمعه في ملكها. فشرع الأمير أبو بكر في السير في وسط جموعه إلى سجلماسة فدخلها قبل وصول يغمراسن إليها بيومين، ثم جاء يغمراسن حتى نزل خارجها فيئس من التغلب على الأمير أبي بكر وقد دارت بينهما حرب تكافأ فيها الفريقان وهلك ابن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي بكر، ورجع يغمراسن إلى بلده وعقد الأمير أبو بكر على سجلماسة[2].ودرعه[3]، وسائر بلاد الجهة الشرقية ليوسف بن يزناسن واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي، وجعل تسليح الجند من نصيب القطراني، ورجع هو بدوره إلى فاس[4].

3- التحالف الزيـــاني الموحـــدي: في شهر ذي القعدة من سنة 665هـــ/ 1267م، بعث يغمراسن بن زيان إلى الخليفة الموحدي أبي دبوس بيعته قائلا: " إياك أن تطمع بني مرين فيما لديك، وأنا أكفيك شرهم وأنا وأنت يد واحدة في حربهم[5].

---

[1]- السلاوي: الإستقصاء، ج3، ص 18- 19.

[2]- **سجلماسة:** مدينة تقع جنوب المغرب الأقصى في مقاطعة تافيلالت، لعل الأطلال الموجودة بها هناك والتي يسميها العامة بالمدينة العامرة، هي أطلال هذه المدينة التاريخية ولقد وصفها الرحالة ابن حوقل (ص 65) ثم البكري (ص 148) وصفا مستفيضا فأشار إلى كثرة نخيلها وأعنابها وقصورها وأبوابها، ثم حدثنا عن غنى أهلها الذين كانوا يخرجون بالملح والنحاس إلى بلاد السودان ويرجعون بالذهب إلى بلادهم، ولهذا كانوا في سعة من العيش، كذلك كانت نساؤهم مهرة في غزل الصوف، ولقد جلبت سجلماسة عددا كبيرا من التجار اليهود لكونها مركز لتجارة الذهب ولقد تعرض هؤلاء اليهود لكثير من الاضطهاد في عهد الفاطميين. راجع يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 206- 207.

[3]- مدينة في جنوب المغرب الأقصى وراء جبال الأطلس يخترقها نهر طويل يعرف بوادي درعة وكانت محطة تجارية مزدهرة في القرون الوسيطة.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 175- 176.

[5]- الذخيرة السنية: ص 112.

وكانت البيعة بمثابة حلف بينهما ضد بني مرين، وفي السنة التالية، حاصرت جيوش الأمير أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق عاصمة الموحدين مراكش، وشددت الخناق عليها فلم يجد الخليفة أبو دبوس مخرجا لتخفيف الحصار المضروب عليه سوى اللجوء إلى حليفه يغمراسن وبعث إليه بوفد مصحوبا بهدية ثمينة يطلب منه العون والمساعدة وقال: " كن معني يدا على حربهم "[1] يعني بني مرين، وشن يغمراسن غارات مكثفة على الحدود الشرقية لبني مرين، الشيء الذي أجبر الأمير أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق على رفع الحصار على مراكش مؤقتا واتجه صوب فاس حيث جهز الجيش وأعد العدة، وغادرها في 15 محرم سنة 666 هـ/ 15 أكتوبر 1267م، على رأس حشود ضخمة من المرينيين مكتسحا أراضي يغمراسن. وعندما علم هذا الأخير بالزحف المريني، تأهب للقائه، وفي ضحى يوم الإثنين 12 جمادى الثانية 666هـ/ 28 فبراير 1268م، التحم الجيشان في معركة ضارية بوادي تلاغ[2] أبلى فيها الطرفان البلاء الحسن وبرز فيها نساء العبد الواديين سافرات يحرضن جيوش بني عبد الواد على الصمود والاستماتة في ميدان القتال[3]، غير أن التفوق المريني عدة وعددا رجح الكفة لصالح بني مرين، فألحقوا هزيمة ثقيلة بجيش يغمراسن وقتلوا منه نخبة طيبة. كان من بين

---

[1]- الذخيرة السنية: ص 115، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 305.

[2]- الذخيرة السنية: ص 116، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 305، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 371، السلاوي: الإستقصاء ج3، ص 25.

[3]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 305، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 371، السلاوي: المصدر السابق، ج3، ص 25.

ضحاياها الأمير عمر كبير أبناء يغمراسن وولي عهده، بالإضافة إلى وجهاء عشيرته مثل: ابن عبد الملك بن حنيفة، وبن يحي بن مكنن، وعمر بن إبراهيم بن هشام.

وتمزقت بذلك صفوف بني عبد الواد، وقد فرّ يغمراسن إلى تلمسان، منهار المعنويات وكانت هذه الهزيمة ضربة قوية للعبد الواديين هزت من عزائمهم لمدة طويلة[1].

4- التنافس الزياني المريني وأثره على الأندلس:

لما تغلب السلطان أبو يوسف على الموحدين، وفتح مراكش واستولى على ملكهم سنة 668هـ، عاد إلى فاس وتحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد، وما قاموا به من تخذيل عزائمه وإبعاده عن قصده وهدفه، كما رأى أن واقعة تلاغ لم تشف صدره ولا أطفأت ناره لذلك أجمع من جديد على غزوهم وبهذا يكون العبد الواديون كمنافسين أقوياء لبني مرين، دور كبير في تأخير سقوط مراكش سنة 668هـ/ 1269م، الشيء الذي أدى بالمرينيين إلى خوض غمار الحرب على الجبهتين الموحدية والعبد الوادية، وبسقوط مراكش أصبحوا وجها لوجه مع العبد الواديين غير أن نداءات النجدة التي كانت تتوالى على فاس من الأندلس جعلت سلاطين بني مرين يهبون لشد أزر المسلمين بتلك الربوع، ففي سنة 670هـ/ 1271م، طلب السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من يغمراسن بن زيان الهدنة والصلح كي يتفرغ للجهاد بالأندلس إلا أن يغمراسن الذي كانت

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 176- 177.

دموعه لم تجف بعد حزنا على ولده عمر تعنت ورفض العرض، وأساء في القول وقال: لرسول السلطان أبي يوسف يعقوب: " لا صلح بيني وبينه ولو بلغت في حربه الردى، لقد قتل ولدي وقرة عيني وولي عهدي عمر، أصالح وأهدر دمه؟ والله لا كان هذا أبدا، ولا أترك دم ولدي يمضي سدى حتى آخذ بالثأر وأضيق بلاده التبار"[1].

وهكذا ترك السلطان أبو يوسف يعقوب الأندلس وشأنها وسار في قتال يغمراسن، وهزمه هزيمة شنعاء بوادي إسلي قرب وجدة في 15 من رجب 670هـ/ فبراير 1272م.

وفي بداية الأمر عبأ السلطان يعقوب كتائبه وجعل ابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ووقف هو في القلب ودارت بينهم رحى الحرب وركدت مليا فهلك في هذه المعـــــركة أبو عنان فارس يغمراسن بن زيان في جماعة من بني عبد الواد ونجا يغمراسن في جموعه حاميا لهم ومدافعا عنهم خلفيا ومر في هزيمته بفساطيطة فأضرمها نارا تفاديا من استيلاء العدو عليها وانتهب بنو مرين باقي معسكره واستبيحت حرمه وارتحل السلطان يعقوب من الغد في أثره حتى إذا انتهى إلى وجدة أمر بهدمها وتخريبها، ثم تقدم إلى تلمسان فنزل عليها وحاصرها أياما وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن مساي، وقدم عليه وهو محاصر تلمسان، محمد بن عبد القوي بن العباس كبير بني توجين من زناتة في جيش كثيف من قومه مباهيا به وكان قدومه هذا بمثابة مد يد

---

[1]- الذخيرة السنية: ص 130، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 309، عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 307، السلاوي: الإستقصاء ج3، ص 25.

المساعدة للسلطان يعقوب نتيجة عداوة كانت بينه وبين يغمراسن، فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستمر الحصار على تلمسان وعظمت نكاية بني توجين فيها بالتخريب وقطع الثمار وإفساد الزرع وإحراق القرى كرد فعل لما كان يقوم به يغمراسن بن زيان في بلادهم[1].

و لما امتنعت تلمسان على السلطان يعقوب ويئس من فتحها ما لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها، عزم على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي بالعودة إلى مأمنه قبل أن ينهض هو من تلمسان، فرجعوا إلى مقرهم من جبال وانشريس، وبقي يعقوب أياما ريثما وصلوا خوفا عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة في إتباعهم، ثم اقلع السلطان عن تلمسان عائدا إلى المغرب محملا بالغنائم، والأسلاب، وقد نتج عن هذه الهزيمة تغيير في سياسة يغمراسن بن زيان تجاه فاس، حيث كف عن مناوءتهم بعض الوقت، وتوجه شرقا للتوسع في أراضي المملكة الحفصية وفي سنة 674هـ/ 1275م، تم عقد أول هدنة بين يغمراسن بن زيان وأبي يوسف يعقوب .بمبادرة من هذا الأخير التزم بمقتضاها يغمراسن بن زيان بعدم الإعتداء على الأراضي المرينية، كي يتسنى لأبي يوسف يعقوب تلبية نداء بني الأحمر والوقوف إلى جانبهم عسكريا لصد هجمات قشتالة المتتالية على أراضيهم، وكان لهذا الاتفاق صداه العميق في المغرب والأندلس ونتائج طيبة على الوجود الإسلامي بالأندلس، كما ساهم مساهمة فعالة في تعزيز التضامن الإسلامي[2].

1- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 177- 178.

2- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 178.

5- التحـــالف الشـــلاثي:

إثر الهزائم المتكررة التي ألحقها الجيش المريني بجيوش قشتالة، وبعد اضطراب العلاقات بين فاس وغرناطة نتيجة تخاوف بني الأحمر، تحالف سلطان غرناطة وملك قشتالة، وراسلا يغمراسن بن زيان ليكون معهما يدا واحدة على أبي يوسف، وأقنعاه بضرورة الإغارة على أراضي بني مرين ليعوق أبا يوسف من التوجه إلى الأندلس وأقدم بدورهما على محاصرة الجزيرة الخضراء لمنع وصول الإمدادات إلى عدوة الجهاد.

وما أن علم أبو يوسف بهذه المؤامرة وهو بمراكش، حتى جد السير نحو طنجة. وبعث إلى يغمراسن يطلب منه تجديد الصلح، فأساء هذا الأخير القول للرسول وقال له: "لا صلح بيني وبينه أبدا، وليس له عندي ما عشت إلا الحرب وكلما وصله من صلح مع ابن الأحمر، فهو حق، فقل له يتأهب للقائي وليستعد لتوالي وقتالي"[1]، وبهذا التصريح انكشفت خيوط المؤامرة التي أحبكها سلطان غرناطة وحليفه ملك قشتالة، وكان رد السلطان أبي يوسف عنيفا، فقد زحف على يغمراسن بن زيان ومزق صفوفه في لقاء كرزوزة وشتت شمله ففر في فلوله إلى الصحراء ناجيا بنفسه. وذلك سنة 678هـ/ 1279م، تاركا محلته نهبا مستباحا لبني مرين، ولم تقم له بعد هذه قائمة إلى أن توفي يوم الإثنين 29 ذي القعدة 681هـ/

---

[1]- ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 335، عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 417.

1283م، بوادي أرهيو[1]، لقد كان للهزائم المتتالية التي تلقاها يغمراسن بن زيان على يد المرينيين وقع سيء في نفسه، وقد تيقن أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال مجابهتهم، نظرا لعدم تكافؤ موازين القوى بينهما، وتلافيا لتكرار المأساة مع ولده عثمان فأوصاه بمسالمة المرينيين وعدم الاعتداء على أراضيهم[2].

1- كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسان سنة 681هـ وخلف عليها ابنه عثمان وتوغل في مغراوة وملك ضواحيها، ونزل ثابت بن منديل عن مدينة تنس، فأخذها منه ثم بلغه الخبر بإقبال ابنه أبي عامر برهوم من تونس بابنة السلطان أبي إسحاق عروس ابنه فتوجه إلى هناك بظاهر مليانة. وعاد إلى تلمسان وقد أصابه الوجع في الطريق فهلك هناك بالمكان المشار إليه وحمله ابنه أبو عامر وأخفى موته إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيق متجها إلى تلمسان فلقيه أخوه عثمان بن يغمراسن ولي العهد حيث بايعه الناس وأعطوه صفقة إيمانهم ثم دخل تلمسان، فبايعه العامة والخاصة. راجع هذا في كتاب عند عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 188- 189، التنسي: نظم الدر، ص 175- 176، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 215.

2- عن الحروب التي وقعت بين يغمراسن وبني مرين: أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق: ج7، ص 171- 174، 176- 178- 363- 381، ابن أبي زرع: المصدر السابق: ص 197- 198- 203- 204- 207- 209، الذخيرة السنية: ص 83- 97- 131- 132- 145- 151.

الفصل الثالث

تطور العلاقات الزيانية المرينية في عهد خلفاء يغمراسن بن زيان

1- عهد السلطان أبي سعيد عثمان:

ولد السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 639هـ/ 1241م، وكانت مبايعته بعد وفاة والده في أوائل شهر ذي الحجة 681هـ/1283م، وقد جاء في در التنسي: " ثم بويع بعده ابنه الملك الأسعد، الهمام الأنجد، ذو الهمم العلية والشيم الرضية والمآثر الحسان، أمير المسلمين أبو سعيد عثمان، فاستكثر من الأنصار، ودوخ المعاقل والأمصار، انعقدت له البيعة في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة، فاقتفى في الجد وترك الركون إلى الدّعة، سنن أبيه، و لم يكن همه إلاّ في إشادة بيت مجد يعليه، فشمر في غزو الأعادي"[1].

أما يحي بن خلدون فقد جاء بغيته: "وكان شهما مقداما محببا إلى القلوب، ذا سياسة"[2]. و هذا ما يؤكد أنّه كان ملكا شهما، حسن السياسة والتدبير مقداما صبورا على حوادث الدهر وضرباته.

وكان من المحتمل أن يورث يغمراسن السلطة إلى ابنه أبي زكرياء يحي، غير أنّ أبا زكرياء قد توفي في حياته سنة 669هـ[3]، فولى يغمراسن ابنه، أبا سعيد عثمان فأبقاها هذا في أسرته، إلى أن استولى أبو الحسن المريني على تلمسان سنة 737هـ/ 1337م.

---

[1]- التنسي: نظم الدر، ص 129.

[2]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 208، 209، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 184، 190.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ج7، ص 175- 176- 238، يحي بن خلدون: المصدر السابق ، ج2، ص 13- 14.

وأما عبد الرحمن، فقد ولد بسجلماسة، أثناء ولاية أبيه عليها، ونشأ بها، ثم بتلمسان، وكان فارسا شجاعا اشتهر بين أبناء عشيرته، حتى أن عمه أبا سعيد تخوف منه على عرشه، فأجازه إلى الأندلس بأولاده سنة 694هـ، فأقام بها سنوات عديدة، ثم انتقل إلى بلاط السلطان المريني بفاس، فمكث هناك قليلا، ثم لحق بابن عمه السلطان أبي حمو موسى الأول ابن أبي سعيد، بتلمسان، سنة 712هـ، وفي سنة 713هـ، أجازه أبو حمو إلى الأندلس.

فاستقر بعد ذلك بغرناطة، في بلاد السلطان أبي الوليد بن فرج، من بني الأحمر، ولما قامت الحرب بين هذا وقريبه أبي الجيوش نصر بن محمد، كان عبد الرحمن ضمن الجيش الذي بعثه أبو فرج لمضايقة منافسه بوادي آش، وتوفي في الهزيمة الكبرى التي مني بها جيش غرناطة، بوادي فرتونة، قرب وادي آش جمادي الأول 716هـ/ 17 يولية 1316م[1].

وبقي أولاد أبي زيد عبد الرحمن بالأندلس حتى سنة 737هـ، عندما استدعاهم السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول، بالرجوع إلى تلمسان فرجعوا إليها وأقاموا مكرمين عنده حيث أعلى مكانتهم بين أمراء بني عبد الواد. وبقيت حالهم على هذا الشكل إلى أن استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان، فأرغموا على الاستقرار بفاس، ومكث بها أبو يعقوب إلى بداية إمارة أخويه أبي سعيد وأبي ثابت، فعاد إلى وطنه.

---

[1]- أنظر أعمال الأعلام لابن الخطيب، ص 339 – 340، عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 238- 239، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، ص 14- 15.

ولم يستقر بتلمسان، بل فضل أن يقيم بمدينة ندرومة، وانتهت هذه الإقامة بسقوط إمارة أخويه، فنقل مع الكثير من بني عبد الواد إلى فاس، حيث عاش إلى أن قامت دولة ابنه أبي حمو الثاني.

سيـــــاســـته:

عندما لم يفلح يغمراسن في صراعه مع بني مرين، بعد أن عظم شأنهم، أوصى أبناءه وهو على فراش الموت بالتخلي في مجابهة المرينيين والتوجه شطر البلاد الحفصية المجاورة، ومما جاء في وصيته: "يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فإياك أن تحاربهم، فإن مددهم موفور ومددك محصور ولا يغرنك أني كنت أحاربهم، ولا أنكص عن لقائهم، لأني كنت أخشى معرة الجبن عندهم بعد التمرس بهم، والإجتراء عليهم، وأنت لا يضرك ذلك لأنك لم تحاربهم. ولم تتمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا إليك، وحاول ما استطعت الإستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس، ليستفحل بها ملكك، وتكافئ حشد العدو بحشدك"[1].

ويفهم من نص الوصية ما يلي:

- إن بني مرين أصبحوا — عدة وعددا- قوة لا قبل للعبد الواديين بها.
- إن قتال يغمراسن لهم كان محتما عليه.

---

[1]- السلاوي: الإستقصاء، ج3، ص 56، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 189، 190، عطاء الله دهينة: وصية يغمراسن، مجلة تاريخ وحضارة المغرب العربي، عدد 6 – 27 يولية 1969، ص 22- 26 بالفرنسية.

- يحذر يغمراسن ابنه من مواجهة بني مرين في معركة ما.
- ينصحه بالالتجاء إلى الدفاع عند مهاجمتهم له، والالتجاء إلى الحصون.
- وبالمقابل يحثه على تقوية جهازه الاقتصادي والبشري بالتوسع شرقا على حساب الحفصيين.
- وبالتالي يعمل على تقوية جهازه الحربي وتدعيمه لكي يستطيع فيما بعد مواجهة المرينيين بحشود يعادل حشودهم.
- وينصحه باتخاذ معقل لذخيرته في الثغور الشرقية البعيدة عن العدو المريني.

فهذه العناصر التي اشتملت عليها وصية يغمراسن كانت هي الأساس الذي بنيت عليه استراتيجية الدولة العبد الوادية لمدة طويلة من حياتها، فمنذ تولي عثمان السلطة سارع إلى مهادنة بني مرين[1]، وبالمقابل توجه لتأديب الإمارات الشرقية الموالية للحفصيين[2]،وتبعه في ذلك والده: أبو حمو الأول وأبو زيان[3].

هذا وقد وصل التوغل العبد الوادي نحو الشرق إلى أوجه في عهد أبي تاشفين عبد الرحمن الأول، حيث تمكنت قواته من افتتاح تونس عاصمة الحفصيين نفسها[4].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 190.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ، ص 190- 192.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه ، ، ص 201- 215.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 224.

وبالفعل أصبح الجيش العبد الوادي بعد فتوحاته الشرقية قوة لا يستهان بها، خاصة في عهد أبي حمو الأول وولده أبي تاشفين الأول. أما بخصوص مواجهة بني مرين فقد طبق كل من عثمان وأبي حمو الأول نصيحة السلطان يغمراسن، حيث تجنبا ملاقاتهم في ساحة المعركة، وكانا يلتجئان دوما إلى أسوار تلمسان، دفاعا عن كيانها ضد عدوهما القوي[1].

وهكذا زادت حشودهم قوة كما كانت عليه في بداية عهد الدولة، وخير دليل على ازدياد قوة وحشود الدولة العبد الوادية في عهد أبي حمو الأول، أنه حشد في وقت واحد أربع قوات عسكرية وجهها في غزوات عبر شرق البلاد، وذلك أنه "عقد لمسعود بن عمه أبي عامر برهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية، وعقد لمحمد بن عمه يوسف قائد مليانة على عسكر، ولمولاه مسامح على عسكر آخر، وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد. وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخم، وسرحه مع العرب من الدواودة وزغبة على طريق الصحراء" [2].

وكذا الحال بالنسبة لأبي تاشفين الأول الذي كثرت حشوده العسكرية حتى أضعف قوة الحفصيين. وقد أنزل بحصن واحد فقط، وهو حصن تامزيزدكت الجديد، القريب من بجاية، "عسكرا يناهز ثلاثة آلاف"[3].

---

[1]- أنظر عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 212، 213، 223.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 212- 213.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 223.

كما يلاحظ أن هذه الحشود العسكرية العبد الوادية منذ نشأتها تتألف من عدة فئات منها: قبيلة السلطان، والأحلاف، من قبيلة بني عامر وغيرها.

وفي سنة 646هـ/ 1248م، استخدم يغمراسن بن زيان كتيبة من عساكر الروم- الذين كانوا في خدمة الخليفة الموحدي (السعيد)- قدرت بـ"ألفين" من الفرسان. وبعد تآمرهم على يغمراسن سنة 652هـ/ 1254م، منع استعمالهم في الجيش العبد الوادي تماما، وبقي ذلك المنع معمولا به إلى النهاية[1] ولكن ثبت فيما بعد أن المرتزقة المسيحيين بقوا في خدمة الدولة[2].

وفئة أخرى كذلك استخدمت ضمن الجيش العبد الوادي وهي فئة الحشم[3] وقد استخدمهم لأول مرّة عثمان بن يغمراسن في جبل وانشريس من قبائل توجين[4] وسار على نهجه بعد ذلك ولده أبو حمو الأول، ثم حفيده أبو تاشفين الأول[5].

وهناك قبائل أخرى ملزمة بالمشاركة في الحروب إلى جانب الدولة العبد الوادية نظرا للعهود التي قطعتها معها، ولكي يضمن السلطان العبد الوادي دوام ولائها، كان يلزمها

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر،ج7، ص 174، 175.

[2]- مجلة تاريخ وحضارة المغرب العربي، العدد 11، ص 32، 34.

[3]- حشم الرجل: خاصته الذين يغضبون لغضبه لما يصيبه من عبيده أو أهله، أنظر عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 192.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 192.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 204، 205- 228.

بتقديم الرهائن من أبنائها، وقد اتبع هذه السياسة أبو حمو الأول وبالغ فيها إلى حد كبير[1]، من هذه الفئات جميعها كانت تتكون الحشود العسكرية العبد الوادية.

غير أنّه لم تمض على فترة الهدنة بين فاس وتلمسان سوى بعض سنوات حتى تعكر الجو، وتدهورت العلاقات، وانفجر الوضع على الحدود، وعاد شبح الحرب يهدد المنطقة بالخراب والدمار.

ففي سنة 881هـ/ 1290م، لجأ الأمير أبو عامر بن السلطان أبي يعقوب المريني وأنصاره من الثوار إلى عثمان بن يغمراسن أمير تلمسان، فكتب السلطان أبو يعقوب إلى الأمير العبد الوادي يطلب تسليم المتمردين، فأبي وامتنع، وقال لرسول السلطان أبي يعقوب: " والله لا أسلمه أبدا ولا أبيع حرمتي وأترك من استجارني حتى أموت "[2].

وكان هذا التصرف من عثمان سببا مباشرا في توتر العلاقات من جديد بين بني عبد الواد وبني مرين[3]. فاندلعت الحرب بينهما وتوالت الهجمات من طرف بني مرين على تلمسان حيث حاصر المرينيون تلمسان سنة 1290 لكن بدون نتيجة تذكر.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 215.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 441، 442. ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 278.

[3]- وكان السبب في ذلك هو عصيان أبي عامر وخروجه عن طاعة أبيه السلطان أبي يعقوب، والتجائه إلى تلمسان واحتمائه بسلطانها عثمان بن يغمراسن وقد كان السلطان قد عقد لوزيره ابن عطوش الجنائي على مدينة مراكش وترك معه ولده أبا عامر، فلما عاد السلطان من حركته في أقاصي المغرب رجع إلى فاس في منتصف ربيع 686هـ/ 1288م، مشتغلا بعرسه على بنت موسى بن زيان الغرناطية، خرج عليه ابنه أبو عامر وخرق بمراكش ودعا لنفسه في أواخر 687هـ/ 1288م، وساعده على ذلك عاملها محمد بن عطا فقتلهما السلطان وحاصر مراكش أياما فاضطر الثائر إلى الفرار فالتجأ إلى تلمسان واحتمى بسلطانها عثمان بن يغمراسن 688هـ/1288م، فأواهما ومهّل لهما المكان غير أن السلطان عطف ورضي على ابنه فعاد إلى مكانه وطلب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه بن عطوا المتآمر مع ابنه فأبى، وفي بعض الروايات أن الرسول قد أغلظ في القول فاعتقله عثمان فثارت في نفس أبي يعقوب الضغائن والأحقاد الكامنة فاعتزم على منازلة تلمسان. للتفصيل أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 213؛ التنسي: نظم الدر، ص 179.

فترك أبو يعقوب سبيلها في السنوات الموالية إذ كان منشغلا عنها بأمر أسبانيا، وثورة بني وطاس ولكنه لم يهملها، زاده حقدا عليها تفاوض ملك بني عبد الواد مع ملك بني الأحمر محمد الفقيه ضده سنة 1292م.

ولم يتفرغ لمحاربتها إلاّ سنة 1295م فكانت حربا طويلة المدى دامت إثنى عشر عاما وأحكم الخطة واحتل على التوالي تاوريرت الواقعة على وادي صا سنة 1295م، ووجدة سنة 1296م، وندرومة سنة 1298م، وناوش مرات عديدة تلمسان واضطر في الأخير إلى مهاجمتها ومحاصرتها. وكان ذلك يوم 6 مايو 1299م، فعسكر أمام عاصمة أعدائه وعزم ألاّ ينصرف عنها قبل أن تسقط في حوزته، ولم يقل حماة المدينة عنه عزما، إذ كانوا مصممين على الإستماتة وتقابلت هاتان العزيمتان طيلة ثمانية أعوام، وظل أبو يعقوب طيلة الفترة يبسط نفوذه على كامل المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر بالقوة تارة وبالتفاوض تارة أخرى.

وشيد سلطان فاس أبو يعقوب في مواجهة المدينة المحاصرة مدينة المنصورة[1] واتخذها قاعدة للتوسع في أراضي بني عبد الواد، مشددين بذلك الخناق على العبد الواديين المعتصمين

---

[1]- في أثناء الحصار شرع السلطان أبو يعقوب في بناء وإنشاء حاضرة المنصورة على بعد 4 كلم غرب تلمسان، وكان ذلك في فصل الشتاء سنة 688هـ/ 1299م، جعلها السلطان معسكرا لجنده وقاعدة للتوسع على حساب بني زيان وسماها "محلة المنصورة"، أو تلمسان الجديدة وكان مما أنشأه بها يومئذ قصرا وسوقا، نشأت مدينة جديدة وعرفت ازدهارا اقتصاديا كبيرا، وكان حول القصر سورا يفصله عن سكنى الرعية وحول ذلك السور بنيت المنازل والقصور الأنيقة والحمامات العمومية، والفنادق والأسواق، وأجريت مياه البساتين، وأنشئت دار لإسعاف ثم أحيطت منصورة هذه بسور أنشأته الحكومة المرينية 702هـ/ 1302م، لحمايتها من الضرر فأصبحت بعد ذلك من أعصر الأمصار الجزائرية وأبرعها جمالا، قال ابن الخطيب: (منصورة تلمسان التي لم ير الراؤون مثلها، ولا وصف الواصفون مثلها، وأما قصرها ومسكن الإمام بها فقد رأيت ممن دخله من المتحولين ممن رأى مباني العراق ومباني مصر والشام والمباني القديمة في الأندلس ومراكش وأجمع كلهم على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره وبحق ما قالوه.) للتفصيل أنظر: التنسي: نظم الدر ، ص 178، 179؛ يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 121، عبد الرحمن بن خلدون: العبر: ج7، ص 196، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 386.

بعاصمة ملكهم، ورغم الوسائل التي استعملها المرينيون في منازلة تلمسان والتضييق عليها، فإن صمود بني عبد الواد واستماتتهم في الدفاع عن وجودهم قد أحبط تلك المحاولات وحال دون سقوط تلمسان ولم تفتر عزيمتهم بموت ملكهم المفاجئ[1] ولقي السلطان أبو يعقوب حتفه[2] دون أن يتمكن من اقتحامها وبموته رفع الحصار على المدينة وتنفس أهلها الصعداء بعد المشاق والآلام التي عانوها من جرّاء الحصار الخانق الذي كانوا عرضة له[3].

1- هلك السلطان أبو سعيد عثمان بعد خمس سنين من الحصار وقيل أنه شرب شرابا مسموما تفاديا من معرة الهزيمة، والإنكسار وكانت وفاته يوم 703هـ/ 1304م، فبويع ولده أبو زيان الأول، أنظر: التنسي، المصدر السابق، ص 178- 179.

2- يقول التنسي: "وتمادى بهما الحصار، ثماني سنين وثلاثة أشهر، وحرك الله في تلك المدة الولي الشهير أبا زيد عبد الرحمن الهزميري من مدينة أغمات حتى ورد على يوسف بن يعقوب، وهو محاصر تلمسان، فكلمه بالإنصراف عنهم، ورغبه فيه غاية الترغيب فأبى إلا التصميم على ما هو عليه، فلما يئس منه قام عنه مغضبا"، وقال: يجيء سعاد يقضي هذا، وكان يوسف بن يعقوب قد قتل الفقيه العالم أبا علي المليانى واستلب أمواله ومن جملة ما أخذه خصيا اسمه -سعادا- كان قد رباه أبو علي المليانى فكان يقول له المليانى أنت أخي فلما أخذه يوسف بن يعقوب صيره من جملة الخصيان المتصرفين بين يديه. فلما كان يوم الأربعاء 7 ذي القعدة 706هـ، دخل الخصي المذكور على يوسف بن يعقوب وهو نائم، فألقى الله في قلبه طلب ثأر مولاه فطعنه، بسكين في بطنه فكان في ذلك له الحتف ولأهل تلمسان اللطف. غير أن هذه القصة لا توجد عند يحي بن خلدون ولا عند أخيه عبد الرحمن بن خلدون، في الوقت التي توجد عند ابن أبي زرع، ص 285. كما ذكره المقري: أزهار الرياض، ج2، ص 335- 336، القصة نفسها بتفصيل أكثر.

3- أمّا أهل تلمسان فقد ناهم الجوع واضطروا إلى أكل الكلاب والثعابين، ولم تفتر عزيمتهم بموت ملكهم المفاجئ، ويصف لنا صاحب الإستقصا أن أهل تلمسان قبل رفع الحصار: "ناهم فيها من الجهد والشدة ما لم تنله أمة من الأمم واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفئران، حتى أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وحربوا السقوف للوقود وظلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق تجاوز العادة، وقد وصل ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتباعون به مقداره أثني عشر رطلا ونصف مثقالين من الذهب العين، وثمن الرأس الواحد من البقر ستون مثقالا، ومن الظأن سبعة مثاقيل، وألمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمر بثمن مثقال ومن الخيل بعشرة دراهم ورطل من الجلد البقري ميتة بثلاثين درهما، والهر بمثقال ونصف، والكلب بمثله والفأر بعشر دراهم والدجاجة بثلاثين درهما والبيضة بستة دراهم...".

فاستهلك أهل تلمسان أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم واستفحل ملك يوسف بن يعقوب، حيث اتسعت مدينة المنصورة المشيدة ورحل إليها التجار بالبضائع من الأفاق واستبحرت في العمران ما لم تبلغه مدينة. أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 95- 96، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 210- 211، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 5، ص 379- 380- 381، السلاوي: الإستقصاء، ج4، ص 85- 56، التنسي: المصدر السابق، ص 179- 180.

2- عهد السلطان أبي زيان محمد الأول:

هو ابن السلطان أبي سعيد عثمان، اسمه محمد، ولد بتلمسان سنة 659هـ/ 1261م، وقد جاء عند التنسي: " فلما توفي بويع ابنه الملك الجليل الحسيب الأصيل الأمجد، الأنجد، أمير المسلمين أبو زيان محمد، فنهض بحرب عدوه بجد ودافع عن حرمه في الصاعد الأشد غير أنّه لم تطل به أيامه،..."[1].

وكان يشتهر بالنشاط والحزم ورقة الحاشية ودماثة الطبع فاضلا حسن التدبير.

تولى الحكم في أحرج الظروف وأعسر الأوقات، حيث تولى عرش بني عبد الواد وعاصمتهم مهددة بالإنقراض، ودولتهم بالإنهيار وحياتهم بالإضمحلال وذلك لما نزل بهم من الحصار المريني، وما نكبهم من الرزايا والفجائع والآلام. فتحمل عبء كل ذلك أبو زيان وحده وتزعم قومه مجمعا رأيه على الكفاح والمقاومة إلى النهاية فإما ملك وإما هلك[2]. وبينما هو عازم على مواصلة الكفاح مع قومه ضد العدو المحاصر في صبر نادر وعزيمة قوية متحملين كل المشاق حتى لا تقع عاصمتهم في قبضة بني مرين وإذا بصوت الناعي ينعي سلطان بني مرين أبا يعقوب يوسف صاحب الحصار.

وقد ذكر ابن خلدون هذا بقوله: "حدثني شيخنا محمد ابن إبراهيم لآيلي قال: جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره واستدعى

---

[1]- التنسي: نظم الدر، ص 130، 131، 132، 133؛ عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 202.

[2]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 211؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 286.

ابن جحاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة، فقال له إن بقي عولة اليوم والغد... فاستوصاه بكتمانها، وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمو فأخبروه فوجم لها وجلسوا سكوتا لا ينطقون، وإذا بالنادم "دعدع" قهرمانة القصر من وصائف بيت السلطان أبي السحاق و محظية أبيهم خرجت من القصر إليهم وحيتهم تحيتها وقالت: تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا وللبقاء؟ وقد أحيط بكم، واسف لالتهامكم عدوكم، ولم يبق إلى فواق بكيئة لمصارعكم؟ فأريحونا من معرة السبي وأريحو فينا أنفسهم، وقربونا إلى مهالكنا، فالحياة في الذل عذاب، والوجود بعدكم عدم فالتفت أبو حمو إلى أخيه، وكان من الشفقة بمكان وقال: "لقد صدقتك الخبر فما تنتظر فيهم؟ فقال: يا موسى، أرجئني ثلاثا، لعل الله يجعل بعد عسر يسرا، ولا تشاورني بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن، وتعال إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت ويقضي الله ما شاء. فغضب أبو حمو ونكر الأرجاء في ذلك، وقال: إنا نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا، وقام عنه مغضبا، وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء. قال ابن جحاف وأنا بمكاني بين يديه واجم، لا أملك متأخرا ولا متقدما، إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرس الباب يشير إلى أن أذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين بسدّة القصر، فلم أطق أرجع جوابه إلاّ بالإشارة، وانتبه السلطان من خفيف إشارتنا فزعا، فأذنته واستدعاه، فلما وقف بين يديه قال له: إن يوسف بن يعقوب هلك الساعة، وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم، فاستبشر

السلطان واستدعى أخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته بمسمع منهم، وكانت إحدى المغربات"[1].

وباغتيال السلطان أبي يعقوب المريني، اختلفت كلمة أصحابه وتشتت قومه حسب تشتت أغراض ومصالح رؤسائه، فذهب العناء عن آل زيان وقومه وجميع سكان عاصمتهم بعد حصار طويل دام ثمانية سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام، بلغ فيها عدد الموتى من أهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء المائة والعشرين ألفا[2].

وكان أهم عمل بدأ به السلطان أبو زيان استرجاع نفوذ دولته في شرق البلاد فأعاد إلى حضيرتها منطقة شلف، وجبل وانشريس والمدية وغيرها من المدن، ثم عاد إلى تلمسان في رمضان 707هـ، وفور وصوله إلى عاصمته أمر أبو زيان بإصلاح ما أفسدته الحرب في المباني والقصور والأسوار والمزارع غير أنّه توفي بعد ذلك بقليل في سنة 21 شوال 707هـ[3].

3- عهد السلطان أبي حمو موسى الأول:

هو السلطان أبو حمو موسى الأول بن السلطان أبي سعيد عثمان يغمراسن بن زيان، ولد سنة 665هـ/ 1266م، وبويع بتلمسان يوم وفاة أخيه السلطان أبي زيان الأول يوم الأحد

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 96.

[2]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 211.

[3]- تولى السلطان أبو زيان محمد الحكم من سنة 703هـ/ 1303م إلى 707هـ/ 1308م. للتفصيل راجع يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 212، التنسي: نظم الدر، ص 180، 181.

21 شوال 706هـ/ 26 أفريل 1307م، وكان شجاعا شديدا في غير قساوة، لينا في غير ضعف، حازما صارما، وقد حدد ابن خلدون معالم هذه الشخصية القوية بقوله: وكان صارما يقظا، حازما، داهية، قوي الشكيمة، صعب العريكة، شرس الأخلاق، مفرطا في الدهاء، والحدة، وهو أول ملك زناتة الذي رتب مراسم الملك، وهذب قواعده، وأرهف في ذلك لأهل ملكه حده، وقلب لهم مجن بأسه حتى ذلوا لعز ملكه وتأدبوا بآداب السلطان، قال:" سمعت عريف بن يحي أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية يقول ويعنيه: موسى ابن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان فحد حدودها، وهذب مراسيمها، ونقل عنه أمثاله فتقبلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه[1]، كما كان محبا في العلوم وأهله[2].

سياسته: افتتح عهده بإبرام الصلح[3] وتحقيق السلم مع أمراء بني مرين تأمينا لظهره.

1- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 98، التنسي: نظم الدر، ص 181، 182، يحي بن خلدون: بغية الرواد، ص 212، 213.

2- ورد عليه بعد موت يوسف بن يعقوب، الفقيهان العالمان الجليلان أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام، فكان لزاما عليه بعد مقتل عدوه وفك الحصار عن تلمسان الإعتناء بالعلم والقيام بحقه، فأكرم مثواهما واحتفل بهما، وبنى لهما المدرسة التي تسمى باسمهما، وهذه المدرسة لم يبق لها أثر، غير أن المسجد بمنارته الذي كان إلى جانب المدرسة، ما زال قائما وهو معروف اليوم عند أهل تلمسان باسم: "جامع أولاد سيدي الإمام "، وكان يكثر من مجالستهما والاقتداء بهما. للتفصيل راجع التنسي: المصدر السابق، ص 191.

3 -وجاء عند التنسي: "لما قتل يوسف بن يعقوب، و ولي مكانه ابنه أبو سالم، وكان ابن أمة، فلم يرض أبو ثابت بن أبي عامر متقدم الذكسسر وبعث إلى السلطان أبي حمو الأول أن يعينه بالطبول والرايات وما أمكنه من الجيش، مصطحبين ما عاشا ففعل، وغلب أبو ثابت وقتل عمه وانصرف موفيا بما التزم"، راجع: التنسي، المصدر السابق، ص 183.

حيث أوفد كبار وزرائه إلى السلطان أبي ثابت[1] فأمضوا معا صلحا، ثم اتجه إلى النواحي الشرقية من تلمسان.

ولهذا في أيامه حظيت الدولة بمسالة بني مرين وأمنت من خطورة الحروب والغارات واستعادت قوتها وهيبتها وتفرغ أبو حمو موسى لتمهيد المنطقة الشرقية وإقرار سلطانه في سائر جهاتها، وراوده حلم أبيه بالإستيلاء على بجاية.

كان أول عمل قام به هو تعزيز المدينة حتى تستطيع الثبات في وجه حصار متوقع، فهدم مدينة يوسف بن يعقوب وأصلح ما تهدم من تلمسان وبني الأسوار وحفر الخنادق، وخزن فيها الطعام والملح والفحم والحطب ما لا حد ولا حصر. وقد ذكر يحي بن خلدون:"وشيد الأسوار وأحفر الخنادق وملأ المطامير والصناديق"[(2)].

ولما أطمأن على ملكه من الناحية الغربية وقام بجميع الاحتياطات في حالة هجوم مفاجئ من هذه الجهة، اشتغل بتطهير الحواشي والجوانب المحيطة به، وتابع[(3)] العمليات العسكرية بنفسه تجاه توجين ومغراوة فأخضعهما لسلطته، إذ كانوا قد خلعوا الدعوة العبد الوادية أيام الحصار، وقلّم أظافر زعمائهم الذين كانوا على رأس هذه الحركات أمثال: محمد بن عطية، في نواحي وانشريس، وراشد بن محمد في شلف، وغزا بلاد وانشريس، وعين من قبله هناك

1- تولى السلطان المريني أبو ثابت الحكم من سنة 706هـ/ 1307م. إلى سنة 708هـ/ 1308. وهو حفيد السلطان يوسف بن يعقوب وكان والده وهو أبو عامر قد فر إلى تلمسان. راجع التنسي: نظم الدر، ص 186.

2- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 112.

3- يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ص 126، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 202.

ولاة أمثال مصامح، ويوسف بن حيون الهواري، ومدّ سيطرته بعد ذلك إلى متيجة[1]، ومدينة الجزائر نفسها التي سلمها له أميرها ابن علان بعد أن استبدّ بها حوالي أربعة عشر عاما.

فأخذه إلى تلمسان حتى توفي، ثمّ سيطر على مدينة دلس وأسس مدينة أزفون على الساحل، ومدّ نفوذه إلى إقليم الزاب بالصحراء الشرقية. وبذلك تقلّص نفوذ الحفصيين على كثير من جهات الجزائر الشرقية، في حين توسع نفوذ بني عبد الواد.

وفي الوقت الذي كان أمراء بني عبد الواد يركزون نفوذهم ويوسعون سيطرتهم في الجهات الشرقية، كان سلطان المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق يتأهب للعدوان من جديد ضدّ تلمسان. وفعلا قاد حملة عسكرية إليها عبر ممر تازة ووجدة. ونزل في ضواحيها ولكنّه فشل في اقتحامها واضطر إلى الانسحاب[2].

وأغتنم أبو حمو هذه الفرصة وأخذ يصفي نفوذ المرينيين بالمغرب الأوسط، فقضى على إمراة الثعالبة بمتيجة المشايعة لبني مرين وطارد أمراءها إلى جهات كثيرة من حوض شلف وقام ببناء قصره المعروف باسم: (قصر عمي موسى) الذي تحول إلى قرية بهذا الاسم جنوب شرق وادي رهيو، ولم يكتف بهذا فلاحق الثائر المغراوي راشد بن محمد إلى بلاد القبائل،

1- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 128؛ عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 209.

2- تولى السلطان المريني أبو سعيد عثمان الحكم من سنة 710هـ/ 1310م، إلى 731هـ/ 1331م، وقعت هذه الحركة على تلمسان سنة 714هـ/ 1314م. قال ابن خلدون: وكان معه أبي مع أبي سعيد في عسكره أخوه يعيش بن يعقوب، وقد أدركته بعض الإسترابة بأمره ففر إلى تلمسان، ونزل على أبي حمو ورجع السلطان للتفصيل: أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 505، التنسي: نظم الدر، ص 187، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 213.

وقام بتشييد قرية أقبو على الضفة اليسرى من وادي الصومام والساحل بين تازمارت وبجاية على السفوح الشرقية بجبل أكفادو بجرجرة[1].

لقد عملت عوامل الغيرة أعمالها في الأمير أبي تاشفين بسبب ما كان عليه والده أبو حمو من تقديم ابن عمه أبي السرحان مسعود بن أبي عامر بن يغمراسن بن زيان عليه وتقريبه من مجلسه، نظرا لصرامته ودهائه ونجابته بل وكثيرا ما كان يظهر ذلك أمام ولده أبي تاشفين فيستشير أبا السرحان بن أبي عامر ويحادثه في شؤون الدولة وأعمالها وأبو تاشفين جالس دون أن يلتفت إليه.

وقد ذكر هذا يحي بن خلدون بقوله: "وكان رحمه الله مؤثرا بابن عمه أبي السرحان مسعود بن أبي عامر بن يغمراسن بن زيان عن ابنه السلطان أبي تاشفين ومفضلا أياه عليه في السر والجهر والنهي والأمر، فكثيرا ما كان يعيره به ويوبخه في الملأ بسببه. وربما أسمعه هجر القول غير مبال عاقبته"[2]. وقد تولد نتيجة هذا التصرف لدى أبي تاشفين الحقد والغضب تجاه أبيه وكان له بطانة من أعلاج نجباء كهلال القطلاني[3] وغيره أشاروا عليه بقتل مسعود

1- تجدر الملاحظة هنا إلى أن حدود بني مرين قد تقلصت في عهده حتى وصلت إلى ما وراء تاوريرت غربا، وانقطع المدد من الأندلس، وعاشت الدولة وكأنها في حالة راحة بعد فترة الازدهار التي عرفتها في عهد أبي يوسف وأبي يعقوب. ولولا انشغال بني عبد الواد بالتوسع شرقا في تلك الفترة، لكانوا قد أتوا على عدة مدن من مملكة بني مرين ولهذا يمكن القول أن دولة بني مرين عاشت فترة مظلمة في تاريخها امتدت منذ مصرع السلطان أبي يعقوب سنة 706هـ/ 1307م، حتى وفاة أبي سعيد سنة 731هـ/ 1331م، للتفصيل راجع: عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7 ص 517، السلاوي: الإستقصاء، ج3، ص 110، يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 213، التنسي: نظم الدر والعقيان ، ص 187.

2- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 214.

3- القطلاني- نسبة إلى قطلونية وهي مقاطعة بالشرق الشمالي من جزيرة الأندلس، وهي اليوم مقسمة إلى قسمين: (1) تابع لأسبانيا، (2) تابع لفرنسا، وأكبرا لمقاطعة برشلونة.

المذكور واعتقال أبيه، والاستقلال بالملك والسلطة، وسهلوا عليه ذلك حتى وافتهم فعزموا على ذلك يوم الأربعاء 22 جمادى الأول 718هـ، وقصدوا السلطان بداره حيث كان معه مسعود وبنو ملاح[1]، وغيرهم من بطانته. فدخلوا عليهم والسلاح مشهرا. فأول ما بدأ به الأعلاج قتل السلطان خفية منه على نفوسهم، إذ بقي ثم استأصلوا الباقين.

4- عهد السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن الأول:

هو السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول بن السلطان أبي حمو موسى الأول، ولد سنة 692هـ/ 1293م، وبويع صبيحة الغد من يوم اغتيال والده يوم الخميس 23 جمادى الأول 718هـ/ 23 جوان 1318م، وقد عرف أبو تاشفين بين ملوك الدولة العبد الوادية، بميلة الشديد وتعلقه بالفنون الجميلة ولا سيما فن المعمار، ولم يكن هذا كله ليمنعه من التحمل لأعباء الدولة والقيام بمهامها أحسن قيام، حيث أشاد الدور والقصور، وسك النقود، مع ما كان من الإمعان في اللهو والمجون.

وقد ذكر يحي بن خلدون هذا حيث قال: ذو الهمم المزاحمة للكواكب، والعزائم الطاعنة في صدور المواكب، والعطايا المخجلات للسحائب السواكب، بزغت بأفق الدولة شمسه، فأمحى أمسه، واكتمل بسماء العز أبداره، فتسرى عن قمر الدولة سرارة. ثم أدرك البدو والحضر، واستخدم ربيعة ومضر، وثاقف عداه شرقا وغربا، وناجزهم في عقر الديار طعنا

---

[1]- بنو الملاح: أسرة منها عدة موظفين سامين خدموا الدولة العبد الوادية، أولهم عبد الرحمن بن محمد بن الملاح، الذي تولى منصب صاحب الأشغال عند السلطان يغمراسن، قال يحي بن خلدون: هم بيت شراوة من أهل قرطبة احترافهم السكاكة وأولو أمانة ودين، أنظر يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 121.

وضربا، فترك السهام حصيدا، وأوسع القنا تنصيدا، هذا مع اقتطافه زهر السرور الحميم، وإشرافه على حرم اللّذات من ثنية التنعيم، وأطرح الهوادة، وإمكان الهوى من ناصية المقادة، فكم زخرف من قصور وصروح، وأطاب من عبوق وصبوح، وكم دوخ من قبيل ومصر، وجمع بين لذة ونصر، إلا أن الدنيا الرهو كدرته الصفو، وابتزته الشوب والعضد فراشت إليه سهام العدى، وتحيفته من أيامها ولياليها بالمدى، إلى أن أمكنت منه يد الردى، وأسمعت بزهواته صوت الصدى"[1].

ولّما كان توليه الحكم بهذه الصفة المرعبة، اشتد به الحذر وخشي من الفتك به فأسرع بإبعاد سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن وبعث بهم إلى الأندلس، حذرا وخوفا من ترشيحهم وما يترتب عن ذلك من فتن على الدولة من طرفهم، وأسند الحجابة لمولاه هلالا فاضطلع بأعبائها، واستبد بالعقد والحل والإبرام والنقض إلى أن نكب به[2].

أ- سياسته:

لم يتبوأ أحد من ملوك بني عبد الوادي خاصة من جاء بعد يغمراسن إلا وجعل همه الوحيد القضاء على القبائل المناهضة للدولة في الجهات الشرقية، فسار أبو تاشفين الأول على خطة أسلافه من ملوك بني عبد الوادي[3].

1- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 215، راجع عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 218- 219.

2- محمد بن يوسف، بن يغمراسن، راجع يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 129، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 213.

3- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 216، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 220.

فكان أوّل عمل قام به إغارته سنة 719م- 1319م، لاستئصال محمد بن يوسف الثائر على أبيه بالشرق بجميع قبيله وأحلافه من زناتة وسويد، وحاصرهم جميعا في ربوة توكال من جبل وانشريس ودام الحصار ثمانية أيام، إلى أن جاعت مواشيهم، ونفذت المؤن والذخائر فأخذهم عنوة، واستأصل نفوسهم وأموالهم وسيق إليه محمد بن يوسف المذكور أسيرا فقتله وعفا عن جميع الناس، واستمر في التوسع شرقا حتى وصل بجاية ونزل بها ثلاثا، ثمّ رجع إلى دار ملكه، كما كان أبو تاشفين عبد الرحمن الأوّل يتذكر تلك الحملة الشنعاء التي شنها عليهم الحفصيون في عهد أبي زكرياء الأوّل سنة 639هـ/1242م، وليس من السهل كذلك أن ينسى انكسار مؤسس الدولة العبد الوادية، يغمراسن بن زيان، وانهزامه أمام هذه الحملة الحفصية.

لهذا ظلّ العبد الواديون يتحينون الفرص ليثأروا من خصمهم واستغل أبو تاشفين الأوّل حدوث اضطراب بين سكان قسنطينة تقوضت منه أركان الدولة الحفصية، فأسرع لذلك أبو تاشفين عبد الرحمن الأوّل وبعث بطائفه من الجند لاستطلاع أحوال التخوم الشرقية لمعرفة قوة الخصم الحربية المقيمة بالحدود وكان ذلك سنة 720هـ/ 1320م، وكان على رأس هذه الحملة موسى بن علي الكردي، وقد وصل إلى قسنطينة وحاصرها ولكن دون جدوى،

فعاد إلى وادي بجاية وبني بكر حصنا، ترك به القائد يحي بن موسى الجمي، بحصة وافرة من الجند وعاد[1].

ومن أهمّ التحرشات والغارات التي وجهها عبد الرحمن أبو تاشفين الأوّل على حساب أملاك الحفصيين الغارة التي قام بها سنة 726هـ/ 1326م، حيث توجه موسى بن علي بالجيوش، فنزل قسنطينة، وأفسد بأرضها الزرع والضرع وعاد إلى وادي بجاية، فاختط حصن تامزيزدكت، وقسم مسافاتها على الجيش فبنيت في أربعين يوما، وأمر السلطان بحمل الزرع إليها من جميع البلاد الشرقية، فشحنت مخازنها وعندما اشتد الحصار على أهل بجاية، فغلت أسعارهم ووهنت قواهم فاستغاثوا بسلطانهم أبي يحي فأجابهم بإرسال جميع قواده بجيوشه، حيث التقى الجمعان بالأربعاء من الوادي الكبير فانهزم الحفصيون ومات ظافرهم الكبير واستبيحت محلاتهم جملة[2]. ولما غضب السلطان من قائده موسى[3] بن علي، ونكب به، أرسل يحي بن موسى[4] السنوسي في العساكر إلى إفريقية ومعه القواد، فعاثوا في نواحي قسنطينة، ووصلت غارتهم إلى عنابة.

---

[1]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 216، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 221.

[2]- بني أبو تاشفين في حركته الأولى، سنة 721هـ/ 1322م، حصنا قرب بجاية، ثم اختط مدينة قرب بجاية أيضا اسماها تامزيزدكت في حملته الثانية 726هـ/ 1326م، راجع: يحي بن خلدون: المصدر السابق: ج1، ص 135- 137، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 221، 223.

[3]- موسى بن علي الكردي، فروا أمام التتر، ونزلوا على المرتضى بمراكش. فأكرمهم، ونشأ موسى بين حرم يوسف حتى إذا نزل محاصرا لتلمسان، أغضبه ذات يوم، فلحق بعثمان الأول، فعرف فضله، وبالغ في إكرامه، وتولى قيادة جيوش أبي حمو.

[4]- يحي بن موسى من بني سنوس بطن من كومية كانوا في حلف بني كمي من بني عبد الواد، فولاه أبو حمو مراقبة الحرس الليلي وضبط الأبواب وقسم القوت بمقدار على المقاتلة.

وفي سنة 729هـ، وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين طالبا النجدة، ووفد معه عبد الحق بن عثمان، فحول الشوك من بين مرين، وكان قد نزل على السلطان أبي يحي منذ سنتين فغضب منه ولحق تلمسان فبعث السلطان معهم جميع قواده بجيوشه بقيادة يحي بن موسى، فلقيهم السلطان أبو يحي بالرياس من ضواحي بلاد هوارة، وانخذل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه، وانكشفت جموعهم واستولوا على محلاتهم[1] بما فيها من الحريم، وعلى ولديه أحمد وعمر، وارسلوا بهما إلى تلمسان، ولحق السلطان أبا يحي بقسنطينة وقد أصابه بعض الجراح في ميدان المعركة، واستمر يحي بن موسى وابن أبي عمران في سيرهما إلى تونس[2]، فاستولوا عليها، ويعود يحي بن موسى في جموع زناتة بعد أربعين يوما من دخولها، حيث عاد إلى تلمسان. وبلغ الخبر السلطان أبا يحي بعودة زناتة، فتوجّه إلى تونس وأبعد عنها ابن أبي عمران بعد أن كان قد أوفد من بجاية على ملك المغرب ابنه أبو زكرياء يحي ومعه أبو محمد بن تافراكين[3] من مشيخة الموحدين، مستنجدا بأبي تاشفين وداخل السلطان أبا تاشفين بعض أهل بجاية ومكنوه منها، وسرعان ما أقلع عنها وولى ابن مزروع من مشيخة بني عبد الواد على الجيش الذي بتامزيزدكت وأمره ببناء حصن أقرب من بجاية

1- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 138، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 224.

2- محمد بن أبي المعروف بابن أبي عمران أمير حفصي جاء من طرابلس، مطالبا بعرش تونس، وتقلب في عدّة لقاءات مع الخليفة الحفصي، راجع: العبر، ج6، ص 760- 764.

3- من مشيخة الموحدين: راجع: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 224، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 193.

عن تامزيزدكت، فبناه بالياقوتة في أعلى الوادي تجاه بجاية وشدد عليها الحصار حتى تدخل السلطان أبو الحسن المريني الذي فك عنها الحصار.

التحالف المريني الحفصي:

استغاث السلطان الحفصي بأبي سعيد المريني على دفع خطر بني عبد الواد ويعرض عليه عقد زواج بين ابنه أبي الحسن وإحدى الأميرات الحفصيات، فاستقبل السلطان المريني هذا الوفد أحسن استقبال، ووافق على تلبية طلب أبي يحي وعلى عقد الزواج، وكان ذلك بدون شك فرصة نادرة أراد بنو مرين اغتنامها ليحققوا حلما كان يراود أذهانهم منذ عهد طويل، وهو القضاء على دولة بني عبد الواد والاستيلاء على المغرب الأوسط، فبعث أبو سعيد المريني وفودا إلى أبي عبد الرحمن بن أبي تاشفين الأوّل يطلب منه الكف عن مهاجمة بلاد إفريقية، والإقلاع عن حصار بجاية، فكان الجواب بالرفض، وفي تلك الأثناء توفي السلطان المريني[1]، وخلفه ابنه أبو الحسن[2]، فأعاد الطلب الذي أقره أبوه شافعا للسلطان الحفصي، فكان رد أبي تاشفين لشفاعته أسوأ من الأوّل، وقال له: "كف عنهم سنة واحدة ليسمع الناس أنّي دافعت عن صهري ويقدروا قدري"[3]، غير أن رد الأمير العبد الوادي كان سلبيا، حيث أساء القول لوفد السلطان أبي الحسن، "وأفحش بمجلسه بعض السفهاء في الرد عليهم والنيل

1- وفاة السلطان المريني أبي سعيد 731هـ/1333م.

2- تولى السلطان أبو الحسن المريني الحكم من سنة 731هـ/ 1333م، إلى سنة 749هـ/ 1348م.

3- السلاوي: الإستقصاء، ج3، ص 123.

من مرسلهم"[1]، وعندئذ لم يبق أمل في استمرار السلم بين الدولتين، وشرع أبو الحسن يستعد للهجوم على المغرب الأوسط ويتأهب للحرب[2].

استيلاء أبي الحسن المريني على المغرب الأوسط:

وفي سنة 735هـ/1335م، غادر السلطان أبو الحسن المريني فاس على رأس حشود ضخمة، وقد اكتسح في طريقه مدن بني عبد الواد، وجدة، ندرومة، هنين، ونزل تسالة بالقرب من سيدي بلعباس، ثم أرسل إلى صاحبه الحفصي يدعوه إلى مهاجمة معسكر الزيانيين ببجاية، للاستيلاء على حصن الزيانيين المعبأ يومئذ بالأقوات والجند، وقبل أن يصل الغزاة هؤلاء هذا الحصن أجفل من كان بها من بني زيان، وقد عمل فيها المرينيون ومن معهم من الجند الحفصيين يد التخريب والتدمير، فنسفوها نسفا، وتركوها خرابا، وانتهبوا ما جمعه فيها السلطان أبو حمو الأول وولده أبو تاشفين من الأقوات والأرزاق، وكان بها من ذلك كما يقول عبد الرحمن بن خلدون: " بحر لا يدرك ساحله، وذلك أن السلطان أبا حمو كان قد أمر بنقل العمال بسائر البلاد الشرقية منذ أن أنشأ مدينة البطحاء بنقل أعشار الحبوب وسائر الأقوات إليها، وسار على خطته في ذلك ولده من بعده أبو تاشفين الأول إلى أن حلت بهم هذه الفاطرة "[3].

---

[1]- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 218، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 226، التنسي: نظم الدر، ص 145.

[2]- التنسي: المصدر السابق، ص 146.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 227.

و لم تكد تنتهي سنة 736هـ/ 1336م، حتى كان السلطان أبو الحسن قد بسط نفوذه على جميع الممتلكات الشرقية لدولة بني زيان، في تلك الأثناء كان السلطان أبو الحسن يشرف بنفسه على مقاتلة بني زيان، وسخر هذه الحرب، أحدث الآلات المعهودة آنذاك، و لم يتمكن المحاصرون من حمل الجيش المريني على فك الحصار على المدينة.

وحسب قول عبد الرحمن بن خلدون: " أدار عن البلد سياجا من السور ونطاقا من الخندق ونصب الآلات والمجانيق من وراء خندق وشيّد قبالة كل برج من أبراج البلد بركا على ساق خندقه ينضح رماته بالنبل رماتهم وتغلوهم بأنفسهم حتى شيدوا برجا آخر أقرب، وترتفع شرفاته فوق خندقهم، و لم يزل يتقرب بوضع من حد إلى ما بعده حتى أختطفها من قرب على مسافة خندقهم، وتماضع المقاتلة بالسيوف من أعاليها وقربت المجانيق إلى زحمها ودكها، فنالت من ذلك فوق الغاية"[1].

في 22 رمضان 737هـ/1337م، اقتحم الجيش المريني العاصمة الزيانية، وملكها عنوة، انحزا أبو تاشفين وثلاثة من أبنائه ووزيره موسى بن علي الغزي إلى باب القصر، يقاتلون دون الحرم والأولاد إلى أن قتلوا جميعا[2]، فكان ذلك أول انتصار هام حققه بنو

1- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 533.

2- عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر، ص 299، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1، ص 141 التنسي: نظم الدر، ص 146.

مرين بالمغرب الأوسط، عظم به نفوذهم، وظهر أبو الحسن المريني بمظهر الملك القوي، وذاع صيته في الأفاق، وهكذا أفل نجم بني زيان وانتهى دورهم التاريخي الأول[1].

وقد عامل السلطان أبو الحسن المريني أمراء بني زيان وفرسانهم معاملة حسنة، فشملهم بعطفه، وأبقى لهم مناصبهم وامتيازاتهم وكفل أبناء أبي تاشفين الصغار وأنزلهم في قصوره، واستعمل من توسّم فيه الكفاءة والشجاعة من الفرسان في جيشه، وفي إدارته، فحصلت له بذلك زعامة المغربيين الأوسط، والأقصى، وبهذا الانتصار أصبحوا أقوى من حكم بلاد المغرب الإسلامي، وكانوا الورثة الحقيقيين للموحدين[2].

1- رمضان 737هـ/ 02 مايو 1337م، راجع: عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 536، خلافا للتنسي الذي يقول يوم 22 رمضان 737هـ/ أفريل 1337م.

2- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 537، أنظر كذلك السلاوي: الإستقصاء، ج3، ص 126.

الفصل الرابع

الحيـــاة الفكـــرية

المدخـــــــــــــل:

لقد كانت العلاقات الثقافية بين أجزاء المغرب الإسلامي في نمو مطرد خلال هذا العصر.

فكانت (بجاية)، و(تلمسان)، و(مراكش)، و(فاس)، حواضر للإشعاع الثقافي. وظل هذا الوضع قائما حتى في أحلك أوقات الصراع السياسي وأزمنة القطيعة التي كانت تظهر هنا وهناك لأسباب سياسية أو عقدية[1]، وذلك نتيجة لعوامل هي:

- حرية تنقل العلماء والكتاب والأدباء والشعراء بين هذه الأقطار وعواصمها بالخصوص.
- ازدياد التراسل وتبادل المعلومات والمخطوطات بين علماء المغرب الإسلامي.
- وفرة عدد الطلاب المتلقين في هذه العاصمة أو تلك.
- ازدهار صناعة الوراقين، ونسخ الكتب، وشكلت هذه الظاهرة، مميزا حتى أصبح لها مكانة قوية في بلاطات الملوك.
- وفرة الإجازات العلمية بين العلماء والأدباء والفقهاء والمحدّثين حيث أصبح [illegible] أعلاما زانوا بأعمالهم المحافل العلمية على مستوى عواصم بلدان المغرب الإسلا[illegible]

[1]- راجع المحاضرات المغربيات لمحمد الفاضل ابن عاشور ، ط، تونس ، 1974، ص 7.

وأدى هذا الاتصال والتبادل العلمي والثقافي بين أقطار المغرب الإسلامي إلى قيام بيئات ثقافية متجذرة الأصول ومتعددة الفروع فيما بعد وخاصة بعد هجرة بعض الأسر الأندلسية إلى القيروان وبجاية وتلمسان ومراكش وفاس.

ويعدّ تأسيس تاجرارت بجانب أجادير من طرف يوسف بن تاشفين خطوة حاسمة في تطور مدينة تلمسان، حيث أن المرابطين أولوها عناية خاصة، وجعلوها مقر ولاية المغرب الأوسط، فشيدوا بها قصرا جعلوه مقر الوالي، وبنوا المسجد الأعظم بإزائه، كما بنى الأمراء والوجهاء منازل فخمة حوله، وأصبحت المدينة الجديدة تستقطب العلماء والأدباء والتجار والعديد من الوافدين من مختلف أنحاء الدولة.

وفي عهد الموحدين تواصل التوسع العمراني بموازاة مع تزايد النشاط التجاري، من جهة وتعميق الثقافة العربية الإسلامية، من جهة أخرى.

واستفادت المدينة الجديدة من عناية الموحدين الذين أبقوها كمقر لولايتهم على المغرب الأوسط، وشيدوا أسوارها، محققين بذلك حصانتها. ثم إن امتداد الدولة الموحدية إلى سائر أنحاء المغرب الإسلامي أدى إلى توثيق العلاقات بين أقطارها، وتكثيف الاتصال بين سكانها. وأصبح كثير من العلماء والطلبة، يتنقلون بين هذه البلدان، للأخذ عن علمائها أو للتدريس والاستقرار بها. وهكذا فإن تلمسان لم تزل، منذ القرن الرابع الهجري، تستقطب العلماء، وتتجه بخطى حثيثة نحو النمو الثقافي والحضاري.

وقد عبّر البكري عن ذلك في وصف المدينة القديمة (أجادير) بقوله: "و لم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدّثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله"[1].

فهذا أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي الأصل وأحد كبار المحدثين والفقهاء في عصره يترل بتلمسان وينشر بها العلم إلى أن توفي بها سنة 402 هـ[2]. وهذا أبو جعفر أحمد ابن غزلون من علماء الأندلس يستقر بها ويأخذ عن طلبة العلم إلى وفاته بها سنة 524 هـ[3]. ومن رجال العلم والصلح الذين اشتهروا بها أبو محمد عبد السلام التونسي، الذي قدم من أغمات ونزل ودرس بها، فكان من تلامذته عبد المؤمن بن علي الكومي، مؤسس دولة الموحدين، وتوفي حوالي سنة 530 هـ[4]. ومنهم عبد العزيز بن الدباغ من أهل مرسية رحل من الأندلس إلى فاس ثم إلى تلمسان، فاستقر بها وكان فقيها ومحدثا، وتوفي سنة 602هـ[5]. ومن أشهر العلماء، أبو عبد الله بن عبد الرحمن التحيبي من أهل اشبيلية نزل تلمسان وأخذ عنه كثير من طلبة العلم وتوفي بها سنة 610 هـ[6].

---

[1] -البكري: المسالك والممالك (نشره دي سلان)، ص 76-77.

[2]- أنظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 3 ص 116-124 وج2 ص 623-624. وابن فرحون: الديباج المذهب، ص 35. يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1 (تحقيق عبد الحميد حاجيات)، ص 127-158.

[3]- أنظر: يحي بن خلدون: المصدر السابق، ص 127- 128.

[4] -عبد السلام التونسي أنظر ابن قنفذ: أنس الفقير ، ص 107-108، بغية الرواد ، ج1، ص 125-156، ابن مريم: البستان، ص 122.

[5] -أنظر: الذخيرة السنية، ص 40.

[6]- أنظر: المقري: نفح الطيب، ج2، ص 360.

ولا شك في توافد الكثير من رجال العلم على مدينة تلمسان أدى إلى تكوين أجيال من العلماء من بين أهلها أمثال ابن أبي قنون المتوفي سنة 557 هـ.[1] وأبي عبد الله بن عبد الحق، المتوفي سنة 625 هـ[2]، وغيرهم ممن نبغوا في مختلف العلوم كما أن كثيرا من علماء تلمسان رحلوا إلى أقطار أخرى واستقروا بها، أمثال الأديب أبي علي بن الأشيري، المتوفي بعد سنة 569 هـ[3]، وأبي موسى عيسى بن عمران الذي ولي القضاء بإشبيلية ومراكش، وتوفي بهذه المدينة سنة 578هـ[4]، وابنه أبي الحسن علي، الذي ولي قضاء فاس وتوفي سنة 594هـ[5]. وكان هذا العدد الكبير من العلماء في هذا المركز الثقافي برقعته الواسعة، قد أثرى الحضارة العربية الإسلامية في مختلف مجالاتها هنا في المغرب الأوسط وفي كل أقطار المغرب الإسلامي، وشارك في نهضتها وتطورها ورقيها وتوسيع مجالاتها ومفاهيمها، علما، ودراية، واستيعابا وإبداعا، وكان يشكل نماذج مما قدمه المغرب الأوسط من مظاهر حضارية، لقد شملت جهودهم الحضارية ميادين كثيرة، في الآداب والفلسفة والتاريخ والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والجغرافية والفنون والصناعات.

غير أن العصر الموحدي الذي سبق قيام الدولة العبد الوادية، كان عصر حرب عقائدية بين الموحدين والفقهاء، فالموحدون كانوا ذوي فكرة إصلاحية في الدين وكان

---

[1]- أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: بغية الرواد ج1، ص 101-102-103. الحفناوي: تعريف الخلف، ج2، ص 258.

[2] -بغية الرواد: المصدر نفسه، ص 112-113-114.

[3]- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت (تحقيق عبد الحميد حاجيات)، ص 85.

[4] -أنظر عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 245-246. بغية الرواد، ج1، 101-102-134.

[5]- أنظر : المعجب، ص 246-312. بغية الرواد ، ج1، ص 113-145.

مذهبهم خليطا من مذهب الأشعرية في الكلام، ومن مذهب الشيعة الذين يؤمنون بفكرة الإمام المعصوم، ومن قولهم بالاجتهاد، وهم الذين أمروا بالاجتهاد والرجوع إلى الأصول من كتاب وسنة، ونبذ الفروع، بل إنهم أحرقوا كتب الفروع مثل: مدونة سحنون، ويقول المراكشي في هذا الصدد: "وفي أيامه (يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين)، انقطع علم الفروع/ وخاصة الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذاهب، بعد أن جرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك، وأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس، ونوادر بن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب، ونحا نحوها، لقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال، فتوضع ويشعل فيها النار.

وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بالرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك، وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن الحديث ..."[1].

وهكذا كانت الحرب العقائدية بين الموحدين والفقهاء مستمرة، إلى أن قضي على دولة الموحدين، من هذا نستطيع أن نقول إن هؤلاء الفقهاء قد تغلبوا سياسيا وعقائديا على الموحدين. فقد استطاعوا بمناهضتهم أن يؤلبوا الخاصة والعامة ضد الموحدين، وهذا ما جعل القضاء على دولتهم سهلا، فهذا المأمون الموحدي يعلن إعلانا رسميا بإبطال دعوى المهدي

[1] – عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 278.

وعصمته حيث يقول: "من عبد الله إدريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، إلى الطلبة والأعيان والكافة، ومن معهم من المؤمنين، والمسلمين والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به، والتوكل عليه، ولتعلمها أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم، الناطق بالصدق، وتلك البدعة قد أزلناها ... كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة، وسقطنا عنه وصفه ورسمه، وكان سيدنا المنصور رضي الله عنه[1] همّ أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرقع للأمة، الخرق الذي رقعنا، فلم يساعده لذلك أمله، وأجله إليه أجله، فقدم على ربه بصدق نية وخالص طوية ..."[2]. فهذا الإعلان الرسمي من طرف الخليفة الموحدي أمام الملأ، يعود إلى تغلب الفقهاء على الموحدين وتشبثهم بمذهب أهل السنة[3].

لقد حاول الموحدون الضغط على فقهاء تلمسان كغيرهم من فقهاء المغرب، وإرغامهم على اعتناق أفكارهم الجديدة والتخلي عن المذهب المالكي، لكن هذه الوسائل لم تزد فقهاء تلمسان خاصة سلفية الإمام مالك إلا عنادا وتصلبا في الموقف[4]، بالرغم مما أصابهم من محن وأذى، وفي هذا الشأن يقول عبد الله كنون: "والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة إلى الاجتهاد، التي كان الموحدون يتزعمونها

1- ولد المأمون الموحدي، أنظر عبد الله كنون: النبوغ، ج 2، ص 347.
2 -عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 278-279.
3- المصدر نفسه، ص278.
4 - المصدر نفسه، ص291.

ولا أمام المذهب الظاهري الذي عرف نشاطا كبيرا في هذا العصر"[1]. فقد أظهر فقهاء المالكية مقاومة شديدة للموحدين. نتيجة لهذا الصراع الفكري، انتعشت الحركة الفكرية، ثم نضجت وانتشرت في الحواضر المغربية والأندلسية، وازدهرت العلوم الدينية ازدهارا كبيرا، فتقدمت دراسة الفقه تقدما ملحوظا، فنبغ في هذه العلوم عدد كبير من أهل تلمسان تركوا لنا مؤلفات ومصنفات ومختصرات عديدة"[2].

وهناك من شبه العصر الموحدي في المغرب الإسلامي بالعصر العباسي لأن فيه بدأت العلوم تتطور، وقد كان تأثير الموحدين في العقول أكثر من تأثيرهم في المجالات الأخرى ففي عهدهم تحررت العقول التي كانت تثور لأدنى بادرة من الخروج عن المسلمات، والقواعد المتعارفة. كما عرفت إنتاجا ضخما متنوعا ومتطورا، وذلك بفضل تشجيع الخلفاء الموحدين للأدباء والعلماء.

أما العصر الذي تلا عصر الموحدين، فيعد في الواقع امتدادا للعصر السابق على الأقل فيما يخص الميدان الفكري حيث سارت دول المغرب الإسلامي على نهج الموحدين في تشجيع العلم والعلماء، إذ أن البذرة الموحدية قد أينعت شجرتها، وأعطت ثمارها، فهؤلاء كما ذكرنا يقولون بالاجتهاد، وهذا حافز مهم في تحرير الأفكار من الجمود، وتنشيطها، ودفعها إلى

[1] - عبد الله بن كنون: النبوغ المغربي، ج1، ص 122-123.
[2] - عبد الله بن كنون: المصدر نفسه، ص 189.

الحركة والعمل على البحث والتفكير وعدم الاكتفاء بالحفظ[1] وهذا الجو كفيل أن ينشأ عنه أو يتخرج في مدارسه علماء نوابغ قادوا الحركة الأدبية، والعلمية. كما كان لحركة الهجرة الأندلسية دور كبير في تطور الحياة الفكرية في بلدان المغرب الإسلامي، وتعود هجرة العلماء الأندلسيين إلى حواضر المغرب الإسلامي لأسباب منها:

1. التدهور السياسي الذي أصاب الأندلس عقب سقوط الدولة الأموية 430 هـ وقيام ملوك الطوائف 430-488 هـ وهذا التدهور السياسي حفز بعض العلماء على الهجرة من الأندلس إلى المغربين: الأقصى والأوسط، وإلى إفريقية والمشرق رغبة منهم في الاستقرار السياسي الذي تكون فيه الدولة الإسلامية قوية مهيبة.

ولعل ابن رشيق المسيلي القيرواني أحسن التعبير عن عزوفه في البقاء في الأندلس ببيتيه المشهورين:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

2. ضم الأندلس إلى المرابطين 488-530 هـ على يد يوسف بن تاشفين وقد كان فتحها خيرا وبركة على النهضة الثقافية والحضارية في المغرب، حيث هاجر كثير من أعلام الأندلس إلى المغرب مقر السلطة الحاكمة، ونقلوا معهم حضارتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم، وفي ذلك

[1]- عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 278.

يقول صاحب المعجب: "فانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه من عصر من الأعاصير" [1].

وكانت تلمسان وبجاية لا تقل عن مراكش عاصمة المرابطين استهواء للعلماء وقد استقر بها من أعلام الفقه والأدب والتصوف والفلسفة أفادوا أهلها واستفادوا منهم.

هذا بالإضافة إلى ما أبداه ملوك بني عبد الواد من رعاية وعناية للعلم والعلماء، والمنافسة التي كانت قائمة بين ملوك المغرب الإسلامي في مجال العلوم والآداب، حيث كان البلاط العبد الوادي بداية من يغمراسن بن زيان وفي عهد خلفائه يرى أن التجاء العلماء إلى دولته إنما هو تشريف لها، وإغناء لثروتها العلمية وسمعتها الأدبية في المغرب الإسلامي خاصة والعالم الإسلامي عامة، وكان يرى أن هذه الرعاية تضفي على شخصه سمعة ومهابة.لأن من بينهم من كان ينتمي إليه فكان منهم الفقيه والشاعر والأديب والفنان[2] فكان هؤلاء الأمراء والسلاطين وغيرهم يشجعون العلماء على الاجتهاد في الدرس، وتحرير الأفكار من الركود وتنشيط الحياة الفكرية كما كان في عهد أسلافهم الموحدين الذي تميز بالاجتهاد وحرية الفكر في المسائل المتعلقة بالمعتقدات والفقهيات، فتأثرت مدينة تلمسان بهذه النهضة وبمختلف

[1] – عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 864.

[2] – يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، (تحقيق: عبد الحميد حاجيات)، ص 216.

التيارات الفكرية السائدة آنذاك[1]. فقد أتاحوا الفرصة للحوار والمناظرة والتعمق في البحث والإقبال على دراسة مختلف المؤلفات الفقهية وغيرها، حتى صارت مدينة تلمسان في عهد بني عبد الواد من المراكز التي تستقطب الطلاب وأهل العلم، حيث أقبلوا على الدراسة والاستفادة من علمائها المقيمين والزائرين مباشرة، حتى صار لهم "حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، حسب تعبير ابن خلدون[2].

وكان السلطان يغمراسن من الأوائل الذين شجعوا الحركة الثقافية والتعليمية بتلمسان، ورغب رجال العلم في القدوم إلى عاصمته وأغدق عليهم الأموال والهدايا وأعلى منزلتهم، وشجعهم على التدريس واستقر في عهده بمدينة تلمسان الشيخ العالم أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي (ت 680هـ/1306م) كبير علماء زمانه[3]، وأخوه أبو الحسن (ت 706 هـ/1332م).

وقد كانت المنافسة بين سلاطين المغرب الإسلامي على أشدها في اختيار كبار الكتبة والأدباء والفقهاء، وإدراجهم في المجالس العلمية والدواوين مثلما فعل السلطان يغمراسن حيث تمكن من استقطاب أبي بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسي الأندلسي إلى

---

[1]- التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 191-197.

[2] - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 106.

[3]- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 114.

بلاطه[1] والذي يقال عنه أن المستنصر أبا عبد الله بن أبي زكريا الحفصي (647-675 هـ/1249-1277م) طلبه للكتابة، وبعث له أموالا كثيرة لهذا الغرض لكن ابن خطاب اعتذر ورد له أمواله، فظهر علو شأن هذا الكاتب وبعد همته عند الخليفة الحفصي وتحدث ابن الخطيب في هذا الصدد بقوله: "وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا، استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء، وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين فاعتذر ورد عليه المال، وكانت أشق ما مرّ على المستنصر وظهر له علو شأنه وبعد همته"[2].

وكان السلطان يغمراسن يعقد المجالس العلمية في قصره ويهتم بالمذهب المالكي ويرعاه[3]، ونحا منحاه السلطان أبو سعيد عثمان في تشجيع ذوي العلم والفقه، فاحتفظ بمن كان في بلاط أبيه من العلماء والفقهاء والأدباء وأضاف لهم الشاعر الصوفي الكاتب المتميز أبا عبد الله بن خميس، وقلده خطة الكتابة[4]. أما السلطان أبو حمو موسى الأول، فقد جعل مدينة تلمسان منارة للعلم يقصدها العلماء وأهل الفكر، نذكر منهم، الفقيهين الكبيرين ابني الإمام أبا زيد وأبا موسى الذين قربهما إليه وأكرم وفادتهما، وبنى لكل واحد منهما منزلا وأسس لهما مدرسة، وهي المدرسة الأولى التي تشيد بمدينة تلمسان في بداية عهده، وكان أبو

[1] – ابن مريم: البستان، ص 227.
[2] – ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص 426-427.
[3] – ابن مرزوق: المجموع ، ورقة 35.
[4] – يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، (تحقيق: عبد الحميد حاجيات)، ص 208.

حمو هذا يكثر من مجالستهما والاستماع إلى نصائحهما وعلمهما الغزير [1] واختصاصهما بالشورى[2].

وقرب السلطان أبوتاشفين الأول إليه الفقيه أبا موسى عمران المشذالي البجائي (ت745هـ/1345م)، أعرف أهل عصره بمذهب مالك وعينه مدرسا بالمدرسة الجديدة التي أسسها بتلمسان، وأراد بذلك لعاصمته أن تضاهي فاس وتونس وغرناطة في المجال الحضاري والعمران.[3]

وقد اشتهر في عهده أيضا أسرة بني الملاح[4]، وقاضي الجماعة أبو عبد الله محمد ابن منصور المعروف بابن هدية، الذي تولى قضاء الجماعة بتلمسان وكتابة السر والخطابة في المسجد الجامع، فكانت له مكانة متميزة عند أبي تاشفين الأول[5] الذي كان يحرص كل الحرص على إقامة المجالس العلمية والأدبية في قصره ويحضرها باستمرار، وتدار فيها المناقشات بين الفقهاء والعلماء والأدباء، لعب فيها الشيخ الفقيه العالم موسى بن عمران بن موسى المشذالي دورا بالغ الأهمية ، بين أقرانه الفقهاء في المسائل الفقهية التي كانت محور الحديث والنقاش،وحول التقليد والتقييد والاجتهاد وأصول المذهب المالكي[6].

1- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ص 130، ابن مرزوق: المسند، ص 265-266.

2 - التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 139.

3- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ص 205-206.

4- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 217-218، يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 205-266.

5- النباهي أبو الحسن عبد الله المالقي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تحقيق ليفي بروفنسال، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1948، ص 134).

6- المقري : نفح الطيب (ط بيروت 1968) ، ج5، ص 218-219 وعن أبي موسى عمران المشذالي ، أنظر المصدر نفسه، ج5، ص 223.

ويبدو أن هذه الإنجازات لم تأت صدفة أو لمجرد رغبة الملوك في تخليد ذكرهم، بل اقتضاها النمو الثقافي الذي شمل أقطار المغرب الإسلامي، وقد تمت إنجازات مماثلة، خلال تلك الفترة في تونس وفاس، مما يجعلنا نعتقد أن بلاد المغرب كانت كلها، آنذاك، تعرف نهضة ثقافية قوية. لذا فليس من الغريب أن يشهد القرن الثامن الهجري نبوغ عدد كبير من رجال العلم والأدب وبروز إنتاج ثقافي غزير، يحمل طابع الاجتهاد والإبداع ويخص سائر المجالات، حتى الرياضيات والفلك والطب، التي لم تحظ قبل ذلك بكثير من التفات العلماء في بلاد المغرب[1]، لأن عناصر الحركة الفكرية في المغرب الأوسط في هذا العصر الذي اضطربت فيه الأوضاع السياسية، كانت تتجه قبل كل شيء إلى العلوم الدينية والآداب، بينما لا تحظى العلوم العقلية المحضة منها إلا بالقليل النادر. ولهذا نجد أنفسنا أمام جمهرة كبيرة من علماء الدين والفقه والآداب. ومن المتعذر في هذا المقام المحدد أن نذكرهم جميعا، فسوف نقتصر على ذكر الأعلام البارزين منهم. ومن جهة أخرى إن كثيرا من هؤلاء العلماء والفقهاء تفوقوا في العلوم الدينية كالحديث والأصول والتفسير والفقه كانوا في الوقت نفسه يمتازون بتمكنهم من الآداب وعلوم اللغة، وبعضهم ينظم الشعر، ومن ثم فإننا سوف نحاول أن نقدم منهم من يغلب عليهم التفوق في العلوم الدينية، نتبعهم بمن مزجوا بين علوم الدين والآداب وكذا من نبغوا في العلوم العقلية، وهذا التصنيف لا يعدو أن يكون أمرا نسبيا.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 21-23-32-39. يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 17-18-24-25-120. المقري: نفح الطيب، ج7، ص 160-162. ابن مريم: البستان، ص 153-154.

المؤسسات التعليمية:

أولا: الكتاتيب القرآنية:

تعتبر الكتاتيب من أقدم أنواع المعاهد التعليمية وجودا في العالم الإسلامي، والكتاتيب جمع كتّاب، وهو مشتق من التكتيب وتعليم الكتابة ففي القاموس المحيط: المكتب والكتاب موضع تعليم الكتاب أي الكتابة، والجمع : الكتاتيب والمكاتب، والمعلم الذي يتولى للتعليم يسمى بالمكتب أو المعلم[1].

ويعود تاريخ إنشاء الكتاتيب القرآنية إلى العهود الأولى من تاريخ الإسلام، فبمجرد أن تم الفتح الإسلامي بالمغرب، رتب الولاة الفقهاء والقراء الذين يعلمون النشئ تعاليم الدين الإسلامي والقرآن الكريم، منذ ذلك الحين أصبحت الكتاتيب تتكاثر سريعا [2]، وتتلقى دعما كبيرا من طرف السلاطين والحكام في القرن الثامن الهجري بلغت الكتاتيب القرآنية مستوى عاليا من حيث التنظيم والمواد المدروسة وكان المغاربة واعين بالدور الذي تؤديه الكتاتيب القرآنية، لذلك وفروها بكثرة لناشئتهم، فعمت بالحواضر والريف.[3]

ويشرف على الكتاب معلم قارئ حافظ للقرآن الكريم، وقد يكون متقنا لبعض القراءات وأحيانا يكون من كبار القراء.

---

[1]- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج1، ص 121.

[2] – د. أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص 20.

[3]- محمد بن سحنون: آداب المعلمين، ص 90.

ثانيا: نشأة المدارس:

إن المدارس لم تكن إلا مرحلة متقدمة في سلسلة التطورات التي مرت بها حركة التعليم في العصر الإسلامي. فلم تكن ابتكارا مفاجئا بقدر ما كانت تطورا منطقيا لحوادث سابقة ونضوجا لفكرة راودت أصحابها فترات طويلة و لم يتسن لها أن ترى النور إلا بعد توفر الظرف المساعد لظهورها إلى حين التنفيذ والوجود. ويجدر بنا هنا أن نقف قليلا عند المعنى المقصود بكلمة المدرسة والمدارس لتوضيح ذلك. فكلمة المدرسة بمعناها الاصطلاحي الذي نحن بصدده لم تكن معروفة في العصر الإسلامي الأول رغم ورودها في شعر: دعبل بن علي الخزاعي (ت 249هـ-863م)، والجاحظ (ت 255هـ-868م) وأورد المقدسي عبارة فيها كلمة المدارس في كتابه الذي ألفه سنة 375هـ-985م[1]. ووردت أيضا في رسائل الهمذاني (ت 398 هـ - 1008م)[2]. وقد تطور معنى المدرسة فأصبح يستعمل للدلالة على تلك المنشأة الدينية ذات الشروط الخاصة بها والمستمدة في تعريفها من البيوت المخصصة لسكن الشيوخ والطلاب لا من قاعات التدريس والمدرسين[3].

ويعتبر منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) فاتحة عصر جديد بالنسبة لنظام التعليم والمدارس في الإسلام. فقد كان ذلك بداية لاحتضان الدولة لفكرة المدرسة واتخاذها مركزا لنشر الفكر الإسلامي المتمثل في مذاهب أهل السنة بعيدا عن

---

[1] – المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ليدن 1906م، ص 44.

[2] – الهمذاني: كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان، ط بيروت 1921 ص 247.

[3] – الدكتور أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ، ج2، العصر الأيوبي ، طبعة مصر 1969، ص 163.

التيارات والأفكار المضادة التي بدأت تتغلغل بين الناس متظاهرة بالإسلام في الوقت الذي تعمل فيه على هدم أفكاره ودولته. وربما أدرك أولئك الخلفاء والحكام الخطر المحدق بدولتهم فظهرت المدارس كوسيلة للتصدي ومقاومة الدعوات والمبادئ المضادة، ولهذا نجد الدولة تأخذ على عاتقها تهيئة الأبنية الضرورية وصرف الأرزاق والأجور والمرتبات للمدرسين والطلاب وتخصيص أوقاف كافية للصرف على ذلك. وقد ذكر المقريزي أن أول من بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، حيث بنيت المدرسة البيهقية، ثم انتشر بناء المدارس بعد ذلك.[1]

وقد كانت المدرسة النظامية ببغداد[2] التي شرع في بنائها سنة 457هـ - 1064م وافتتحت في سنة 459هـ -1060م وذلك من قبل نظام الملك وزير السلطان السلجوقي (ألب أرسلان)، هي إحدى مجموعة من المدارس أقامها هذا الوزير في كل من بغداد والبصرة والموصل ونيسابور، وقد كان لنظامية بغداد أهمية كبيرة وتركت تأثيرا في الحضارة العربية الإسلامية حتى اعتبرت أول مدرسة في الإسلام. على أن فكرة المدرسة كما ذكرنا من قبل سابقة لهذا التاريخ من أصولها وملامحها العامة وإنما قام نظام الملك بوضع قاعدة مهمة اتبعت من بعد في أرجاء العالم الإسلامي، ألا وهي إنشاء المدارس من قبل الدولة نفسها، ورعايتها والعناية بها بشكل جعل لها استقلالا عن المساجد من جهة، ومن جهة أخرى توفير

---

[1]- السبكي : طبقات الشافعية الكبرى، ج3، ص 33 ، 111.

[2]- أنظر الطرطوشي: سراج الملوك، ص 128. ابن جبير : الرحلة ط ، بيروت 1968، ص 183.

مستلزمات السكن في تلك المدارس من غرف للأساتذة والطلاب وتوفير العيش الكريم لهم وتخصيص مرتبات شهرية وأوقاف تصرف في ذلك. وهكذا دخلت حركة التعليم مرحلة الاكتمال بنشوء هذه المدرسة النظامية التي يمكن أن تعد أول جامعة إسلامية.

تعتبر المدرسة المستنصرية ببغداد التي بنيت سنة 630 هـ/1233 م خير مثال للمدرسة في العصر العباسي من حيث تخطيطها وعمارتها[1]، وتبرز أهمية المدرسة المستنصرية من خلال العناية الكبيرة ببنائها وأقسامها، فكانت ملحقاتها تضم دارا للقرآن الكريم، ودارا للحديث، ودارا للطب، وكانت تدرس فيها علوما مختلفة وهي أول مدرسة مخصصة لتدريس فقه المذاهب الأربعة وهي: مذهب أبي حنيفة، المذهب الشافعي، المذهب المالكي، المذهب الحنبلي، وبذلك جمعت أهل السنة في مبادرة المتقريب بينها، وتوحيدها أمام الأخطار المحدقة بها وفي سبيل الحد من المنازعات والخصومات والفتن التي عانى منها المسلمون كثيرا.

وقد ظهر نظام المدارس في الدولة العبد الوادية وخاصة بعاصمتها تلمسان، ابتداء من النصف الأول من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر ميلادي وقد تأخر وجودها عن بلاد المشرق وعن جارتيها إفريقية والمغرب الأقصى[2].

---

[1] – ما تزال المدرسة المستنصرية قائمة إلى هذا اليوم في بغداد وتقع على الضفة الشرقية لنهر الدجلة.

[2] - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 1، ص 8.

ووجدت المدارس الزيانية خاصة والمغرب عامة، من أجل المذهب المالكي، وإبطال بدعة الموحدين ومذهبهم في الاعتقاد[1]، وهذه المدارس كانت مدارس حكومية رسمية تابعة كلها للدولة، والتي ظلت تشرف عليها بالتمويل وتعين الأساتذة والمدرسين، وكان كل مدرسيها من المالكية. فسجلت انتصارا للسنّة والعودة إلى المالكية مذهبا، ولعلّ هذه المدارس الحكومية الرسمية، التي أنشئت من أجل تعليم القوانين الشرعية والعلوم اللغوية، قد استعملت منهجين متعارضين في مظهرهما وهما الاجتهاد[2] والتقليد[3].

وكان سلاطين بني زيان يهدفون من وراء إنشائهم المدارس في المقام الأول، إلى نشر التعليم والثقافة من جهة، وتوجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة المذهب والدولة، وبعث الأمن والاستقرار بين الرعية، ولذا كانوا يشرفون على المدارس إشرافا مباشرا وبما أنهم كانوا مالكيين فقد كانوا يؤكدون على تدريس الفقه والأصول المستمدة من أفكار المذهب المالكي وإنشاء المدرسة في حد ذاته يعد تطورا في الحياة الثقافية والتعليمية، كما كان لها دورها في تنشيط الدراسات الفقهية والأدبية والعلمية، وساهمت في توحيد الفكر الإسلامي والمذهب في حاضرة الدولة الزيانية وغيرها.

---

[1] – ألفريد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1967،ط2، ص 354.

[2] – **الاجتهاد:** مدرسة تدعو إلى استعمال الرأي في القرآن والأحاديث النبوية، على النحو الذي لا يتعارض مع المبادئ الإسلامية، وقد عارض بعض الفقهاء هذا الاتجاه واعتبروه زيغا ومروقا عن الإسلام.

[3] – **التقليد:** هو أتباع السلف الصالح دون تحوير أو استعمال الرأي في ذلك، أنظر: عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص 249-250.

ومن المدارس التي أسسها بنو عبد الواد وأصبحت معاهد عليا للتعليم ولتكوين الإطارات السامية في مختلف المجالات على غرار المدارس النظامية التي أنشئت في المشرق، وما تم تشييده في سائر أنحاء العالم الإسلامي[1].

مدرسة ابني الإمام[2]:

تعتبر أول المدارس المشيدة بتلمسان، كانت على يد أبي حمو موسى الأول رابع ملوك بني عبد الواد وقد تم تشييدها بحي المطر.

وسميت بمدرسة أولاد الإمام نسبة للأخوين العالمين أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ابني أحد علماء برشك، كما سميت من بعد بالمدرسة القديمة عند تأسيس المدرسة التاشفينية.

ومن المعروف عن أبي حمو موسى الأول أنه هو السلطان الذي أزال بداوة المشيخة عن عرش بني عبد الواد، ومن هذا المنظور يمكن اعتبار عملية تزويد الحي الجديد بمركز إشعاع فكري سيعمل لا محالة على تمصير المدينة وهذا ما حدث فعلا، إذ سرعان ما صار الحي مركز استيعاب للراغبين في الاستقرار بالمدينة خاصة في عهد أبي تاشفين الأول الذي شعر بضرورة

---

[1] – الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني عبد الواد، بحث الدكتور عبد الحميد حاجيات نشر بمجلة الأصالة: عدد 26 جويلية – أوت 1975، ص 1939.

[2] – ابن مريم: البستان، ص 126-127.

وللتفصيل أنظر : التعريف بابن خلدون ، ص 22-26-29-32-47.

الحفناوي : تعريف الخلف ، ج2، ص 20-30-213-307

التنسي: نظم الدر والعقيان ــ ص 139، المقري : نفح الطيب، ج5، ص 215.

تشييد مدرسة لاحتواء العدد المتزايد من طلبة العلم. غير أن المعلومات حول هذه المدرسة ضئيلة، فنحن لا نعرف متى وكيف توقفت عن أداء وظيفتها.

المدرسة التاشفينية:

أسسها أبوتاشفين عبد الرحمن الأول، جنوب شرق المسجد الكبير فاصلا بينها وبين القيسارية الإسبانية وساحة القوافل. وكانت تحفة فنية رائعة، قد تفنن في تشييدها حتى أصبحت قصرا من أعظم قصور الملوك، وكانت تشتمل على بنايات عديدة.

وكانت حسب زائريها أكبر وأجمل مدرسة شيدت بالمغرب الإسلامي، وحرص مؤسسها على تزيينها بأحدث الاختراعات من علم الحيل كالشجرة الفضية والتي يصفها التنسي على النحو التالي:

وكانت عنده شجرة من فضة على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة، وأعلاه صقر فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة وبلغ الريح مواضع الطيور، صوتت بمنطقها المعلوم لمشابهها فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها.

كما زين هذه المدرسة بخصة صدفية الشكل كتب على إفريز تربيعتها الأبيات التالية:

أنظر بعينيك بهجتي وسنائي ... وبديع إتقاني وحسن بنائي

وبديع شكلي واعتبر فيما ترى ... من نشأتي بل من تدفق مائي

جسم لطيف ذائب سيلانه ... صاف عذوب الفضة البيضاء

وتصدر للتدريس بها الفقيه علامة عصره والذي يعتبر من أقطاب الفقه المالكي أبو موسى عمران المشذالي[1]، قادما من بجاية. كما درس بها عدد كبير من العلماء الذين ذاع صيتهم في المغرب الإسلامي ومن بينهم بعض الرازقة، والعقابنة، وأحمد بن زكري، والتنسي.

وكان يعين للتدريس بهذه المدارس الرسمية من بين مشاهير العلماء لكن بعض علماء ذلك العصر، رأى في تأسيس المدارس الرسمية ضررا على حرية البحث والدراسة، أولا لأنها تمنع الطلاب من الذهاب لطلب لعلم عند أشهر الشيوخ في العالم الإسلامي، ولأنها تجعلهم يستقرون في أماكنهم تحت إغراء المزايا العديدة من مسكن وراتب واحترام لهم ووظائف عامة تمنح لهم[2].

التعليم:

أ – التعليم بالكتاتيب:

وكانت مقررات تلك الكتاتيب هو القرآن الكريم، فقد كانت العناية به شديدة، يتم تلقينه وتحفيظه للناشئة في سن مبكرة. وقد يبدأ المعلم بإعراب بعض آياته وتفسير غريبه

---

[1] –بابا أحمد التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 215–217.

المقري: نفح الطيب، ج 7، ص 148–149، الحفناوي: تعريف الخلف، ج1، ص 73–76.

[2] –ابن مريم: البستان، ص 217.

تفسيرا وجيزا وطريقة ترتيله وتجويده، كما يعلمهم مبادئ العلوم التي تعينهم على فهمهم معاني القرآن[1].

وانتقد الإمام ابن عربي طريقة تحفيظ القرآن الكريم دون تعزيز ذلك بعلوم مساعدة على الفهم والاستيعاب[2] إلا أن عبد الرحمن بن خلدون قد فضل الطريقة المتبعة في سائر الديار بما فيها المغرب الإسلامي على الطريقة التي يقترحها ابن العربي لأنها الطريقة التي تلائم عقلية الطفل ويتقبلها مستواه الفكري.

ويبدو أن هذه الطريقة كانت سائدة أيضا في حاضرة تلمسان، ولكنها تغيرت بوصول علماء الأندلس إليها واستقرارهم فيها، وامتهانهم التعليم، وكذلك عودة بعض شيوخ تلمسان من بلاد المشرق وإفريقية وعلى رأسهم ابني الإمام وعمران المشذالي الذين تأثروا بمنهج المشارقة وأهل إفريقية، ونقلوه إلى مدينة تلمسان خلال القرن الثامن الهجري، وعملوا جميعا على نشره، وأدخلوا بعض المواد الجديدة للصبيان كرواية الشعر والترتيل، وقوانين اللغة العربية وحفظها والحديث وتجويد الخط والكتابة.[3] ووقوفهم على روايات القرآن ومختلف قراءاته، حتى يحصل للدارس ملكة في اللسان العربي[4].

---

[1] – عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 418.

[2] – عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 397.

[3] – عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 1039.

[4] – عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 1039.

ب – التعليم بالمدارس:

وهي المرحلة التي تلي مرحلة الدراسة للكتاب التي يكون فيها الطالب قد حفظ القرآن وألم بمبادئ الكتابة والقراءة والعربية، والقراءات، وينتظم التعليم في هذه المرحلة بالمساجد والمدارس التي شيدت عبر مختلف أحياء مدينة تلمسان.

تميزت الدراسة في هذه المرحلة بحرية الطالب في اختيار المواد الدراسية وهو غير مقيد بمقرر سنوي، فكان للطالب الحرية في اختيار المواد التي يميل إليها وحسب طاقته وإمكانياته الفكرية، وكان الشيوخ يحترمون ميولات طلابهم كالشريف أبي عبد الله محمد التلمساني (ت 771-1370م)، الذي كان يترك الحرية لكل واحد من طلابه أن يختار المواد التي يميل إليها من العلوم ويقول لهم: "من رزق في باب فليلازمه"[1]. وكان العامل في تحديد المقرر الدراسي يعود إلى أهمية المادة ومدى صعوبتها أو سهولتها، إذ كان الطلاب يضعون نصب أعينهم طموحاتهم وظروفهم، ويختارون المادة التي توفر لهم العمل، فكان أغلب الطلاب يتجهون لدراسة الفقه، لأنه أهم طريقة للوصول إلى المال والجاه[2]. فقد فاقت عنايتهم أي علم آخر[3]، وكان أحمد الونشريسي (914/1508م) يقول: "من لا يعرف الفقه لا يعرف غيره"[4]. هذا بالإضافة إلى الجو السياسي والمذهبي للدولة، إذ أن الدولة الزيانية كانت تشجع

1 – بابا أحمد التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 258.
2 – ابن فرحون: الديباج، ص 78.
3 – الحسن السائح: الحضارة الإسلامية، ص 259.
4 – بابا أحمد التنبكتي: المصدر السابق، ص 87.

بطريق مباشر وغير مباشر العلوم التي تتلاءم مع مذهبها عن طريق الأموال التي تقدمها للعلماء والأدباء والفقهاء والمتعلمين، وتنفقها على المدارس والمجالس العلمية التي تقام في البلاط الزياني، وكان السلاطين الزيانيون يشجعون الثقافة الأدبية كالشعر والتاريخ ويتدخلون أحيانا لمنع بعض العلوم التي تخالف المذهب المالكي[1].

طرق التدريس:

وقد كانت طرق التدريس في هذا العصر بالمغرب الأوسط تختلف باختلاف الشيوخ الذين كانوا يقرأ عليهم، فمنهم من كان يعتمد على الطريقة التقليدية ومنهم من كانت طريقته تعتمد على الحوار، والمناقشة والتعمق في البحث والتعليل ولا شك أن هذه الطريقة الحوارية الفعالة تدل على تقدم أساليب التعليم في هذا العصر، وعلى تطور الدراسات الفقهية واللغوية ورواج الدراسات العقلية.

فمن المعلوم أن الفقه المالكي قد وصل في هذا العصر إلى طور النضوج حيث كانت أساليب تدريسه قبل منتصف القرن السابع تقليدية تعتمد على النقل والحفظ، وفي المنتصف الثاني لهذا القرن حدثت ثورة في أساليب تدريسه قام بعض أعلام الفقه المالكي، بعد أن درسوا المنطق واستفادوا من علم الخلافيات كابن زيتون، وأبي عبد الله شعيب الدكالي، وابني

[1] – عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص 894.

الإمام، وناصر الدين المشدالي وكانت طريقتهم تمتاز بأعمال النظر وكثرة البحث، وإثارة وجوه الخلاف والرد عليها[1].

يقول ابن خلدون: "وبعد انقراض الدولة من مراكش (يعني الموحدية) ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون[2] لعهد أواسط المائة السابعة فأدرك تلاميذ ابن الخطيب وأخذ عنهم، ولقن تعليمهم، وحذق العقليات والنقليات، ورجع إلى تونس بعلم كثير، وتعليم حسن، وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي[3]، كان قد ارتحل من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا، فأخذ عنه أهل تونس واتصل سند تعليمها في تلاميذهما جيلا بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 772-773.

[2] -ترجم له ابن فرحون في الديباج المذهب ، ص 99 فقال ما خلاصته: أبو أحمد بن أبي بكر مسافر بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الرفيع اليمني المالكي الشهير بابن زيتون، كان قاضي الجماعة بتونس فقيها أصوليا ويكنى بأبي الفضل ولي قضاء تونس مرتين، ورحل إلى المشرق رحلتين: الأولى سنة 648هـ أخذ فيها عن شمس الدين وعز الدين بن عبد السلام الذي وفخر الدين الأصلين وسمع الحديث من الحافظ عبد العظيم المنذري وجماعة غيره وحج ورجع إلى تونس بعلم كثير ورواية واسعة، ثم رحل ثانية سنة 656 هـ فأقام بالقاهرة ثم حج ورجع إلى تونس فولي بها القضاء وعظم قدره وانتفع به الناس هكذا كان ابن زيتون إماما علامة في المنقول والمعقول وقدوة في الأساليب التعليمية الجيدة، أنظر التعريف بابن خلدون، ص 22.

[3]- أصله من هسكورة من المغرب، قرأ بالمغرب ثم رحل إلى المشرق العربي، ثم رجع إلى حاضرة تونس وبها عرف بعلمه وذاع صيته، وحرص عليه الناس وانتفعوا به. للتفصيل،أنظرت عنوان الدراية لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، ص: 173، 174، 175، 176.

محمد بن عبد السلام[1] ت 749 شارح ابن الحاجب وتلاميذه، وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلاميذه ..."[2]

وعن طبيعة التعليم واتجاهه في هذه المدارس في بدايتها يبدو أن الاهتمام كان موجها إلى العقيدة أكثر منه إلى التشريع الديني، و لم يعد الاهتمام في المقام الأول عند العلماء موجها إلى علم لكلام، ومعطيات العقيدة كما كان الحال أيام الموحدين.

وقد أفسح علماء القرن السابع الهجري مكانة كبيرة لعلم الأصول، أعني دراسة الحديث والقرآن بفضل ما قام به الموحدون من تشجيع لهذه الدراسة، وفقا لمبادئ تختلف عن المبادئ التي اتخذها الموحدون وتسير جنبا إلى جنب مع دراسة الكتب المالكية، وكانت لها فائدها العلمية، حيث ظلوا يستنبطون من هذه "الأصول" تكملات تشريعية، بل وتصحيحات للتفسيرات الواردة في كتب علماء المذهب المالكي، ولهذا أصبحت هذه المعاهد مدارس للفقه المالكي ، تنشر المذهب الذي ارتضته الدولة، وتعد لتأهيل كل الوظائف السامية الدينية والشرعية، وتفتح الطريق لبلوغ أعلى المناصب السامية في الدولة.

---

[1]- عز الدين بن عبد السلام: هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري التونسي قاضي الجماعة بها، كان علامة فقيها متبحرا في العلوم العقلية والنقلية محققا أخذ عن جماعة من الشيوخ كابن عبد الله بن هارون وابن جماعة وأخذ عنه جملة من الأعلام منهم القاضي ابن حيدرة وابن عرفة وخالد البلدي وأثنى عليه في رحلته كثيرا العلامة ابن خلدون، تولى الفتوى والتدريس بتونس وتولى القضاء فيها سنة 734هـ وتوفي إثر الطاعون الجارف سنة 749هـ. أنظر : ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 336، 337. المقري: نفح الطيب، ج، 8، ص 278.
النباهي : تاريخ قضاة الأندلس، ص 161، 163. عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بإبن خلدون، ص 19.

[2] – ابن خلدون: المقدمة ، ص 772-773.

محتوى البرنامج المدرس في ذلك العصر بالمعاهد العليا[1]:

إذا قمنا بدراسة شاملة لمحتوى البرنامج المدرس بالمعاهد العليا في ذلك العصر لتمكنا من حصر الاتجاهات والتيارات الفكرية في المحاور التالية:

1. **محور العلوم الدينية**: إن هذا المحور كانت مباحثه كثيرة وكتبه عديدة منها:

أ – كتب التفسير:

1. الكشف والبيان لأبي إسحاق أحمد بن محمد التغلبي.
2. كتاب التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي.
3. أحكام القرآن لأبي الحسن علي بن محمد الطبري.
4. الكشاف عن حقائق التنزيل لأبي القاسم عمر الزمخشري[2].

ب– كتب الحديث:

1. كتاب الموطأ للإمام أبي عبد الله مالك بن أنسظن ت .179
2. جامع البخاري لمحمد بن اسماعيل البخاري، ت 252 [3].
3. مسند مسلم لمسلم بن الحاج ، ت 261 هـ.
4. سنن أبي داود لأبي داود السجستاني 275 هـ.

---

[1]- أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية، ص، 221.

2- أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: المصدر نفسه ، ص 216

[3] - أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: المصدر نفسه، ص 123.

5. جامع الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، ت .275

6. جامع النسائي لأبي عبد الرحمن شعيب النسائي ، ت 303.

جـ – كتب الفقه:

1. كتاب المدونة لسحنون عبد السلام بن سعيد[1].

2. التهذيب لأبي سعيد البراذعي.

3. كتاب التفريغ لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري القرطبي.

4. كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني 386هـ[2]

5. كتاب التلقية للقاضي أبي محمد عبد الوهاب ، ت 422 هـ.

6. كتاب الإمام القاضي أبي بكر محمد بن العربي 543هـ.

7. كتاب الإمام عياض بن موسى ت 544هـ[3]

8. كتاب المقدمات لأبي الوليد محمد أحمد بن راشد ت 520 هـ.

9. كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي.

2. محور الأدب:

1. كتاب سيبويه.

---

[1] – أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية ، ص 226.

[2] – المصدر نفسه، ص 225.

[3] – المصدر نفسه، ص، 232–233.

2. كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي.

3. كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

4. كتاب المفصل للزمخشري.

5. كتاب المقامات لأبي محمد القاسم بن علي الحريري.

3. محور التصوف:

1. رسالة فضل مكة لأبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري (ت، 110 هـ).

2. قوت القلوب ومعرفة الطريق إلى معاملة المحبوب لأبي طالب محمد بن علي المكي.

3. رسالة القشيري لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري.

4. كتاب أبي الفرج الجوزي[1].

4. محور علم أصول الدين وأصول الفقه:

1. كتاب الإمام أبي أحمد بن علي الخطيب الباقلاني (ت، 591 هـ).

2. كتاب الإرشاد لأبي المعالي.

3. كتاب المستصفى للإمام أبي حامد الغزالي (ت، 505هـ).

4. كتاب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت، 520 هـ).

5. كتاب المسند الكبير للإمام أحمد بن حنبل (ت، 220هـ).

---

[1] - أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية، ص 233.

الاختصار ومضاره:

تميز القرن الثامن الهجري باختصار الكتب القديمة وتبسيطها ، وقد كان الدافع إلى ذلك تقاعس الهمم عن تحصيل المبسوطات والتعامل مع المطولات، حيث صعب على الطلبة استيعاب المؤلفات المطولة وشق عليهم استيعابها وحفظها فاستعاضوا عنها كتبا مختصرة.

ومن دوافع الاختصار أيضا، عجز المؤلفين أحيانا عن وضع كتب جديدة تحمل عناصر الابتكار والإبداع، ولعل من أسباب الاختصار كذلك، هو محاولة تقريب المصنفات للحفظ لمن أراد ذلك. ومن علماء هذا العصر من كانت له مؤهلات علمية تسمح له بتحرير المطولات إلا أنه مع ذلك كان يرى الفضل والصواب في الاختصار والإيجاز، فهذا ابن البناء المراكشي[1] (ت 721هـ) يقول:

قصدت إلى الإجازة في كلامي ... لعلمي بالصواب في الاختصار

ولم أحذر فهوما دون فهمي ... ولكن خفت ازدراء الكبار

فشأن فحولة العلماء شأني ... وشأن البسط تعليم الصغار

في حين أبدى بعض علماء هذا العصر، مثل: الآبلي، وعبد الرحمن بن خلدون، تحفظهم من شأن هذا الاتجاه، حيث اعتبروا أن تأليف المختصرات والاعتماد عليها في التدريس آفة كبرى، حيث أن ذلك يعمل على تعميق الدراسات السطحية ويساعد على نشر

---

[1] – أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأسدي المراكشي يعرف بابن البناء، ولد بمراكش وتوفي بها سنة 724 هـ. أنظر : عبد الرحمن بن خلدون : التعريف بابن خلدون، ص 22. السلاوي: الاستقصاء ، ج02، ص 88.

الجمود في مجال البحث. وقد كانت هذه المختصرات من الإيجاز حيث لا يتيسر فهمها إلا بشروح التي كان يألفها المؤلف نفسه أحيانا أو يتولى ذلك غيره من الفقهاء والعلماء ابتغاء حل غموضها وتفسير نصها الأصلي.

وقد تحدث عبد الرحمن بن خلدون عن مضار الاختصار فقال: "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والإنحاء في العلوم يولعون بها، ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعل ابن الحاجب أبو عمر عثمان (ت 646 هـ) في الفقه وأصول الفقه وابن مالك وأبو عبد الله محمد في العربية، والخوانجي محمد بن ناماور (ت 624 هـ) في المنطق وأمثاله وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل"[1].

*** العلوم الدينية:**

لقد كان يغلب على هذا العصر الطابع الديني مما أدى إلى انتشار وازدهار العلوم الدينية، وهذا الازدهار في تلك العلوم كان مصحوبا بانتشار التصوف ، وتغلغله في وسط العلماء والصلحاء، فاشتهر الكثير منهم بالتبتل، والزهد ونالوا احترام الجماهير وتقديرها

---

[1] – عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 393. ابن مريم: البستان، ص 217.

العميق وقد ازدهر التصوف بقسيمة: السني والفلسفي، ونعني بالأول التصوف الذي سار متقيدا بالقرآن والسنة النبوية والاهتمام بالتعبد والزهد ويمثل هذا الاتجاه في العهد الموحدي أبو مدين بن شعيب بن الحسن الإشبيلي[1]، وأبو زكرياء الزواوي[2]، وكانت منابع دراستهم: قوت القلوب بن طالب المكي ورسالة القشيري[3]، وإحياء علوم[4] الدين للغزالي.

وأما التصوف الفلسفي، فيمثله ابن عربي[5] الذي مر ببجاية أواخر القرن السادس الهجري وابن سبعين[6]، وقد كون مدرسة تركت آثارها في تلمسان وبجاية وغيرهما.

وهؤلاء المتصوفة لم يكونوا يكتفون بالعبادة والسلوك الأخلاقي، وإنما كانوا يدرسون نظريات المعرفة والوصول إلى الحقيقة الإلهية وحقيقة الأشياء، وحينما كانت عقولهم تعجز

---

[1]- ترجم له صاحب نيل الابتهاج ص 125. وصاحب البستان، ص 108، والمقري في نفحه، ج9، ص 342.

[2]- أبو زكرياء يحي بن أبي علي المشتهر بالزواوي، ولد في بني عيسى من قبائل زواوة وتعلم أول أمره بقلعة بني حماد على الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن الخراط، ثم ارتحل إلى المشرق العربي حيث لقي العلماء والفقهاء والمتصوفة ، استقر ببجاية بعد رجوعه من المشرق العربي ينشر العلم، وظل على هذا الحال إلى يوم وفاته من يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان المعظم من سنة 611 هـ أنظر: عنوان الدراية لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، ص: 135، 136، 137، 138، 139.

[3]- رسالة القشيري: هي الرسالة المختصة في علم التصوف وقد اشتملت على تراجم لرجال التصوف وأبحاث في علمهم ، ومؤلفها هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفي سنة 465 هـ - الرسالة القشيرية - ط القاهرة 1984 ص 2.

[4]- كتاب الإحياء: هو إحياء علوم الدين للإمام الغزالي المتوفي سنة 505 هـ، وله تأثير كبير على متصوفة المغرب الإسلامي وخاصة أبي مدين وغيره من أعلام التصوف.

[5]- ولد محي الدين بن عربي المرسي يوم الاثنين 17 رمضان سنة 560 هـ، أصله من مرسية وقد رحل إلى المشرق وفي طريقه دخل بجاية في رمضان المعظم 597 هـ غير أن المقري لم يذكر مروره ببجاية وإقامته بها في حين يذكر هذا الغبريني، ودخل مصر وأقام بالحجاز مدة، ثم دخل بغداد والموصل ، ثم رجع إلى دمشق وأقام بها إلى أن توفي بها ليلة الجمعة 28 ربيع الثاني سنة 638 هـ، وقد صحب الصوفية وسلك طريق الزهد، وكان كريما لا يدخر شيئا من ماله وأديبا شاعرا ، ترك مؤلفات كثيرة، ويعتبر قطبا سن أقطاب التصوف الفلسفي، ومن أكبر أدباء الصوفية ومن أشهر تآليفه كتاب النصوص، الفتوحات المكية وهو أعظم مؤلفاته، للتفصيل أنظر: المقري: المصدر السابق، ج: 14 ص: 207.

[6]- أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين من مرسية، اشتهر بعلمه ومعرفته ونباهته وبلاغته، رحل إلى المشرق ، وسكن بجاية، له مشاركة في معقول العلوم ومنقولها، وله أتباع كثيرون من الفقراء ومن عامة الناس . وقد ترجم له المقري في نفحه حيث قال: إن المترجم هو عبد الحق بن إبراهيم قد اشتهر بابن سبعين، ولد بمرسية سنة 614 هـ ودرس العربية والآداب بالأندلس ثم انتقل إلى سبتة بالمغرب وانتحل التصوف، وعكف برهة على مطالعة كتبه والتكلم على معانيها فمالت إليه العامة ورحل إلى المشرق حوالي سنة 643 هـ وحج حججا، وأغفل المقري نزوله بمدينة بجاية في طريقه إلى الحج ، ثم يقول: وشاع ذكره وعظم صيته للتفصيل أنظر : نيل الابتهاج، ص: 184: المقري: نفح الطيب، ج: 2، ص : 356.

عن إدراك الحقيقة الإلهية بالمقاييس العقلية كانوا يستعيضون عنها بالمجاهدات النفسية والرياضيات الروحية للوصول إلى ذلك بالكشف.

وقد أخذت حركة التصوف اتجاها جديدا يتمثل في تغلغل تعاليمها بين الأوساط الشعبية، وقد أدى هذا الاتجاه إلى تغلب الفكر الصوفي على الحياة الفكرية وعلى أكثر مظاهر الحياة بالبلاد.

وإذا رجعنا إلى كتب التراجم التي دونت حياة العلماء الصالحين الذين ولدوا بالمغرب الأوسط واستقروا به، نجد صفحات حافلة بكرامات أولئك الصالحين واستجابتهم للدعوة وزهدهم في الدنيا وملاذها. الشيء الذي أدى بعامة الناس إلى الحماية بهم، حيث أصبحوا يحكمونهم في قضاياهم، ويستنجدون بهم لحماية أنفسهم وأموالهم وأمتعتهم ، خاصة عندما تضعف الدول وتكثر الفتن.

كما أن كثرة الإقبال على العلوم الدينية يعود إلى سهولة التحصيل على وظائف هامة، سواء في القضاء أو الدواوين الإدارية، وغير ذلك من المناصب التي يتهافت عليها الناس ومن أشهر علماء هذا العصر في هذا المجال:

1- أبو إسحاق التنسي:

إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي، نشأ بتنس، وتوجه إلى بجاية لطلب العلم، رحل إلى المشرق، فأخذ عن الكثير من العلماء، أمثال القرافي وابن دقيق العيد وشمس الدين

الأصبهاني وبرع في العلوم الدينية، ثم عاد إلى مسقط رأسه، وكان أبو إسحاق إبراهيم عالما شهيرا، ألفا شرحا في عشر مجلدات على رسالة الفقه المالكي لعبد الوهاب[1].

وظل يغمراسن بن زيان يراسله ويرغبه في قدوم تلمسان، ولكنه كان يمتنع عن ذلك، وكان يرد على تلمسان زائرا حيث يقيم أشهرا ويعود من جديد إلى تنس، ولما استولى يغمراسن على تنس، استقدمه إلى تلمسان ليقوم بالتدريس بها، حيث استفاد منه العدد الكبير من العلماء الذين كانوا يقصدون حلقاته العلمية بالمسجد الجامع. وحظي من قبل السلطان يغمراسن وعلماء تلمسان بحفاوة كبيرة وصارت له مكانة عظيمة في عاصمة الدول العبد الوادية الناشئة[2].

ويشهد له في نفس الوقت بالزهد والورع، ويعد من أولياء الله الجامعين بين علم الباطن والظاهر وذو كرامات شهيرة، توفي بتلمسان سنة 680 هـ[3].

2- ابنا الإمام :

ابنا الإمام هما أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى، نشآ بمدينة برشك الواقعة بين شرشال وتنس حيث كان والدهما، محمد بن عبد الله التلمساني إماما بأحد المساجد هذه المدينة. لما استولى زيري بن حماد المكلاتي – المعروف بزيرم – على برشك سنة 683هـ/

---

[1] - أشهر تآليفه شرح كتاب: "تلقين المبتدأ وتذكرة المنتهى لأبي محمد عبد الوهاب المالكي، في الفروع، في عشرة أجزاء، وقد ضاع أثناء الحصار الطويل، راجع: ابن مريم: البستان، ص 66-68.

[2] -عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 181، التنسي، نظم الدر، ص 126، 127.

[3] - راجع : الجنحاوي، رجال الخلف، ج2، ص 18، 19، 20، العبدري : الرحلة المغربية، ص 11.

1244م، اتهم إمام المدينة ابن عبد الله، والد الأخوين، باحتوائه على وديعة مالية لبعض أعداء – زيرم – وطالبه بها[1]، فامتنع الإمام فقتله غيلة فحزن ولداه، وأجمعا على مغادرة البلد ما دام بها عدوهما – زيرم – لطلب العلم حوالي 700 هـ، فدرسا العلوم الدينية على تلامذة ابن زيتون، أبي عبد الله بن شعيب الدكالي، ثم عادا إلى المغرب الأوسط، بحظ وافر من العلم، وامتهنا مهنة التدريس بالجزائر، ثم بمليانة، حيث اتصلا بأحد عمال بني مرين عليها، الكناني، وذلك أيام الحصار الطويل.

وعند انصراف بني مرين إلى بلادهم، عقب مقتل السلطان أبي يعقوب، قدما إلى تلمسان مع الكتاني، وقدمهما إلى أبي حمو الأول، وأثنى عليهما، فبنى لهما المدرسة المعروفة باسمهما، وابتنى لهما بجانبهما دارين للسكن، واختصهما بالفتوى والاستشارة وضمهما إلى خاصته وأعيان مجلسه، فأقاما هناك محظوظين مكرمين بين أهل العلم والفضل.

استمر الأخوان العالمان على صحبتهما لأبي حمو الأول بتلمسان إلى وفاته فقربهما يومئذ إليه ولده السلطان أبو تاشفين فلازما بمجلسه مدة سنتين ثم غادراه إلى المشرق، سنة 720 هـ، 1320م، وهناك اجتمعا بأكبر العلماء، حيث أخذا عن جلال القزويني صاحب التلخيص في البلاغة، وسمعا صحيح البخاري عن الشيخ الحجار، واجتمعا هناك بشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية.

[1] – ابن مريم: البستان، ص 123.

عادا ابنا الإمام من المشرق وقد ذاع صيتهما في المغرب الإسلامي، واشتهرا بالتبحر في العلم حتى صارا يعرفان بالإمامة والاجتهاد المطلق والتفرد بالرئاسة، فقصدهما الطلبة وضاقت مجالسهما وكثر المنتسبون إليهما والآخذون عنهما، فتخرج عليهما أعلام مثل الآبلي، والمقري الكبير، وأبي عبد الله الشريف، وسعيد العقباني وبن مرزوق الجد وغيرهم. ولما تم لأبي الحسن النصر في تلمسان ودخولها سنة 1335م استدعى إليه شيوخها وفقهاءها فكان ممن وفد عليه الأخوان، أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى، ابنا الإمام.

فرفع من منزلتهما، واختصهما بالشورى وبما أن أبا الحسن كان يهتم بأهل العلم ويمنحهم الرواتب والعطايا ويحضرهم مجلسه، فطلب يومئذ من ابني الإمام أن يختارا له من أصحابهما من ينظمه في عضوية المجلس العلمي الذي كان بصدد التفكير في إنشائه وقد زادت حظوتهما، وأحضرهما معه في واقعة طريف آخر سنة 740هـ/1340م.

ولكن رغم هذا التفوق العلمي فإنه لم يبلغنا عن مؤلفاتهما شيء سوى ما أشار إليه ابن مريم في البستان من شرح أبي زيد علي "ابن الحاجب الفرعي"، ويقول ابن فرحون "أن لهما التصانيف المفيدة" ولعلها ضاعت وسط تلك الحوادث والاضطرابات التي مني بها المغرب الإسلامي يومئذ. وكانت وفاة أبي زيد في العشر الأوسط من رمضان سنة 741 هـ، أوائل مارس 1340م ودفن ببلدته برشك، أما أخوه ظل بالقرب من السلطان أبي الحسن، إلى أن

شغل السلطان بحوادث تونس والقيروان فسرحه إلى بلده وذهب إليها وأقام بها قليلا حتى وافاه أجله في الطاعون الجارف سنة 749 هـ/1349 م[1].

العلوم اللسانية:

وفي مجال العلوم اللسانية قد حظيت الدراسات اللغوية وما يتفرع عنها من العلوم والآداب، بإقبال كبير من طرف طلبة العلم بالمغرب الأوسط، حيث نبغ كثير من الكتاب والشعراء، واهتم أيضا علماء الدين باللغة والبلاغة وغيرهما من العلوم لما لها اتصال وثيق بعلمي القرآن والحديث، ومن أبرز العلماء في هذا المجال:

1-أبو بكر محمد بن داود:

حياته:

أبو بكر بن خطاب هو محمد بن عبيد الله[2] بن داود بن خطاب المرسي، ولا نعلم عن نشأته إلا أنه ينسب إلى مرسية، وإن كان على حد تعبير ابن الخطيب "شكس" الأخلاق متقاظبا زاهيا بنفسه"[3].

---

[1]- راجع: التعريف بابن خلدون، ص 22، 26، 29، 32، 47. ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ب .ت ، ص 152، أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 166، 188، 190، 193. ابن مريم: البستان، ص 201، 203، 307. يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1، ص 71-72. المقري : نفح الطيب، ج05، ص 211، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223.

[2]- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج01، ص 48، ابن مريم ، المصدر السابق، ص 227.

[3]- لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص 275.

شيوخه:

ذكر ابن الخطيب[1] جملة من الشيوخ أخذ عنهم أبو بكر وانتفع بعلمهم فروى عن القاضيين أبي عيسى بن أبي السداد، وأبي بكر بن محرز وأبي بكر محمد القرشي وغيرهم ويضيف يحي بن خلدون إلى هؤلاء الشيوخ جماعة أخرى منهم "أبو بكر بن جوهر، وأبو بكر الغافقي، وأبو الحسين ابن عبد الرحمن الرفاء، وأبو عيسى محمد بن محمد بن أبي السداد، وأبو المعراف بن عميرة وغيرهم"[2].

قدومه إلى تلمسان:

التجأ أبو بكر بن خطاب إلى تلمسان في صحبة جالية أندلسية التي آثرت الوفادة عليها وأشار إلى ذلك ابن خلدون فقال: "ووفد عليه (أي يغمراسن الأول) دولته ابن وضاح إثر إنهيار دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس فآثروه وقرب مجلسه وأكرم نزله وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له، ووفد في جملته أبو بكر بن خطاب المبايع لأخيه بمرسية". [3]

ويبدو أن ورود أبي بكر بن خطاب على تلمسان إنما كان على إثر الفتنة التي وقعت بمرسية وأشار إليها ابن الخطيب بقوله: "إنه رجع إلى مرسية وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة ثم انفصل عنها واستقر بالعدوة بعد مكابدة"[4].

---

[1]- لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص: 275- 276.
[2]- يحي بن خلدون: البغية، ج1، ص 129.
[3] – عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 163، لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج 2، ص 275.
[4] – ابن الخطيب: المصدر نفسه، ص 275.

وابن خلدون يذكر أنه بايع أخاه بمرسية[1] ولم تساعده الاضطرابات التي كانت تعرفها مرسية على المقام بها فارتحل عنها إلى المغرب وتقلب في أنحائه وكان ارتحاله في تاريخ غير معروف.

وفـــاته:

إذا كان تاريخ ميلاد أبي بكر غير معروف فإن تاريخ وفاته يكتنفه الغموض وقد اختلف مترجموه في ذلك فذهب يحي بن خلدون: "إلى أنه توفى يوم عاشوراء سنة 636 هـــ ووافقه ابن مريم في البستان[2] على هذه الرواية وذهب ابن الخطيب في إحاطته[3] إلى أنه توفي بتلمسان يوم عاشوراء بعد الثمانين وستمائة والأصوب أن تاريخ وفاته كان بعد 681 هـــ لأنه كان حيا في هذه السنة وقد كتب فيها رسائل، ومن ذلك ما كتبه عن أميره أبي سعيد بن يغمراسن وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه جوابا عن تعزية الأمير النصري بالأندلس وجاء فيها: "عن الأمير عثمان بن الأمير أبي يحي يغمراسن بن زيان، سلام كريم عليكم ورحمة الله تعالى ... وبعد حمد الله مقدر الآجال، المحمود على جميع الأحوال[4] ..." وكذلك رسالته التي عزى بها أميره أبا سعيد عثمان عن أبيه يغمراسن وجاء فيها "مولاي السلطان أبو سعيد أدام الله مدة حياته، وعرفه من التأييد ما يتكفل لأمره بالتأييد" وهكذا يتضح لنا انه توفي بعد سنة 681 هـــ.

---

[1]- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 275.

[2] – البستان لابن مريم، ص 227، يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 48.

[3]- ابن الخطيب، المصدر السابق، 275.

[4]- الرحلة المغربية للعبد الري، ص 16.

مكانته في الشعر:

كان "أبو بكر بن خطاب" فقيها وشاعرا وناثرا. فجاء في الإحاطة عن صلة "ابن الزبير" أن "أبا بكر بن خطاب" كان كاتبا بارعا وشاعرا مجيدا مشاركا في أصول الفقه وعلم الكلام وغيرها. ويؤيد هذه التحلية تحلية "يحي بن خلدون" حيث يقول في "البغية"[1]: كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه". أما "الحافظ التنسي" فقال فقد جاء في درره: "إنه خاتمة أهل الآداب المبرز في عصره على سائر الكتاب"[2].

وقد أثنى عليه "العبدري" في رحلته وأتانا بأبيات من شعره وهذه الأبيات التالية تدل على قلتها على مكانته في ميدان الشعر.

حيث قال في ابن خميس:

رقت حواشي طبعك ابن خميس ... فهفا قريضك لي وهاج، رسيسي

لتله يصبو الحليم ويمتدي ... ماء الشؤون به وسير العيش

لك في البلاغة، والبلاغة بعض ما ... تحويه من أثر محل رئيس

نظم ونثر لا يبارى فيهما ... عزت ذاك وذا بعلم الطوسي

ومن نظمه كذلك قوله:

أشكرن لربك وانتظرك ... في أثر عسر لأمر يسرا

واصبر لكربك وادخرن ... في ستر ضر الفقر أجرا

[1]- يحي بن خلدون: البغية، ص 129.

[2]- التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 128.

فالـدهـــر يعـشـــر بالـــــورى والصبـــــــر بالأحـــرار أجـــرا

والوفـــــر أكثـــــر معـشـــرات والفقـــــر بالـحـــــرار يغـــرى

كما روى له ابن الخطيب مقطوعات متعددة منها مقطوعة في الحكم. مطلعها:

اقنـع بمـا أوتيـتـه تـنـــل الغنى وإذا دهـــتـك مصيـبـة فـتصـبـر

وثانية في الابتهالات مطلعها:

رب أنـت الحليـم فاغفـــر ذنـوبي ليس ليعفـو عـن الذنـوب سـواك

إن نظم هذه الأبيات يدل على باع من الأدب مديد، وطبع فاضل ومقول مجيد، وناظمها رحمه الله متمكن الجلالة، معراف الأصالة[1]، وقال فيه عبر الرحمن ابن خلدون، إنه كان شاعرا محسنا[2].

مكانته في الكتابة:

نبغ أبو بكر بن خطاب في الكتابة الفنية وبها اشتهر أكثر من اشتهاره بالشعر، وقد فاق معاصريه في المغرب والأندلس، وقد ذكر من قبل ما حلاه به مترجموه من براعته في فني الكتابة والشعر، ومن آثاره إيثاره بمنصب رئاسة ديوان الرسائل السلطانية بغرناطة.

ولما انتقل إلى تلمسان تقلد هذا المنصب في عهد يغمراسن بن زيان، وكانت رسائله نموذجا يحتذى به، وكان يوجه هذه الرسائل عن يغمراسن أو ولده أبي سعيد إلى الموحدين بمراكش وإلى الحفصيين بتونس وإلى ملوك بني الأحمر بالأندلس في مناسبات مختلفة، يقول عبد

---

[1] – الرحلة المغربية للعبدري، تحقيق أحمد بن حدو، ص 165.

[2] – عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج 07، ص 163.

الرحمن بن خلدون: "إنه كان مترسلا بليغا وكاتبا بجيدا... فاستكتبه (أي يغمراسن) وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحوفظ[1] وذكر التنسي أن يغمراسن "جعله صاحب القلم الأعلى"[2] في تلمسان.

أسلوب الرسائل الديوانية في هذا العصر:

لقد ذكر مؤرخو الأدب في هذا العهد أن كتابة الرسائل قد تأثرت بطريقة القاضي الفاضل المتوفي سنة 596 هـ وهي تمتاز بالتزام السجع وإطالة الفقرات وبالاستعارة والطباق والغلو في التورية والجناس[3] وجاء بعده محي الدين بن عبد الظاهر المتوفي في سنة 692 هـ وقد سلك طريقته واعتمد أسلوبه.

وشاعت هذه الطريقة في المشرق والمغرب وكان كتاب المغرب الإسلامي يتأثرون بكل التيارات التي تحدث في المشرق يحاكونها ويحتذونها، وصار السجع في الرسائل الأدبية وغيرها حلية مرغوبا فيها بل قد طغى السجع على غيرها من فنون الأدب كالمؤلفات الأدبية والرحلات وكتب التاريخ.

والعبدري يعد معاصرا لأبي بكر بن خطاب يقول في وصف بجاية في رحلته: "وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة برية بحرية، سنية سرية، وثيقة البنيان، عجيبة الإتقان".

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 163.

2- التنسي: نظم الدر والعقيان، ج1، ص 139.

3- الاسكندري أحمد: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ص 295.

ومن المؤرخين نجد يحي بن خلدون يميل إلى السجع في بعض فصول كتابه: فيقول في أبي موسى بن يوسف "وكما كان مولانا الإمام السلطان الهمام، الجواد الضرغام، كبير الملوك وناظم السلوك، وناهج سبيل الفخر المسلوك"[1].

وقد لاحظ ابن خلدون في القرن الثامن أن ظاهرة السجع قد غلبت على الكتاب فقال: "واستمر المتأثرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الأشغال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا الرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق ... والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ..." [2].

مراسلاته:

ولم يكن أبو بكر بن خطاب ليخرج عن هذا الأسلوب الشائع في عصره في الرسائل وهو السجع والعناية بالمحسنات البديعية، فكان ذا عناية بالسجع وإطالة الفقرات كما في قوله من رسالة أخوانيه "ونزلنا في الأخبية خارج البلد بموضع يعرف بالقنب قد تفجر عيونا، جمع ماؤه وهواؤه عن المحاسن فنونا، وعرض علينا النزول في الديار داخل المدينة، فرأينا المقام

1- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 4.
2- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج2، ص 100.

بالقنب أحد الأسباب المساعدة على حفظ الصحة المعينة"[1] وكقوله من رسالة أخرى: "الفقيه الأجل أبو طالب أبقاه الله للمجد يحمي شرائعه وينمي بضائعه، ويبني مصانعه، ولا زال الاعتناء الرباني ليسعد مقاصده ويجمع السلامة أوابد أصله وشواهده"[2].

أو كقوله من رسالة تعزية لأبي سعيد بن يغمراسن: "فقد أدال الله من جزعه صبرا، وجعل عسره يسرا"[3] أو كقوله من رسالة تعزية وتهنئة وجهها عن أميره يغمراسن إلى المستنصر بتونس "فلم يكن إلا قدر ما يلمح البصر، أو تنداح دائرة في الماء يرمي فيه الحجر"[4].

أثر أبي بكر بن خطاب في الحركة الأدبية بتلمسان:

إننا لا نجد مراجع كافية تحدثنا عن مدى تأثير أبي بكر بن خطاب في الحياة الأدبية بتلمسان، ولكن الإشارات التي وردت في بعض المصادر عرضا تكشف لنا عن هذا التأثير ومن ذلك ما ورد في رحلة العبدري[5] من أن ابن خميس كان رواية عن ابن خطاب وتلميذا له، وكان ابن خميس أكبر شاعر وكاتب أنجبته تلمسان في القرن السابع الهجري وقد تأثر به في اتجاهه الأدبي وأسلوبه.

[1] – عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 424، 425.

[2] – لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة: ج2، 277.

[3] – فصل الخطاب من رسائل أبي بكر بن خطاب، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم د 773، ص 02.

[4] – المصدر نفسه، ص 14.

[5] – الرحلة المغربية للعبدري، ص 16.

وقد حدثنا ابن خلدون عن أثر رسائله في المغرب الإسلامي كله فقال: "وصدر عنه من الرسائل في خطاب الموحدين بمراكش وتونس في بيعاتهم ما تنوقل وحفظ"[1].

وفي هذه العبارة الموجزة ما يفيد أن رسائل أبي بكر بن خطاب صارت تراثا أدبيا يدرس ويحفظ ونماذج متتالية يحاكيها الكتاب ويقيسون منها في رسائلهم الديوانية وغيرها.

2-أبو عبد الله بن خميس:

حياته:

أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحميري الحجري الرعيني، ينتهي نسبه إلى حمير، وحجر ذي رعين، مساكن باليمن وكان يعتز بهذا النسب ويردده كثيرا في شعره ونثره كقوله:

وإن انتسبت فإني من دوحة ... تتقيل الأنساب برد ظلالها

من حمير من رعين من ذي ... حجر من العظماء من أقيالها

وقوله:

يغص ويشجي همشل ومجاشع ... بما أورثني حمير والسكاسك

معظم المصادر التاريخية المطبوعة والمخطوطة، لا تتحدث عن أهله وأسرته، ولا عن مركزه الاجتماعي ولا الوسط الذي كان يعيش فيه، كما لا تتحدث عن الشيوخ الذين أخذ عنهم والفنون التي قرأها، والأماكن التي تلقى فيها تلك الفنون، وهذا ما جعل معظمها ترجح

---

[1]- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 111.

الرأي القائل: أن أسرة ابن خميس أسرة خاملة غير نابهة وأنه نشأ في وسط فقير لا يمت إلى العلم والمال بصلة، وخاصة أنه كان يأوي إلى الفنادق وينام على سلالخ الضأن، وأجمع من كتبوا عنه على وصفه بالانزواء والتجرد والعزلة؟[1].

أما شيوخه لا يخرجون عن أولئك الذين كانوا يسكنون تلمسان، وما أكثرهم يومذاك بها، ومن أسماء أولئك الأعلام،أبي إسحاق التنسي وأخيه أبي الحسن،والإمام محمد بن مرزوق جد الجد، وأبي بكر بن داود بن خطاب الغافقي، وأبي الحسن الخزاعي[2] وغيرهم، فلا يستبعد أن يكون ابن خميس أخذ عن هؤلاء وأمثالهم فنون ذلك العصر التي كانوا يحسنونها، كعلوم الدين واللغة، والجدل والتصوف والتاريخ.

ولهذا عاش الرجل مجهولا عند أهله وبني بلدته، ولم ينتشر له ذكر حتى في الكبر يوم أصبح فارس حلبة القريض والبيان.

قال السلطان أبو عنان[3]: أخبرني شيخنا الإمام العالم العلامة، وحيد زمانه، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، قال: لما توجه الشيخ الصالح الشهير، أبو إسحاق التنسي من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع هناك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد فكان من قوله:

---

[1] – التعريف بابن خلدون، ص39 العبدوي: الرحلة المغربية، ص 11-14 . ابن مريم: البستان، ص 225، الحفناوي: تعريف الخلف، ج 2، ص 366-382. المقري: نفح الطيب، ج 7، ص 277-297، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 109.

[2] – الأديب الفقيه الكاتب علي بن مسعود الخزاعي ، توفي سنة 670 هـ.

[3]- نفح الطيب: ج5، ص 370.

- كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله بن خميس؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف، ويطلب في ذكر فضله، فبقي الشيخ متعجبا وقال:

- من يكون هذا الذي حليتموه بهذه الحلي ولا أعرفه ببلاده؟

- فقال: هو القائل: عجبا لها أيذوق طعم وصالها.

- فقال: فقلت: إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم، وإنما هو عندنا شاعر فقط!! .

- فقال له: إنكم لم تنصفوه، وإنه لحقيقي بمثل ما وصفناه به.

وكما أهملت المصادر التاريخية ذكر شيوخه، وأطوار نشأته أهملت كذلك ما يتصل بحياته مدة ثلاثين سنة أو تزيد، وحتى وظيفته بديوان السلطان أبي سعيد بن يغمراسن بن زيان لا يعرف تاريخها الحقيقي، لطول مدة حكم السلطان أبي سعيد، فقد بقي متربعا على العرش اثنين وعشرين سنة ويبدو أن ابن خميس لم يتول هذه الوظيفة في أوائل ملكه، حيث زار تلمسان بعض الرحالين بعد ملك أبي سعيد بثمانية أعوام، واجتمع بابن خميس، ووصفه بالخمول والقلة، ولم يشر أنه عمل أو يعمل بالبلاط، ومن عادته أن لا يغفل عن مثل ذلك[1].

---

[1] – محمد بن علي بن محمد بن مسعود العبدري الحاجي، شيخ أبي القاسم بن رضوان وصاحب الرحلة النفيسة التي بدأها من حاجة يوم 25 ذي القعدة سنة 677هـ ولما حل بتلمسان سنة 688 هـ أكثر مجالسة ابن خميس وكان يأنس به مدة إقامته بتلمسان في انتظار موسم الحج، وأعجبه حاله وذهنه، وقد وجده في حال انزواء وتقلل من الدنيا، وأثنى عليه رغم اشتهار العبدري بالنقد اللاذع، وقال إنه لم ير بتلمسان من ينتمي إلى العلم ولا حتى يمت إليه سواه، (فتي السن، مولده عام خمسين، له عناية بالعلم، مع قلة الراغب فيه والمعين عليه، وحفظ وافر من الأدب وطبع فاضل في قرض الشعر). وساق كثيرا من أخباره الأدبية، وأشعاره ومووياته التي أنشده إياها بنفسه. أنظر الرحلة المغربية ص 13، نفح الطيب، ج 7، ص 285. عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفس، ص 17.

وجوده في سبته: وكذلك هنا تسكت المصادر التاريخية عن ابن خميس حتى يوجد في سبتة[1] بين يديه قصيدة يمدح فيها أبا طالب العزفي[2] أميرها، ورثاء تلمسان ويهجو ملوكها ويتملق أبا يعقوب المريني محاصرها، وقد سكتت سائر المصادر، عن ذكر دواعي رحيل ابن خميس من تلمسان، وأسباب نقمته على مستخدميه، وبيان الطرق التي سلكها للوصول إلى مضيق جبل طارق.

ولكن إذا رجعنا إلى شعر ابن خميس يمكن لنا أن نفهم الأسباب والدوافع التي جعلته يغادر مدينته تلمسان ففي خلال الحصار الذي ضرب على تلمسان من طرف سلطان فاس يوسف بن عبد الحق المريني، حيث نفدت الأقوات وهلكت النفوس، فتحركت في ابن خميس عاطفة إنسانية، بعدما شاهد المجاعة وفناء الناس، فدعا السلطة الحاكمة أن تقبل الدخول في طاعة بني مرين، فأبى على ملوك تلمسان كبرياؤهم، وعزة نفوسهم أن يقبلوا تلك الهزيمة

---

[1]- **مدينة سبتة:** مدينة مغربية واقعة على مضيق جبل طارق، وهي من أقدم المدن فتحها المسلمون سنة 62 هـ. وأصبحت بعد ذلك مركز حضارة الإسلام والعروبة، بالشمال الإفريقي وظهر من بين أبنائها كثير من أئمة العلم والأدب كالقاضي الفضل عياض اليحصبي وأبي عبد الله ابن الفخار والشريف السبتي، وقد بقيت سبتة في حوزة الإسلام إلى أن استولى عليها البرتغال يوم الأربعاء 15 جمادى الثانية سنة 818 هـ، ثم انتقلت إلى ملك إسبانيا واحتفظت بها إلى يومنا هذا حيث تعد جزء من التراب الإسباني قانونيا.

[2]- العزفيون : أسرة عربية لخمية عريقة في المجد، من أكثر بيوتات سبتة وأهل الرئاسة والعلم والدين فيها، استبدوا بملك سبتة ونواحيها سنة 647 هـ في خلافة عمر المرتضى بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ولما جد أمر بني مرين دخل أبو القاسم العزفي في طاعتهم بعد قتال شديد فأبقوه على ما كان عليه، ثم استولى أبو سعيد على سبتة وغرب العزفيين إلى غرناطة، فاستقروا هناك إلى أن طرد أبو الربيع المريني بني الأحمر عن سبتة، فطلبوا الإذن بالرجوع إلى المغرب فإذن لهم فعادوا واستوطنوا فاس، وعندما تملك السلطان أبو سعيد المريني، ولّى أبا زكرياء يحي بن أبي طالب العزفي على سبتة.

وقد اشتهر العزفيون بحبهم للعلم وصدق نيتهم في الدفاع عن البلاد والجهاد في سبيل الله، ومن أعظم مآثرهم إنشاؤهم لعادة الاحتفال بعيد المولد النبوي بالبلاد المغربية.

والإهانة، ومن هنا بدأت علاقته بأمراء بني عبد الواد تسوء وأصبحت تدبر لاغتياله المؤامرات ولذلك أيقن أن لا نجاة في البقاء بجانبهم.

ولـــولا سخـــائـــم قـــوم أبـــــوا ... إيابـــي ركبـــت إلـيـك الريـاحـا

أبـاحـوا حمـاي وكـم مـــــرة ... حميـت حمـــى عرضـهـم أن يـاحا

ودافعـت عنـهـم شعـري انتصـارا ... لكـان الجـزاء جـلاي المـتـاحـا

أباعـوا ودادي بخـســا فـســل ... أكان سمـاحـهـم بـــي ربـاحـا

واغـــررا بنـفسـي طـلابـهـا ... ســرارا فجـاءوا لقـتـلـي صـراحا

وآلـــوا يـمـيـنـا عـلـى أن مـــا ... تـوهـمـت لـم يـك إلا مـــزاحـا

فشـــاورت نفـســي، فـي ذا مـــا ... رأت لـــي بغـيـر الفـلاة فـلاحـا

حيث غادر ابن خميس تلمسان محملا بني عبد الواد مصيره المجهول كما تجهل الوسيلة التي مكنته من الفرار والسبيل الذي اتخذه للوصول إلى سبتة، ولا تاريخ الفرار، وحسبما جاء في شعره يمكن أنه سلك سبيل ملويه والريف. فقد وصف سبل سفره بأنها أفاحيص قفار وهذه النعوت تطابق تماما المظاهر التضاريسية المتكون من الريف بالمغرب الأقصى، وما بين نهر تافنة وملويه[1].

---

[1]- نفح الطيب للمقري، ج 7، ص177، ص297، عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن أبي خميس، ص 28، 29.

فبت أناغي نجوم الدجا نجاء فلم ألف إلا نجاحا

وقد وصف لنا الشاعر الطريق الذي سلكه إلى سبتة أنه قفار فيقول:

أجوب الديباجير وحدي ولا مؤنس إلا القطا والسراحا

وإلا الثعالب تحتس في يميني فتملا سمعي ضباحا

أجوز الأفاحي فيحا قفارا وأعر والأدحمي غير فساحا

كما يرجح أن رحيله عن تلمسان كان في آخر سنة 706 هـ لأن قصيدته اللامية البليغة التي مدح في آخرها بني عبد الواد وخاصة السلطان أبي زيان الذي كان قد بويع بالملك بعد وفاة أبيه أبي سعيد[1] يوم الأحد ثاني ذي القعدة فلا يبعد أن يكون الشاعر بقي في بلده إلى هذا التاريخ. ولهذا حط ابن خميس في سبتة قصد التعليم والإقامة، وبين يديه قصيدة غريبة في موضوعها، مدح فيها سبتة، وأشاد بمائها وهوائها ورقتها واعتدالها، وجمال بحرها وجبالها وآلى على نفسه أن لا يرتوي غير مائها، وأن لا يحط رحله إلا بعقرها.

تركت لمينا سبة كل نجعة كما تركت للعز أهضامها شمخ

وآليت لا أرتوي غير مائها ولو حل لي في غيرها المن والمنح

وأن لا أحط الدهر إلا بعقرها ولو بوأتني دارا إمرتها بلخ

وفي نفس الوقت التفت إلى العزفيين مادحهم ومثنيا عليهم معددا مفاخرهم ومكارمهم. فيقول:

---

[1]- السلطان أبو زيان بن أبي سعيد بن يغمراسن ولد بتلمسان 659هـ- وبويع سنة 703 هـ وتوفي ضحية يوم الأحد 21 شوال سنة 707 هـ

وأمـــلاكـــها الصيـــد المقاولـــة الألـــى لعزهـــم تعنـــو الطـــراخـــمـــة البلخ[1]

كواكـــب هـــدي في سمـــاء رئـــاســـة تضي فما يدجـــو ظـــلال ولا بطخو[2]

ثواقـــب أنـــوار تـــرى كـــل غامـــض إذ الناس فـــي طخيـــاء غيبهم التخـــوا

وزوضـــات آداب إذ مـــا تـــأرجـــت تضـــاءل فـــي أفيـــاء أفنانـــها الـــرمخ

وكان من وراء هذا يريد كسب عطف ومودة أهل سبتة وغنم عطفهم، بعد أن قست عليه الأيام ورمته بالرزايا والمحن، والبعد عن الأهل والوطن.

غير أنه لم يجد ما كان ينتظره ويتمناه في هذه المدينة، حيث قابله مكر الماكرين وكيد الكائدين مما عجل برحيله سريعا، فقد أوعز ابن الربيع إلى طلبة سبتة، أن يلقوا على ابن خميس أسئلة يراد بها إعجازه، فاجتمع إليه الطلبة ذات يوم، وألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم: أنتم عندي كرجل واحد.

وكان يعني بذلك أن هذه الأسئلة مستوحاة من ابن أبي الربيع[3].

إقامته بغرناطة مع الوزير ابن الحكيم: تعتبر مالقة أول مكان وطئته قدما ابن خميس من أرض الأندلس، ومنها غرناطة، حيث وصلها سنة 703هـ، وكان أميرها يومئذ محمد الثالث النصري المعروف بالمخلوع ووزيره وقتذاك أبو عبد الله ابن الحكيم[4].

---

[1]- **الطراخمة** : المتكبرون، البلخ: المتعجرفون.

[2]- **بطخو:** طحت الضلال: اشتدت ظلمته.

[3] – واجهه أصغر القوم سنا وعلما وقال له: إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجبني عن هذه المسائل من باب علامات الأعراب التي أذكرها لك، فإن أجبت فيها بالصواب لم تخط بذلك في نفوسنا بالنظر إلى تعاميك عن الإدراك والتحصيل، وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد، فبهت الشيخ من مضمون تلك المسائل وقال: إنما يسأل عن هذا صغار الولدان ، فقال الفتى: فأنت دونهم إن لم تجب. فانزعج الشيخ وقال: هذا سوء أدب وعلى إثر هذا الحادث غادر سبتة إلى مالقة. راجع : المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور، ص 231.

[4]- ذو الوزارتين، محمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم اللخمي الرندي المعروف بابن الحكيم، الأديب الكبير، الذائع الصيت، ولد برندة في ربيع الأول 660 هـ، واستكتبه الأمير أبو عبد الله بن محمد النصري في خلافته، ولما توفي الأمير المذكور، قلده أبو عبد الله محمد بن محمد النصري في خلافته

وشرع في تعليم العربية[1] بها، ولكن الوزير لم يتجاهل قدره، حيث ذاع ذكره وشعره قبل مجيئه إليه، فضمه إلى مجلس علمائه، فتغنى الشاعر بفضله وكرمه فأبدع ما في وسعه، وأصبح الطائر الصداح بفضله.

قال ابن خاتمة:

"ثم أجاز البحر إلى الأندلس، فاحتفل بحضرة غرناطة في أواخر سنة ثلاث وسبعمائة في جوار الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، فتعارضا حقل المجد، وتباريا في الرفد والحمد، فأذن له ذو الوزارتين بأخلاف بره وإكرامه، وخلع عليه ابن خميس أفواف نثره ونظمه، فله فيه القصائد التي جلبت بها لبات الآفاق وتنفست عنها صدور الرفاق"[2].

وفي سنة 706 زار ابن خميس مالقة، ومنها قدم على المرية، فنزل بها في ضيافة القائد، أبي الحسن بن كماشة، من خدام الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، وبها مدح الوزير ابن الحكيم بقصيدته التي أولها[3]:

العشبي لا تعبا والنزابغ عن شكر أنعمك السوابغ

وتعتبر قصيدة طويلة ومما جاء فيها في حق ابن كماشة:

ورسائغ ابن كماشة مع كل بازغة وبازغ

– ولما توفي الأمير المذكور، قلده أبو عبد الله المخلوع الوزارة والكتابة، فكلف بشؤون الدولة إلى أن قتل يوم عيد الفطر من سنة 708 هـ، وقد دخل هذا الوزير تلمسان في الطريق إلى الحج، وكان أديبا عظيما، ذو عناية بالعلم والأدب ، وقد أنشأ حوله مجلسا ضم كل نابغة ميرز كعبد المهين الحضرمي، وأبي العباس العزفي وغيرهم من الأعلام. راجع: المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور.

[1]- نفح الطيب: ج5، ص 360.

[2]- نفس المصدر: ج5، ص 360.

[3]- نفس المصدر، ص 360.

تلاميذه وأصحابه:

إذا كان التاريخ قد أغفل عمدا أو سهوا شيوخ ابن خميس، فإنه حفظ لنا بعض أسماء تلاميذه ورواة شعره، وجلسائه وأصدقائه بتلمسان وسبتة والأندلس، فمن تلامذته، الإمام النحوي محمد بن علي بن الفخار الجزامي، والفقيه الأديب محمد إبراهيم بن عيشون البلفيقي[2]، أما رواة شعره، فمنهم القاضي عبد المهين الحضرمي، والأديب الكاتب، يحي بن علي القبسي[3] والقاضي محمد عبد الرزاق، والقاضي أبو البركات بن الحاج[4]، والأستاذ أبو عثمان بن ليون[5] والرحالة العبدري وسواهم كثير[6].

وفي الوقت الذي كان فيه ابن خميس ينوي الرحيل عن غرناطة والعودة إلى بلده المحبوب الذي اشتد شوقه إليه، ونظم القصائد المبكية المشجية فيه، ولما علم الوزير ابن الحكيم بذلك صعب عليه سماع الخبر فقال ابن خميس في حضرته: أنا كالدم بطبعه أتحرك كل ربيع. وبينما هو يتهيأ ويستعد للرحيل إلى وطنه، تعجلت به الأقدار ليسقط صريعا بجانب الوزير عندما حلت به النكبة[7]، وكان آخر ما صدر عنه من الشعر قوله:

---

[1]- نفح الطيب: ج5، ص 361.

[2]- محمد بن إبراهيم بن عيشون المتبحر في علوم الفقه وفروعه، وعلم اللسان وصناعة المنطق، الشاعر ، الطيب.

[3]- أديب شهير من أهل المرية، يعرف بابا زرفالة ، توفي سنة 750 هـ.

[4]- محمد إبراهيم البلفي، من ذرية العباس بن مرداس توفي سنة 771.

[5] - سعد بن أحمد بن ليون التجيبي من أهل المرية.

[6]- راجع : المنتخب النفيس من شعر عبد الله بن أبي خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور ، ص 36، 37.

[7]- وصف مقتله غير واحد من الأعلام، كيحي بن خلدون في بغية الرواد، وأبي العباس المقري في نفح الطيب وأزهار الرياض، وابن الخطيب في الإحاطة.

وهو مطلع قصيدة عيدية في مدح الوزير، على عادته معه، وبعد نظم المطلع المذكور في شهر رمضان، جفت قريحة الشاعر، ونضب معينها و لم يستطع أن يزيد عليه شيئا[2].

وكانت وفاته بغرناطة قتيلا ضحى يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة 708هـ، وذلك يوم مقتل وزيره ابن الحكيم، أصابه قاتله بحقده على وزيره، ويقال لما هم به قاتله، قال له: أنا دخيل النبي صلى الله عليه وسلم فلم يلتفت إليه وجعل يجهز عليه، فقال لم تقتل الدخيل الله بيني وبينك، فكان آخر كلامه: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، ويقال أن قاتله هلك قبل أن يكمل من قتله له، بفالج شديد أصابه فكان يصيح ويستغيث، ابن خميس يضربني، ابن خميس يقتلني وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال نعوذ بالله من الورطات، ومواقع العثرات[3].

وحسب دراسة المهدي البوعبدلي[4]، أنه اكتشف له أخيرا، أثر من أهم آثاره، وهذا الأثر هو رسالة ثانية – الرسالة الأولى التي نشرها لسان الدين في "الإحاطة" وعبد الوهاب بن منصور في "المنتخب النفيس" – كتبها ابن خميس بخطه سنة 682هـ وموضوعها نفس موضوع الرسالة الأولى، وكتبت في وقت واحد، إلا أنها حظيت بشرح قيم لمعاصر ابن خميس قاضي قضاة تلمسان ابن هدية القرشي.

---

[1]- نفح الطيب: ج5، ص 362.
[2]- المصدر نفسه: ج5، ص 362.
[3] – أنظر: المنتخب النفيس في شعر عبد الله بن أبي خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور، ص 40، 41.
[4]- المهدي البوعبدلي، الأصالة – العدد 26، ص 130-131، راجع: تاريخ قضاة الأندلس لأبي عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ص 134-135.

هذا الشرح الذي أزاح الغموض الذي اكتنف حياة ابن خميس، وترك مترجميه ينسبه إلى السحر والشعوذة، والبعض الآخر ينسبه إلى الزهد والتصوف.

ظهر من خلال شرح ابن هدية أن ابن خميس كان ينتصر للفلاسفة ويشيد بأئمتها، والفقهاء إذ ذاك وفي مقدمتهم ابن هدية كانوا يحكمون على الفلاسفة ويشيد بأئمتها، والفقهاء إذ ذاك وفي مقدمتهم ابن هدية كانوا يحكمون على الفلاسفة بالزندقة والكفر وهذه التهمة التي ألصقت بابن خميس، هي من الأسباب التي جعلته يعيش في بلاده مترويا منعزلا في الأوساط العلمية، مما جعل العبدري يقول في رحلته عنه: "وجده على حالة انزواء وتقلل في الدنيا"[1]. وكان ابن خميس قريب العهد بالامتحان الذي نصبه له بمدينة فاس، حيث نصب فقهاؤها كمينا، مثل فيه أمام محكمتهم، فحكموا عليه بالكفر والزندقة.

وقد قال ابن هدية عند شرحه لبيت ابن خميس في رسالته :

وأقل أبا البركات من بركاته وادفع محال شكوكه بمحالها

"أبا البركات يعني الشريف أبا البركات محمد بن علي الحسني المعروف ببلده فاس بالشواذكي وكان له بحث في علم الكلام، وكان له بعلم اللسان بعض الاعتناء والاهتمام، وبسببه وقعت مخاطبة أبي عبد الله بن خميس أبا الفضل ابن عتيق بهذه الرسالة، إذ كان أبو البركات هذا متولي مناظرته حال حلوله بمدينة فاس واجتيازه بها وأحسب ذلك ما بين الثمانين والتسعين وستمائة أو قبلها بسنين والله أعلم، وبمدينة فاس كنت أنا قاطنا إذ ذاك مع

---

[1]- الرحلة المغربية للعبدري : ص 13.

والدي رحمهما الله تعالى، لسبب أوجب مفارقة الوطن يطول ذكره، وكانت المناظرة في علمي الكلام واللسان، انقطع فيها أبو عبد الله بن خميس حينئذ، انقطاع من عزه الدليل وأعوزه البرهان فرسمه الشريف أبو البركات عند ذلك في ديوان الضلال والكفر، ووسمه مع ما وسمه الله به من التفلسف بانتحال الشعر، وذلك ما أشار ابن خميس إليه في النظم من هذه الرسالة والنظر"[1].

ويتضح من خلال هذا الشرح كذلك، أن هدية علاوة على رأيه في الفلسفة والفلاسفة الذين يحكم عليهم جزافا بالكفر والزندقة، كان يحتقر ابن خميس ويهينه، ومن ذلك رده عليه عند شرحه لبيته الذي قال فيه:

وإذا انتسبت فإني من دوحة تتقيل الأنساب برد ضلالها

قال ابن هدية : "... وهذا غلو مفرط وكذب مورط ....".

ثم استرسل ابن هدية في حديثه فقال: "فأنت ترى ما في كلام ابن خميس هذا من القحة والجرأة على معاطاة الرفعة التي ناطته بمناط الخمول والضعة، على أنه لم يقف هنا ولا جعله حده، بل أضرب عنه وقال بعده لوحظت بقبائها الحجري رحلها، وساجلت بوفاء صبرها ذي رعين إلا استوفت سجلها"[2]. إلى أن قال مخاطبا ابن خميس:"وأما الفقه الشرعي

---

[1]- المهدي البوعبدلي : الأصالة ، العدد ، 49، 50، ص 07.

[2]- المهدي البوعبدلي، الأصالة، العدد 26، 130-131.

فمعلوم أنك منه صفر الراحة، بريء الساحة، لم تزل قاصرا على اجتناب أسبابه قاصدا الاجتناب أربابه، معاداة له، ومناوأة لمن حمله.

فلســت منــهــم لــدى خبــر ولا خبر ولســت منــه لــدى ورد ولا صــدر

ولولا أن الأليق إيثار الأعراض من استتار مقاصدك السيئة والأعراض، لأومأت من ذلك إلى ما يوجعك منه عضو الثقاب، ويرميك بثالثة الأثافي، فإنك من تقاولك هذا المجال، وتجاولك في ذلك المجال، بين جهل فاضح أو كفر واضح، فاختر وما فيهما حظ لمختار"[1].

شخصية ابن خميس الأدبية:

يعد ابن خميس عند كثير من الأدباء شاعر المئة السابعة[2] وهو إذ يحمل هذا اللقب، فإنما يحمله عن جدارة واستحقاق حيث لم يوجد في هذا القرن من ينافسه في قرض الشعر وقوة المعين وطول النفس، وقل من ينافسه ويماثله في سلاسة المباني، وسلامة المعاني.

وقد أجمع من أشاروا إلى ابن خميس ولو بكلمة على قوة شاعريته، وأقروا له بالتفوق واعترفوا له بالبراعة والأسبقية، فما عابه عائب، واستنقصه جاحد، بل عدّ معاصريه فارس الحلبة، وفحل الألوان، قال ابن الخطيب: "كان طبقة الوقت وفحل الألوان في المطول، أقدر الناس على اجتلاب الفريب" وقال ابن خاتمة: "وكان رحمه الله من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء، يصرف العويص ويرتكب مستصعبات القوافي، ويطير في القريض مطار ذوات القوادم

---

[1]- المهدب البوعبدلي، المهدي البوعبدلي، الأصالة، العدد 26، 132.

[2]- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 109.

الباسقة والخوافي"[1]، وقال عبد الرحمن بن خلدون: "كان لا يجارى في البلاغة والشعر"، ووصفه أخوه يحي "بالدبّاج الذي لا نظير له" وكان قاضي القضاة بمصر تقي الدين بن دقيق العيد يضع قصيدة من شعره في خزائنه تعلو مجالس مطالعته، وكان يخرجها كثيرا ويطيل النظر فيها، ويتأمل معانيها، حكى السلطان أبو عنان عن الآبلي أن القصيدة لما وصلت إلى ابن دقيق العيد لم يقرأها حتى قام إجلالا لها[2].

وقد مدحه ابن خطاب بقوله:

رقت حواشي طبعك ابن خميس ... فهفا قريضك لي وهاج رسيسي

ولمثله يصبو الحليم ويعتري ... ماء الشؤون به وسير العيش

لك في البلاغة، والبلاغة بعض ما ... تحويه من أثر، محل رئيس

نظم ونثر لا تبارى فيهما ... عزت ذاك وذا بعلم الطرسي[3]

وقد حدث عنه ابن خاتمة في كتابه "مزية المرية" فقال: "كان صنع اليدين حاذقا ماهرا فيما يصنعه بيده، فلقد صنع قدحا من الشمع أبدع في شكله ولطافة جوهره وإتقان صنعته وكتب بدائر شفته ما يلي حاكيا لسان حال القدح:

وما كنت إلا زهرة في حديقة ... تبسم عني ضاحكات الكمائم

---

[1] أحمد بن علي بن محمد الأنصاري يكنى أبا جعفر وأبا العباس ويعرف بابن خاتمة أديب كبير وشاعر ولد بالمرية سنة 710 هـ وأخذ عن أبي البركات البلفيقي وابن لبون وابن أبي العيش وكتب لولاة بلده ثم انقطع للتعليم بجامع بلده عندما عادت عليها العوادي وهذا الكتاب اليوم مفقود، وأواخر العهد به ما ذكره أبو العباس المقري من أن كان يملك منه نسخة تركها مع كتبه عندما سافر للمشرق وكانت وفاة ابن خاتمة سنة 770 هـ.

[2] أنظر: (بغية الرواد)، ج1، ص 115، نفح الطيب، ج2، ص 188-193.

[3] أبو حامد الغزالي، فيلسوف الإسلام الشهير المولود بطرس 450 هـ.

فقبلت من طور لطور فها أنا أقبّل أفواه الملوك الأعاظم

وأهداه خدمة للوزير أبي عبد الله ابن الحكيم[1].

ويمتاز شعر ابن خميس بخصائص كثيرة كالمتانة وغلبة الحزن عليه وغرابة الألفاظ وميله للجانب القصصي.

ولكن الخاصية المتميزة في شعر ابن خميس غرابة الألفاظ، حيث كان ابن خميس مولعا بها وأقدر الناس على استعمالها، والغريب أن غرابة لفظه لا تخل بفصاحة شعره، ورغم أن بعض قصائده الشعرية لا يفهم معناها دون الاستنجاد بالمعاجم اللغوية والمصادر التاريخية فإنها مع ذلك منظومة من نسج من السلالة والعذوبة، بحيث لا يكاد المرء يفرغ من تفهم الشطر حتى تدفعه الرغبة في المتعة باستجلاء الغريب إلى تفهم الشطر الثاني وهكذا من بيت إلى بيت وقد دافع ابن خميس عن استعماله الغريب في قصيدته التي مطلعها:

العشبي وتعيبا والنوابغ عن شكر أنعمك السوابغ

بقوله:

ما ذاق طعم بلاغة من ليس للحوشي ماضغ

وكان لابن الخميس إلمام كبير بعلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وفقه والأصول والجدل والفلسفة والصوفية، وله فوق ذلك، اطلاع واسع على أيام العرب ورجالها وأنباء الأمم وأحوالها وخبرة كبرى بالنحل وتفاريقها، والشيع ومعتقداتها، وشعره مرآة صادقة

[1]- المقري: نفح الطيب، ج 05، ص 360، 361.

لمعارفه هذه، وكان ابن خميس راوية متأخرة من رواة الأدب العربي، جاء يكمل في القرن السابع ما أغفل الرواة ذكره في القرون الأولى[1].

مختارات من شعره:

لابن خميس شعر كثير كله حسنات ولطائف وبراعات وطرائف، قد جمعه ودونه القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي[2] في جزء سماه "الدر النفيس من شعر ابن خميس" وقد جمعه الأستاذ عبد الوهاب بن منصور تحت عنوان: "المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس".

شوقه وحنينه إلى تلمسان:

قال وهو بالأندلس يتشوق إلى تلمسان، ويمدح الوزير أبا عبد الله بن الحكيم، وكان نظمه لهذه القصيدة في شهر شعبان سنة 706 هـ.

سل الريح إن لم تبعد السفن أنواء[3] فعند صباها من تلمسان أنباء

وفي خفقان البرق منها إشارة إليك بما تنمي إليك وإيماء

---

[1]- المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس، عمل: عبد الوهاب بن منصور، ص 39.

[2] -هو أبو محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي، ولد بسبتة سنة 675 هـ. أخذ عن أبي إسحاق الغافقي الأندلسي، ثم انتقل إلى غرناطة بعد احتلال الأمير أبي سعيد بن اسماعيل ابن عم السلطان محمد المخلوع ابن محمد الفقيه ابن محمد بن يوسف الأحمر لسبتة سنة 703 هـ. وأخذ بالأندلس عن أبي جعفر بن الزبير. وكان كاتبا مشهورا. اتصل بابن الحكيم بغرناطة، وكتب له وفي تلك الأثناء عرف الشاعر الصوفي ابن خميس وبعد مقتل ابن حكيم واستلاء المرينيين على سبتة، عاد ابن عبد المهيمن إلى مسقط رأسه. وفي عهد السلطان أبي الحسن المريني لحق بالمجلس العلمي، ثم صحب السلطان إلى إفريقية سنة 748 هـ. لقد كان المهيمن بارعا في فنون الأدب، فصيحا بليغا.
= أنظر: التعريف بابن خلدون، ص 20 – 38-41، كتاب العبر، ج7، ص 515-517، المقري: نفح الطيب: ج7، ص 163-164-384-391.

[3] -**الأنواء:** جمع نوء: النجم المائل للغروب.

تمـــــر الليـــالي ليلـــة بعـــــد ليلـــة ... وللأذن إصـــغـــاء وللعيـــن إكـــلاء[1]

وإنـــي لأصبـــر للصـــبا كلـــمـــا مرت ... وللنجم مهـــمـــا كـــان للنجم إصبـــاء[2]

وأهـــدي إليـــها كـــل يـــوم تـــحيـــــة ... وفـــي رد إهـــداء التـــحيـــة إهـــــداء

واستجـــلـــب النـــوم الفرار مضجعي ... قتـــاد كـــمـــا شاءت نواها وســـلاء[3]

لعل خيـــال مـــن لدنـــهـــا يـــمـــر بي ... ففي مره بي من جوى الشـــوق إبـــراء

وكيف خلوص الطيـــف منها ودونـــها ... عيون لهـــا فـــي كـــل طـــالعة راء[4]

وإنـــي لمشتـــــاق إليـــهـــا ومنـــبـــع ... ببـــعـــض اشتيـــاقي لو تمكـــن إنبـــاء

وكم قائـــل تغنـــى غـــرامـــا بحـــبها ... وقد أخلقـــت منـــها مـــلاء وأمـــلاء[5]

لعشـــــرة أعـــوام عليـــها تجرمـــــت ... إذا ما مضى قيظ بها جـــاء إهـــــراء[6]

يطـــنـــب فـــيـــها عائشـــون وخـــرَّب ... ويرحـــل عنـــها قاطنـــون وأحـــيـــاء

كـــأن رمـــــاح النـــاهبيـــن لملـــكـــها ... قـــدح وأمـــوال المـــنـــازل أبـــداء[7]

فلا تبغيـــن فيـــها منـــاخـــا لراكـــــب ... فقد قلصـــت منـــها ظـــلال وأوفياء[8]

ومن عجـــب أن طال سقمي ونزعهـــا ... وقســـم اضنـــاء عليـــنا وأطـــنـــاء[9]

---

[1] -إكلاء: الإكلاء ترديد البصر في شيء مصوب.

[2]- صبا إلى الشيء حن إليه، أباء: الاستهواء .

[3] – الغرار: القليل من نوم وسواه، والقتاد شجر صلب له شوك كالإبر والسلاء بالضم جمع سلاءة: شركة النحل.

[4]– لعله يريد هنا بالراء الرقيب.

[5]– الملاء بالضم ج ملاءة : ةثياب تلبس على أفخذهن، والأملاء ج ملاء : أشراف القدم الذين يملأون العين أبهة.

[6]– ليشير إلى مدة الحصار الذي ضربه المرينيون على تلمسان وترحم العام انقض، والقيظ شدة الحر، والإهراء: شدة البرد.

[7]– الأقداح : ج قدح بالكسر منهم الميسر، ولعل المراد بالإبداء ما يربحه لاعب الميسر.

[8]– الأفياء : ج فيء : الظل.

[9]– النزع : حالة المريض المشرف على الموت، ولا طناء ثقل المرض والأطناء ج طنى المرض.

وكم أرجفـوا غيظـا بهائـم أرجـأوا ... فيكذب إرجـاف ويصـدق إرجـاء[1]

يـرددهـا عيابـهـا الـدهـر مثلمـا ... يردد حرف الفاء في النطـق فأفـاء[2]

فيا منـزلا نـال الـردى منه ما انتهى ... ترى هـل لعمـر الأنس بعـدك إنساء

وللظـى الحـرب التـي فيـك تلتظي ... إذا مـا انقضـت أيام بؤسـك إطفـاء

وهل لي زمـان أرتجـي فيـه عـودة ... إليك ووجـوه البشـر أزهـر وضـاء

ومنها :

ولـؤلا جـوار ابـن الحكيـم محمـد ... لما فات نفسي من بني الدهـر إقمـاء

حمـاني فلـم تنتـب محـلي نوائـب ... بسـوء ولـم تـرزأ فـؤادي أرزاء

وأكفـأ بيتـي فـي كفـالـة جـاهه ... حصاروا عبيـدا لي وهـم لي أكفـاء

يؤمنـون قصـدي طاعـة ومـحبـة ... فما عفـتـه عافـوا وما شئته شـاؤوا

دعـاني إلـى المجـد الذي كنت آملا ... فلم يـك لي عـن دعوة المجد إبطـاء

وبوأنـي مـن هضـبـة العـز تلعـة ... يناجي السها منها صعود وطـأطـاء[3]

ولهذا فابن خميس دائما لا ينسى تلمسان حيث نلاحظ أنه يعطيها حقها في كثير من قصائده ومن البديهي أن لا ينساها، فهي مسقط رأسه ومربع صباه من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يعتز بالأندلس الساحرة بسمائها وهوائها ومياهها وبساتينها فأينما اتجه رأى ما يذكره بلده فتجيش عيناه وتهيج أحشائه فينفجر خاطره كالبركان حنينا وأشواقا، فيتغنى بشعره الحلو السلسل الذي ينم عن شاعرية فياضة.

1- أرجاف: الأخبار السيئة التي يراد بها الناس والأرجاء.

2- الإنسان الخجل على النسيان.

3 - الصعود المرتفع.

تلمسان جادتك السحاب الروائح ... ورأست بواديك الرياح اللواقح

وسِحْ على ساحات باب جيادها ... ملت يصافي تربها ويضافح[1]

يطير فؤادي كلما لاح لامع ... وينهل دمعي كلما ناح صادح

ففي كل شبر من جفوني مائح ... وفي كل شطر من فؤادي قادح[2]

فما الماء إلا ما تسح مدامعي ... ولا النار إلا ما تجن الجوانح

خليلي لا طيف لعلوة طارق ... بليل ولا وجه لصبحي لائح

نظرت فلا نور من الصبح ظاهر ... لعيني ولا نجم إلى الغرب جانح

بحقكما كفا الملام وسامحا ... فما الخل كل الخل إلا المسامح

ولا تعزلاني واعذراني فقلما ... يرد عناني عن علبة ناصح

كتمت هواها ثم برح في الأسى ... وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح

لساقية الرومي عندي مزيه ... وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح[3]

فكم لي عليها من عدو وروحة ... تساعدني فيها المنى والمنائح

فطرف على تلك البساتين سارح ... وطرف على تلك الميادين جامح[4]

تحاربها الأذهان وهي ثواقب ... وتقفو بها الأفكار وهي بوارح

ظباء مغانيها عواط عواطف ... وطير مجانيها شواد صوارح

تقتلهم فيها عيون خواطر ... وتبكيهم منها عيون نواضح

---

[1]- باب الجياد شهر تلمسان، والملث : المطر يدوم أياما.

[2] - منح الماء أستفاد واستخرجه من البئر.

[3]- ساقية الرومي : قناة ماء جميلة المنظر تعرف اليوم بساقية النصراي.

[4]- الطرف بالفتح: العين ، وبالكسر الكري من الخيل.

على قريـــة العبـــــاد منـــــي تجبـــة ... كما فـــاح من مســـك اللطيمة فائـــح[1]

وجاء ثـــرى تـــاج المعـــارف ديـــمـــة ... تغـــض بها تلك الربـــى والأباطـــح[2]

إليك شعـــيـــب بن الحسيـــن قلـــوبنـــا ... نـــــوازع لكـــــن الجســـوم نـــوازح

سعيت فما قصـــرت عن نيـــل غايـــة ... فسعيـــك مشـــكـــور وتجـــرك رابـــح

نسيت وما أنســـى الـــوريـــط وقـــفـــة ... أنـــافـــح فيـــها روضـــة أفـــــاوح[3]

مطـــلا علـــى ذاك الغـــديـــر وقد بدت ... لإنســـان عينـــي مـــن صفـــاه صفائح

أمـــاؤك أم دمـــعـــي عشبية صـــدفت ... عليه فينـــا مـــا يقـــول المكـــاشـــــح

لئن كنـــت مـــلأنا بدمـــعـــي طـــافحا ... فإنـــي سكـــــران بحبـــك طـــافـــــح

وإن كـــان مهـــري فـــي تلاعك سائحا ... فـــذاك غزالي فـــي عبـــابـــك سابـــح

قـــراح غدا ينصب من فـــوق شاهـــق ... بمـــثـــل حـــلاه تستحـــث القـــرائـــح

أرق مـــن الشـــوق الـــذي أنـــا كـــاتم ... وأصفى من الدمع الـــذي أنـــا سافـــح

وهو ينبؤك بحبه وشوقه إلى مسقط رأسه صدق في مدحه أمراء سبتة :

تلمسان، لو أن الزمان بها يسخو منـــى ... النفـــس لا دار الســـلام ولا الكرخ[4]

وداري بـــها الأولى التي حبل دونـــــها ... مثار الأســـى لو أمكن الخنق الكبخ[5]

وعهـــدي بهـــا والعمـــر فـــي عفوانه ... ومـــاء شبابـــي لا أجيـــن لأمـــطخ[6]

---

[1]- العباد جنوب تلمسان الشرقي، ومناظره من أبهج مناظر الشمال الإفريقي، واللطيمة نافحة المسك وسوق العطارين.

[2]- يريد شيخ المنصارف الصوفية أبا مدين شعيب بن الحسين دفين العباد.

[3]- الوريط : من منتزهات تلمسان الشهيرة به شلالات وبساتين.

[4]- دار السلام: يراد بها بغداد، والكرخ ربضها الشرقي.

[5]- الكبخ: الضرب والشتم.

[6]- أجين الماء: تغير لونه وطعمه، والمطخ الدنس.

قـرارة قـيـام ومعنـى صبـابـة ... ومعـهـد أنـس لا يلـذ بـه لطـخ

إذا الدهـر مثنـي العـنـان منـهنـة ... ولا ردع يثني مـن عناني ولا ردخ[1]

ليـالـي أصـغي إلى عـذل عـادل ... كأن وقـوع العـذل في أذني صـخ[2]

معاهـد أنـس عطـلـت فكـأنـهـا ... ظواهر ألفـاظ تعـمـدهـا النـسـخ

وأربـع آلاف عـفـا بـعـض آيـها ... كما كان يعـرو بعض ألـواحنا اللطخ

فمـن يـلـك سكـرانـا من الوجد مرة ... فإني منـه طـول دهـري الملتـخ[3]

ومن يقتـدح زنـدا لمـوقـد حـذوة ... فرند اشتياقي لا عقـار ولا مـرح[4]

وقد قال وهو يتذكر شبابه مقارنة بحاضره المشيب:

إن كنـت تجـهل أنـي لا أرقـد ... فاسـأل يخبرك السهـى والفـرقـد[5]

وإن اهمتـهـمـا – لبعـض تشـابه ... بينـي وبينهـمـا – فطفيـك يشـهـد

ولقـد أبيـت الليـل لا أدري بـه ... سهـرا كمـا بات السـليـم الأرمـد

أوعـى كـواكـبـه وأرق صـبـحه ... والصبـح أنـأى مـن هـواي وأبعـد

فـردا أكـابـد لوعـتـي وظـلامـه ... حتـى يقـدم لـورده المتهجـد

بـان الخـليـط وبـان قـلبـي إثره ... سحـرا كمـا زعـم الغراب الأسـود

وتبايـنـت أغـراضـنـا وجسـومنا ... فالجسم يتـهـم والعـزيمة تنـجـد

وكذاك ما صـبحـي الـذيـن ألفتـم ... إلا سـراي وعـزمتـي والفـرق

---

[1] الردخ: ويقصد بذلك الزجر.

[2] صخ الصوت الأذن: أصمها.

[3] ملتخ: سكران مختلط لا يفهم شيئا.

[4] العقار : شجر يتخذ منه الزند، المخ: شجر رقيق.

[5] السهى: كوكب خض، الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالي.

وهضت لو وافي نهوضي قوة ... مني وساعدني الشباب المسعد

ودى صباي وغامض كماء معينة ... وذوي قضيب قوامي المتأود

وأتى المشيب يزورني متفقدا ... والشيب أبغض زائر يتفقد[1]

ومن مشهور نظم ابن خميس قوله[2]:

عجبا لها أن أيذوق طعم وصالها ... من ليس يأمل أن يمر ببالها

وأنا الفقير إلى تعلة ساعة ... من ليس يأمل أن يمر ببالها

وأنا الفقير إلى تعلة ساعة ... منها، وتمنعني زكاة جمالها

الألم ذاد عن عيني الكرى متألق ... يبدو ويخفى في خفي مطالها

يسمو لها بدر الرجى متضائلا ... كتفاؤل الحسناء في أسمالها

وابن السبيل يحي يقبس نارها ... ليلا فتمنحه عقيلة مالها

يقتادني في النوم طيف خيالها ... فتصيبني ألحاظها بنبالها

كم ليلة جادت به كأنها ... زفت على ذكاء وقت زوالها

أما عن ولعه بالافتخار بنسبه والإشادة بقومه فأنت واجده شائعا في مواطن من نظمه وهو الذي يقول:

أنا بني قحطان لم نخلق لغة ... يرغباث ملهوف وضعة لاجي

بسيوفنا البيض اليمانية التي ... طبعت لخز غلاصم ووداج

[1] - راجع: المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله ابن خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور، ص 108.

[2] - المقري: نفح الطيب، ج 16، ص 368.

وكفـــن بحـــجتنـــا وإقـــامـــة حـــجـــة ... وبركتـــنـــا مـــن كعبـــة الحـــجـــاج

ولنا مفـــاخـــر فـــي القـــديم شـــهيـــرة ... كالصبـــح فـــي وضـــح وفي إبـــلاج

منـــا التبـــابعـــة الـــذيـــن بـــاهـــم ... كانـــت تنيـــح جبـــاه كـــل خـــراج

من يقتـــنـــح زنـــدا فـــإن زنـــادهـــم ... في الجـــود وارحـــه بـــلا إخـــراج

أبوابـــهـــم مقتـــرحـــة لضـــيـــوفهـــم ... أبـــدا بـــلا قـــفـــل ولا مـــزلاج

3-أبو عبد الله بن هدية:

التعريف به:

الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هديه القرشي[1]، كبير علماء بلده نباهة وجاها، وقوة في الحق، وصرامة، وكان أثيرا لدى سلطانه، قلده مع قضائه، كتابة سره، وأنزله فوق منزلة وزرائه، فكان يستشيره في تدبير ملكه، في كل الأمور. وكان أصيل الرأي ، مصيب العقل، كاتبا بليغا ينشئ الرسائل المطولة، ذا حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ.

وفيه يقول ابن حمادو من شعراء تلمسان[2]

لمـــا رأوك هـــديـــة مـــن ربـــهـــم ... سمـــوك بابـــن هـــديـــة فـــأجـــادوا

---

[1]- من ولد عقبة بن نافع الفهري، نزل تلمسان سلفه قديما ، توفي أواسط سنة 375 هـ وشهد جنازته يومئذ أبوتاشفين عبد الرحمن الأول. أنظر: المقري: نفح الطيب، ج5، ص 234، يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 116، تاريخ قضاة الأندلس، الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ص 134.

[2]- يحي بن خلدون ، المصدر السابق، ص 116.

ومن نظمه الدال على فضله[1]:

إلهي مضت للعمر سبعون حجة ... جنيت بها مما جنيت الدواهيا

وعبدك قد أمسى رهين ذنوبه ... فجد لي برحمي منك نعم الدواهيا

وكان جميل الأخلاق، جم المشاركة، مفيد المجالسة، كان مرددا لقول الأستاذ أبي اسماعيل الطفرائي في معرض النصيحة والتنبيه والتذكرة[2]:

لا تطمحن إلى المراتب قبل أن ... تتكامل الأدوات والأسباب

إن الثمار تمر قبل بلوغها ... طعما وهن إذ بلغن عذاب

من أعماله:

لما ظهر كتاب "قضاة الأندلس" لأبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي[3] المالقي كان ضمن القضاة المترجمين قاضي تلمسان ابن هدية ومن جملة ما جاء في مآثره شرح رسالة ابن خميس وفي ذلك يقول: "...كاتبا بليغا ينشئ الرسائل المطولة في المعاني الشاردة، ذا حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ، شرح رسالة محمد بن عمر بن خميس الحجري استفتح أولها بقوله:

عجبا لها أيذوق طعم وصالها ... من ليس يأمل أن يمر ببالها

1- يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ،ج1، ص 116.

2- تاريخ قضاة الأندلس للشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي، المالقي، ص 135.

3- أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن الحسن الجزامي المالقي النباهي، وهو من أسرة استقرت منذ أجيال عديدة بمدينة من أزهر مدن الساحل الأندلسي، أعني مالقة بهذه المدينة ولد علي النباهي في سنة 713 هـ وبها درس ، ثم رحل إلى غرناطة لاستكمال ثقافته الأدبية والفقهية، أنظر تاريخ قضاة الأندلس لصاحب الترجمة.

إلى آخر الرسالة من نظم ونثر، شرحا حسنا أتى فيه بفنون العلم، وضروب الأدب، بما دل على براعته، وكان جميلا، جم المشاركة مفيد المجالسة..." [1].

وجل من ترجم لابن خميس، لم يتعرض لذكر هذا الشرح، فعد من قائمة الكتب المفقودة، ولكن أخيرا حسب قول البحاثة في تاريخ الجزائر السيد المهدي البوعبدلي رحمه الله: "ومن حسن الحظ أن ختم المطاف بنسخة من هذا الشرح بإحدى خزائن بيوتات العلم بوادي بجاية، وأظهره صاحبه منذ سنوات قليلة فأمكنه الاطلاع عليه والاستفادة منه"[2].

ومن خلال هذا الشرح توضحت بعض المعالم من شخصية ابن هدية، وخاصة رأيه في الفلسفة ومعتنقي مذاهبها فقد أظهره عند شرحه لقول ابن الخميس: "وجاء بها من قدماء الحكماء كل أوحدى الأحوذية تحب إليه وتوضع إلخ" فقال: "والإشارة هنا بالحكماء القدماء إلى مثل من ذكره من متقدمي الفلاسفة الرؤساء لعنهم الله ولعن ذا الاهتداء بهديهم والاقتداء"[3] ثم وضع فصلا بسط فيه القول عن الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم عند شرحه لقول ابن خميس في رسالته: "وتحت هذه الأستار مخدرات أسرار أضرها الأسرار، وطالما تكر

---

[1]- تاريخ قضاة الأندلس، للشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ص 134.

[2]- المهدي البوعبدلي ، الأصالة ، العدد 50/49، ص 7.

[3]- المرجع نفسه ، ص 7.

معارفها الأنكار، ونقلت من صدور أولئك الصدور، إلى بطون هذه الأوراق، في ظهور فوق دفاتر فلسفيات معاني علومهم الرقاق"[1].

شرح ابن هدية هذه الفقرة بقوله: "والفلسفيات المنسوبة إلى أهل الفلسفة وقال ابن سيده الفلسفة الحكمة، وهو الفيلسوف وقد تفلسف، والفلسفة عند أهل السنة وكافة الأشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح الناشئ عن منطلق الخلاف الواضح، وعلومها تنقسم إلى الغرض المطلوب، منها ستة أقسام: رياضية ومنطقية وطبيعية، إلاهية وسياسية وخلقية بينهما الإمام أبو حامد رحمه الله في بعض تصانيفه وبين آفاتها فغنى ذلك عن تبيينها هنا إذ فيه خروج عن الغرض المشترط، وكذلك ينقسم أرباب أصنافها على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم وتشعب طرقهم . ثلاثة أقسام:

الدهريون والطبيعيون والإلاهيون وكلهم زنادقة، كفار لعائن الله تترى عليهم"[2].

وهذا الشرح المفيد أنار لنا الجوانب الغامضة من حياة ابن خميس ، وهذه فقرات من تقديم ابن هدية في شرحه بين فيها الظروف التي أقدم فيها على تأليفه، حيث قال "أما بعد فإن من ألزمنا الله تعالى للأمر طاعته، وفرض على كل أمره مؤتمر له منها استطاعته. أضفى الله علينا وارف ظله، وأضفى له عوارف فضله، وطلب طلبته مثله أمر ممتثل، ثم أمر وأمر،

[1]- المهدي بوعبدلي: الأصالة، العدد 50/49 ، ص 08.

[2]- نفس المصدر، ص 08.

وأمر الأمير[1] حكم محكم وعمل صالح عند أهل العلم معتمل. أن تضمن له بتبيين معاني الألفاظ اللغوية، وتعيين ما يعني من إشارات الأغراض التاريخية، من رسالة الشيخ الأستاذ الأديب أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجري ذي رعين الحميري التي كتب بها إلى مشرف مدينة فاس: أي الفضل محمد بن يحي بن عتيق العبدري[2] شاكرا له ومثنيا عليه، وشاكيا له عصابة أساءوا تعصبا بزعمه إليه، ضمنها منظوما ومنثورا، وأودعها مثورا ومأثورا، صعد في ذلك وصوب، وخطأ وصوب ، وعلا وسفل ...إلخ"[3].

وبعد أن بين ابن هدية المنتسبين لهذه الأقسام الثلاثة، ورد بعضهم على بعض، ختم فصله بقوله: "فوجب تكفيرهم وتكفير شعثهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم، عليهم لعنة الله أجمعين"[4].

هذه فقرات مختصرة من شرح ابن هدية القرشي للاستدلال على رأيه في الفلاسفة ومذاهبهم.

كما أفادنا ابن هدية في شرحه عن محاكمة ابن خميس في مدينة فاس وهذا النوع من المحاكمة التي سيق إليها ابن خميس وصادف تلك المحاكمة وجوده في مدينة فاس وقد كان ابن

---

[1]- السلطان الذي أمر وأرغمه على هذا الشرح أبو تاشفين الأول وفي عهده احتل الملك أبو الحسن المريني مدينة تلمسان، رفض الملك أبو تاشفين الاستسلام، وقاوم إلى أن قتل في المعركة كبقية أفراد جيشه.

[2]- اسم المخاطب في الرسالة، هو مشرف مدينة فاس: أبو الفضل محمد بن يحي بن عتيق العبدري، الذي ترك بعض من حاول شرح هذه الرسالة في متاهات من الافتراضات والاستنباطات.

[3]- أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني 650-708/1253-1309، للباحث المهدي أبو عبدلي ، الأصالة، العدد 49، ص 3، 4، 5.

[4] - المهدي أبو عبدلي، نفس المصدر، ص 09.

هدية علاوة على رأيه في الفلسفة والفلاسفة الذين يحكم عليهم جزافا بالكفر والزندقة، يحتقر ابن خميس ويهينه، ومن ذلك رده عليه عند شرحه لبيته الذي قال فيه:

وإذا انتسبت فإنني من دوحة تقتيل الأنساب برد ضلالها

قال ابن هدية في شرحه: "... وهذا غلو مفرط وكذب مورط وكذا لعمري كل ما تقدم من قوله جرا هذا المجرى"[1].

العلوم العقلية:

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي:

حياته:

الآبلي هو أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن أحمد، وقد اشتهر بهذه النسبة التي تدل على أنه أندلسي الأصل، من مدينة (آبلة)، إلى الشمال من (مجريط)- أو (مدريد)، كما يطلق عليها الآن — وهي من مدن الثغور العليا في الأندلس. وبسبب موقعها هذا تعرضت لما تعرضت له الثغور عامة ومدن الأندلس الكبرى، من هجمات النصارى في محاولتهم المستميتة استرداد الأندلس وإجلاء المسلمين عنها وخاصة بعد موقعة (العقاب) التي انتصر فيها النصارى على المسلمين[2].

---

[1]- المهدي البوعبدلي، الأصالة، العدد 49، 8، للتفصيل راجع: ابن مريم : البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان: ص 225، المقري: نفح الطيب، ج7، ص 158، 159، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف،: ج1: ، ص 549-550.

[2]- التعريف بابن خلدون: ص 633، ابن مريم: المصدر السابق، ص 214، الحفناوي: المصدر السابق، ج1، ص 93.

وكانت منطقة الثغور هذه هي التي ينتسب إليها (الآبلي) هي الثغرة التي تدفقت منها أحقاد العدو، ومضى يهاجم المسلمين الذين استطاعوا أن يصمدوا له لولا أن عوامل الفرقة التي كانت تدب في أوصال أمرائهم، وبالتالي تمكن العدو منهم وتبدأ مدنهم تسقط الواحدة تلو الأخرى، وتتهاوى حصونهم ويتسلل الرعب والفزع إلى النفوس، ولا يجد القوم غير الفرار وإخلاء الديار، وهكذا توالت حركات الهجرة نحو بلدان المغرب العربي، وكان ممن هاجروا الآبلي إبراهيم وعمه أحمد، وقصدا في هجرتهما مدينة تلمسان، فاتخذاها موطنا لهما، ومجالا لأسباب عيشتهما، وفي كنف أميرها إذ ذاك يغمراسن بن زيان[1]، الذي وجد في بعض مهاجري الأندلس، وخاصة هؤلاء القادمين من بلاد الثغور، وقد تمرسوا بفنون القتال وحياة الجندية، ما يمكن أن يكون عونا له فيما هو بسبيله، وهكذا كان من اصطنعهم لذلك إبراهيم وأحمد والد (الآبلي) وعمه.

ولكن إبراهيم هذا الذي اتخذ الجندية حرفة له كان قد أصهر إلى أحد رجال العلم في تلمسان، وهو القاضي محمد بن غلبون، إذ تزوج ابنته فولدت له محمدا.

إذ كانت حياة الجندية هذه أقتضته أن يترك أسرته ويفارق ولده ومضت به إلى ميادين القتال، فقد كان من الطبيعي أن تلوذ هذه الأسرة بالقاضي، وينشأ الولد في كفالة جده، بعيدا عن ذلك الجو الذي يعيش فيه أبوه، جو الحياة العلمية، وبذلك اختلفت وجهته في الحياة

---

[1]- أنظر: التعريف بابن خلدون، ص 34، ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان، ص 214، الحفناوي: التعريف الخلف برجال السلف ، ج1، ص 93- 94.

عن وجهة أبيه، إذ نشأ له بذلك كما يقول ابن خلدون: " ميل إلى انتحال العلم وعن الجندية التي كانت منتحل أبيه وعمه" ولد سنة 681هـ[1].

وكانت تلمسان في ذلك الوقت تعد موطنا للعلوم العقلية، وكان من بين فنونها ما كان يطلق عليه اسم (التعاليم)، وهي: كما يقول ابن خلدون في المقدمة: العلوم الناظرة في المقادير، وهي: علم الهندسة وعلم الإرتماطيقي، وعلم الموسيقى وعلم الهيئة".

هذا هو الجو الذي كان يسود تلمسان حين شب الآبلي، وقد كانت البيئة العلمية التي نشأ فيها قد أحاطته بما جعله متفتح العقل، يقظ الفكر شديد التطلع، فأقبل عليها ينهل من شتى فنونها، يستكمل ما كان بدأه في مجالس جده.

وسرعان ما بدأ يستهويه النشاط العلمي الذي يسمى بالتعاليم ويبلغ فيه منزلة أجلسته مجلس المعلم لها، وهو ما زال صغير السن، كما قال ابن خلدون عنه: " فلما يضع وأدرك، سبق إلى ذهنه محبة التعاليم، فبرع فيها واشتهر، وعكف الناس عليه في تعلمها وهو في سن البلوغ"[2].

---

[1]- أنظر: التعريف بابن خلدون، ص 34، ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان، ص 214، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 17، الحفناوي: تعريف الخلف برحال السلف، ج1، ص 94.

[2]- عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص 34، ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص 147.

رحلته إلى الشرق:

ولكن نتيجة تفاقم الخصومات بين بني عبد الواد وبني مرين أثرت على حياة محمد بن إبراهيم وهكذا بحكم الجندية التي كان يقوم بها أبوه والمكان الذي يحتله منها وخاصة عندما ضرب الحصار على تلمسان في عهد يوسف بن يعقوب المريني، حيث بدأت حياته تضطرب، وهذا الإضطراب بلغ أعماقه، عندما ترددت الأنباء أن أباه أسر من طرف الجيش المريني[1].

ثمّ ترددت شائعة بين أهل تلمسان تزعم أن السلطان يوسف بن يعقوب لا يرى مانعا في أن يطلق سراح من اعتقلهم، على أن يأخذ أبناءهم رهائن عنده، فحركته غريزة الأبوة واتجه نحو أسوار تلمسان يتسورها، ويلتمس لنفسه الطريق نحو السلطان[2].

ولكن لم يتحقق للآبلي ما غادر من أجله مدينة تلمسان متسورا أسوارها، مخاطرا بنفسه قصد إطلاق سراح أبيه باسترهان نفسه لدى السلطان، وقد بلغ مجلسه وتقدم إليه يرجوه في شأنه ولكن بدون نتيجة.

غير أن السلطان توسم فيه وهو يحادثه في شأن أبيه قابليته للعمل عنده، فعرض عليه أن يكون قائدا للجند الأندلسيين في بعض المناطق.

1- التعريف بابن خلدون: ص 34، ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان، ص 214، يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 17.

2- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص 34.

فلم يستطع أن يمتنع للسلطان رغم كونه غير مهيئ لهذه الوظيفة فقبلها على مضض، و لم يلبث أن ضاق به وكره المقام عليه، فجعل يتحين الفرص ليتخلص منه[1].

ومع مجيء موسم الحج، رأى في ذلك فرصة يجب إغتنامها، فاتخذ زي الفقراء وأدرج نفسه في جملتهم، وسار متخفيا بينهم حتى بلغ معهم (رباط العباد)، خارج مدينة تلمسان، وهناك لقي بينهم رجلا من أهل كربلاء، يزعم أنه من بني الحسن بن علي، وفد على المغرب ليكون داعية شيعية، ولما رأى أن الجو السائد في هذه البلاد لا يسمح له بذلك أصر على الرجوع، فوجد (الآبلي) في ذلك فرصة لمرافقته بين أصحابه وإتباعه، فمضى معهم إلى أن وصلوا مدينة تونس، ومن هناك أخذوا طريق البحر إلى الإسكندرية. وبذلك إستطاع أن يخلص من قبضة السلطان المريني المحاصر لمدينة تلمسان، ولكنه لم ينج من هذه الرحلة بسلام فقد عانى منها نفسيا وماديا الشيء الكثير، حيث أرهقت أعصابه وزلزلت كيانه، فبمجرد ركوبه في السفينة المبحرة للإسكندرية حتى أصابه مرض في أعصابه، ورغم العقاقير التي تناولها فقد زاده المرض، ووصل مصر وهو يعاني هذه المحنة العقلية. وقد فاته بسببه عدم لقائه علماءها منهم على الخصوص: ابن دقيق العيد، ابن الرفعة، وصفي الدين الهندي، وغيرهم من فرسان المعقول ومن مصر اتجه مع مرافقه إلى الحجاز حيث أدى معهم فريضة الحج وبعد أدائه

1- عبد الرحمن بن خلدون: التعريف به، ورحلته غربا و شرقا، ص 34، 35، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر تاريخ ملوك بني عبد الواد، ص 17.

فريضة الحج عاد إلى تلمسان وقد ذهب عنه المرض وقدرت هذه الفترة من حياته بأربع سنوات[1].

ولأن عودته إلى تلمسان وقد تحررت من ذلك الحصار، وبرئت من تلك الأهوال التي عانتها، ورؤيته لها وقد عاد إليها هدوءها، واطمأنت الحياة فيها، ووقع الصلح بين صاحبها أبي زيان وسلطان المغرب، أبي ثابت المريني، كان كافيا لتذهب عنه تلك الغشاوة التي غشيت قواه العقلية أثناء رحلته.

فعاد من جديد إلى الدراسة، حيث قرأ المنطق على أبي موسى، عيسى ابن محمد بن الإمام، كما قرأ عنه جملة من المعارف، خاصة علوم الفقه والكلام.

ونظرا لما اشتهر به من قبل وما زال الناس يذكرونه من حذقه لفنون التعاليم وبراعته في الحساب. وصل خبره إلى أبي حمو، ملك تلمسان إذ ذاك وكانت دولته توسعت وتعقدت بذلك شؤونها. فاحتاج إلى من يضبط أمورها فعرض هذا على الآبلي، فضاقت نفسه بذلك ولذلك فرّ من أبي حمو ولحق بفاس[2].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 35- 36، ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص 147، يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص 17، ابن مريم: البستان في ذكر الاولياء وعلماء تلمسان، ص 214، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 194.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 36- 37، ابن مريم، المصدر السابق، ص 214- 215، ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 147، الحفناوي، ج1، ص 94.

رحلته إلى المغرب:

كان الآبلي في نحو السابعة والعشرين من عمره حين قرر الفرار من تلمسان والنجاة بنفسه من هذا المنصب الذي عرض عليه أبو حمو في ديوانه ليضبط أمواله.

وهكذا اتجه نحو مدينة فاس ومع وصوله إليها، تبدأ مرحلة جديدة في حياته قدرت نحو أربعين سنة، قضاها في المغرب الأقصى، في مواطن مختلفة منه، يعيش للعلم يطلبه[1]

وتقع هذه الفترة في عهود ثلاثة من سلاطين بني مرين: أبي الربيع سليمان بن عبد الله أبي عامر الذي ولى المغرب ما بين 708هـ- 716هـ، وأبي سعيد، عثمان بن عبد الحق الذي خلفه، والتي امتدت ولايته إلى 731هـ وابنه أبي الحسن علي إلى أن مضى معه، سنة 748هـ، إلى إفريقة[2].

وكان فرار الآبلي من تلمسان متجها إلى المغرب الأقصى، تاركا ما أسنده إليه أبو حمو من وظيف، قد أغضبه وجعله يرسل في طلبه وخاصة بعد تحسن العلاقات بين تلمسان وفاس، بمعاهدة السلام التي عقدها أبو الربيع معه، فكان على الآبلي أن يبحث على ملجأ يلجئ إليه

---

[1]- أنظر: التعريف بابن خلدون، ص 37، ابن مريم البستان، ص 215، يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص 147، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 94.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص 38، ابن مريم:المصدر السابق، ص 215، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 18، ابن مرزوق، المصدر السابق، ص148.

ويتوارى فيه، حتى يهدأ الطلب. فاتخذ من دار رجل من يهود فاس هذا الملجأ وهذا الرجل هو (خلوف المغيلي)، الذي يصفه ابن خلدون، أنه شيخ التعاليم بهذه المدينة[1].

وربما الأسباب التي قادت الآبلي إلى هذا اليهودي، هو ما كان لليهود عامة في فاس من منزلة ظاهرة لدى القصر. وهي منزلة بلغوها منذ أيام السلطان يوسف بن يعقوب.

فقد كان (خلوف المغيلي)، بانتمائه إلى هذه الطائفة التي تملك الدهاء والحنكة والحذر ما يجعلها تحكم التدبير وتحسن التأتي للأمور، والذي يتمتع بهذه المنزلة، جديرا أن يوفر له من الأمن والطمأنينة ما يرجوه، وأن يحميه من ملاحقة أبي حمو له. ثم هو فوق هذا جدير أن يهيئ له بأستاذتيه في فنون التعاليم في مقامه بداره، من الجو العلمي ما يتطلع إليه، إذ يستطيع أن يتابع عليه دراسة هذه الفنون التي استهوته وشغفته، وتدعوه، في إلحاح، إلى مواصلة درسها ومعالجة قضاياها.

ومن فاس اتجه إلى مراكش وربما يكون أكثر أمنا وأوفر طمأنينة، وأن يتجنب ما كانت تضطرب به فاس وما حولها من فتن، أواخر عهد السلطان أبي الربيع سنة 710هـ. والسبب الأوفر هو أن يتوغل أكثر في درس فنون التعاليم على شيخها أبي العباس بن البناء، الذي

---

[1]- أنظر: التعريف بابن خلدون، ص 87، ابن مريم: البستان، ص 215، يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 17، المقري: نفح الطيب، ج5، ص 244، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 94.

يجمل ابن خلدون صفته في قوله عنه: " شيخ المعقول والمنقول، والمبرز في التصوف علما وحالا[1].

ولكن إذا كان مجلس ابن البناء قد أفاض على الآبلي من طمأنينة النفس وسكينة الضمير ما هو في حاجة إليه، فإن مراكش نفسها لم تلبث أن أخلفت ظنه حيث بدأت تضطرب، في السنوات الأولى من عهد السلطان أبي سعيد من حركات مناهضة له متمردة عليه. وكان يتولى هذه الحركات بعض العساكرة المقيمين بها.

وكان هذا الوضع لا يتفق مع طبيعة الآبلي، الوادعة، وحاجته إلى السكينة والطمأنينة، والبعد عن كل ما يعكر الصفو ويبعث القلق.

لقد حققت له مراكش ما كان يرجوه، من لقاء ذلك النموذج الإنساني الرائع، متمثلا في ابن البناء، والجلوس إليه ليمتع عقله ووجدانه بأحاديثه، وينير بصيرته ليتدارك ما فاته من فنون المعرفة المختلفة، وخاصة العلوم العقلية[2].

وبعد الدعوة التي وجهها له شيخ العساكرة بالجبل، علي بن محمد بن ترواميت، فلم يتردد الآبلي في قبول دعوته، ليكون في منأى عن الفتن، وليغمر نفسه بالسكينة ويوفر له الجو الملائم للدرس والتأمل والنظر، فصعد إليه، وأقام عنده مدّة قرأ عليه فيها، فحقق الآبلي ما

---

[1]- أنظر: التعريف بابن خلدون، ص 37، ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص 147، يحي بن خلدون: البغية، ص 17، ابن مريم، البستان، ص 215، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 95، المقري: نفح الطيب، ج5، ص 244.

[2]- أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص 37، 215، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 17، ابن مريم: المصدر السابق، ص 215، المقري: المصدر السابق، ج5، ص 244، الحفناوي، المصدر السابق، ج1، ص 95.

كان يرجوه من هذه الدعوة، ولقي حضوة كبيرة عند ابن ترروميت، ومودة صادقة، ورغبة في التحصيل، أثلجت صدره ورفعت من شأنه بين أبناء الجبل، فأقبل عليه طلاب العلم يجلسون إليه ويأخذون عنه العلم. وتبوأ مكانه للمرة الأولى، بعد عهد الشباب في تلمسان، أستاذا كبير المنزلة، ذائع الصيت، وبذلك نعتبر تحول الآبلي إلى الجبل ومقامه به يعد معلما من معالمه البارزة ذات الأثر البعيد في مسيرة حياته العلمية[1].

وهذا يؤكده يحي بن خلدون في كتابه (البغية)، عن هذه الفترة من حياته إذ يقول منوها باتجاهه العلمي، ومنزلته بين علماء عصره: "واستقر بجبال الهساكرة، عند على محمد بن ترروميت، وكان طالبا للعلم، جماعا للكتب، فعكف عنده على النظر، إلى أن أفاق أهل زمانه في العلوم العقلية بأسرها، حتى إني لا أعرف، بالمغرب وإفريقية فقيها كبيرا إلا وله عليه مشيخة"[2].

ومهما يكن من أمر، فقد كانت إقامته هذه في الجبل، بعيدا عن الفتن وأسباب القلق التي كانت تضطرب بها مراكش، والحفاوة التي تلقاها من أهله، وما حققه لنفسه من تحصيل للعلم، ترشيحا لإقامته بعد ذلك في فاس، مركز الحياة العلمية في المغرب الأقصى، وأحد

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ،ج7، ص 37، ابن مريم: البستان، ص 215، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 94.
2- يحي بن خلدون: البغية، ج1، ص 120.

المراكز الكبرى في المغرب الإسلامي، والعالم الإسلامي أستاذا موفورا الجلال، تعرف الدولة قدره، ويسعى إليه أهل العلم وطلابه من كلّ جهة[1].

وأخيرا يغادر الجبل ضمن خطة رسمتها الدولة إزاء المساكرة للقضاء على فتنهم التي يثيرونها عليها، ومن هذه الخطة أن تستنزل شيخهم المقيم بالجبل، على بن ترومیت، لتقيمه معها في فاس محترما ويمكن مراقبته بعيونها، فنزل ومعه الآبلي.

ها هو ذا يعود إلى فاس من جديد أستاذا ناضج الشخصية، ثابت القدم، في العقد الرابع من عمره، "فانهال عليه طلبة العلم من كلّ جهة، فانتشر علمه، واشتهر ذكره"[2].

واستقر بفاس للتدريس، وقد أصبحت مجالسه مهوى قلوبهم.

وتخرج عنه أجيال من أهل العلم على مستوى المغرب الإسلامي كلّه، ومن هؤلاء الذين تخرجوا عليه في هذه الفترة من مبارزا من الأعلام المرموقين الذين يحتلون في الحياة العلمية مكانا رفيعا، كأبي عبد الله محمد بن محمد بن الصباغ[3]، وقد ذكره ابن خلدون في التعريف به: إنه " من أهل مكناسة، كان مبرزا في المنقول والمعقول، وعارفا بالحديث ورجاله، وإماما في معرفة كتاب الموطأ وإقرائه، أخذ العلم عن مشيخة فاس ومكناسة، ولقي

1- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 37؛ يحي بن خلدون: الوفية، ج1، ص 120.

2- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص 37؛ ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 215؛ الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 94.

3- هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصباغ، مكناسي الأصل، كانت له معرفة جيدة بعلم الحديث، وكان متضلعا في التعاليم، أخذها عن الآبلي، توفي أيضا أثناء غرق أسطول أبي الحسن المريني قرب ساحل تونس.

شيخنا أبا عبد الله الآبلي ولازمه، وأخذ عنه العلوم العقلية، فاستنفذ طلبه عليه، واختاره السلطان لمجلسه، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقا في ذلك الأسطول"[1].

وقد بدأت صلة الآبلي بالسلطان منذ عهد أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب المريني، ولكن على وجه غير ذلك الوجه الذي أريد له غير مرة، فأثار كراهيته ونفوره وفراره نحو المشرق مرة ونحو المغرب مرة أخرى.

إنها اليوم صلة العلم، منذ أن اختاره السلطان أبو الحسن لعضوية المجلس العلمي [2]، الذي أراده أن يتألف من صفوة العلماء، وكان اختيار أبي الحسن له فور عودته، سنة 737هـ، من الحملة التي قادها لفتح تلمسان، وبعد أن حقق نصره، دخل تلمسان واستدعى إليه شيوخ الفتيا فيها، فكان ممن وفد عليه "الإمامان الشهيران، أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى، ابنا الإمام".

وكان ثانيهما أستاذ الآبلي في تلمسان حين عاد إليها من المشرق، واستأنف فيها حياة الدرس. فإذا كان الحديث بين أبي الحسن وبينه حول مشروع المجلس العلمي الذي كان يراوده ويدور في خاطره، تذكر تلميذه الآبلي، فلم يلبث أن ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتقدم في العلوم، ولهذا بمجرد عودته إلى المغرب استدعاه من مكانه بفاس وألحقه في طبقة

1- عبد الرحمن بن خلدون، ، العبر،ج7، ص 46.

2- أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر، ص 37، ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان،ص 215، ابن مرزوق:المسند الصحيح ، ص 147، المقري: نفح الطيب، ج5، ص 244، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 94.

العلماء، بمجلسه، ولهذا فحديث أستاذه ابن الإمام عنه هو الذي رشحه لعضوية هذا المجلس، وهيأ له الصلة بينه وبين السلطان أبي الحسن[1].

ومنذ ذلك لازم صحابة أبي الحسن حتى أنه حضر معه واقعة طريف. وهي الواقعة التي حدثت سنة 740هـ، حيث انهزم فيها سنة 741هـ.

وعندما اعتزم أبو الحسن بعد ذلك بسبع سنين أن يمضي إلى إفريقية كان الآبلي معه في مسيرته بين أعضاء مجلسه[2].

وانتهت بذلك هذه المرحلة التي نازهت الأربعين عاما، واعتبرت مرحلة مقاومة في المغرب، بين فاس ومراكش وجبل الهساكرة، ومن هذا السياق نرى أن المغرب الأقصى كان كبير الأثر في إنضاج شخصيته، وإبراز ملامحه، وتقوية نوازعه، لا بمن كان يضمه من العلماء وأهل الفكر، ولا بما تحول إليه فيه من أستاذية مرموقة، ولا بما أصاب فيه من شهرة ذائعة وصيت بعيد، ولا بما كان له أن يصبح عضوا كبير المكانة في المجلس العلمي الذي شكله السلطان أبو الحسن، فحسب بل ساعده المغرب أن يطلع على ما كان يضمه من ميراث الأندلس وذخائره، وقد وجد الآبلي بنوازعه العلمية، ومزاجه العقلي، وتطلعه إلى آفاق المعرفة المختلفة في فاس زادا عقليا متجددا يمد حاجاته الروحية والعلمية.

1- عبد الرحمن بن خلدون، ، العبر،ج7، ، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 94، ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان، ص 515.

2- أنظر: التعريف بابن خلدون، ص 38، ابن مريم، المصدر السابق، ص 215.

وبعد هذه المرحلة الطويلة الحافلة في حياة أبي عبد الله الآبلي بدأت مرحلة أخرى بمضي السلطان أبي الحسن إلى تونس، مستصحبا بمجلسه العلمي، وكان الآبلي ضمنه، بل أبرز أعضائه وأوثقهم بالسلطان صلة.

ومنذ أن بلغ تونس، سنة 748هـ، وقعت صلته بآل خلدون، و لم تلبث هذه الصلة أن توثقت، وكانت هي التي مهدت لابن خلدون سبيله إليه، فاتخذه أستاذا له، فكان من اخلص تلاميذه وأصدق مريديه.

وقد قال في هذا الشأن ابن خلدون: " ...وكانت قد حصلت بينه وبين والدي، رحمه الله صحابة كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه. فلزمت مجلسه، واتخذت منه، وافتتحت العلوم العقلية بالتعاليم، ثم قرأت المنطق وما بعده من الأصليين، وعلوم الحكمة. وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب. وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا فأشرنا عليه بالمقام، وثبطناه عن السفر، فقبل وأقام.

وطالبنا به السلطان أبو الحسن، فأحسنا له العذر، وتجافى عنه. وكان من حديث غرقه في البحر ما قدمناه. وأقام الشيخ بتونس، ونحن وأهل بلدنا جميعا نتساجل في غشيان مجلسه والأخذ عنه"[1].

وما يمكن استخلاصه من كلام ابن خلدون:

[1]- أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: العبر،ج7، ص 38.

- نشاطه العلمي في هذه المرحلة، مجالس العلم التي كانت تتميز بقوة الجاذبية بحيث كان أهل تونس جميعا يتساجلون في غشيانها.
- وكان نشاطه العلمي الأول اهتمـــامه بالعـــلوم العقلية (التعاليم والمنطق وعلوم الحكمة).
- وقد أتاح له هذا الجو العلمي بروز نزعته العلمية ومؤاثراته البقاء بين تلاميذه على أن يصحب السلطان في رحلته عن مغادرته إفريقية وتكليف تلاميذته بالإعتذار عند السلطان بدله.

وبانتهاء عهد أبي الحسن بغرق الأسطول الذي أراد أن يعود به من إفريقية إلى المغرب، بعد موقعة القيروان، بدأ عهد جديد بقيام ابنه أبي عنان بالأمر من بعده، ومسيرته إلى تلمسان ليستردها من بني عبد الواد حتى تم له ذلك سنة 753هـــ، فقد كان أول ما عني به استقدام أبا عبد الله الآبلي من إفريقية، ليأخذ مكانه في مجلسه العلمي، وقد بلغ حرصه به، أن جعل دعوته أياه في كتاب خاص بعث به إلى السلطان تونس، أبي إسحاق الحفصي، يستأذنه في استقدامه إليه، مع رسول خاص، كما وجه إليه أسطوله الخاص ليعود به[1].

هذا بالإضافة إلى ما كانت تثيره تلمسان في نفسه من روح الحنين.

[1]- أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: العبر،ج7، ص 38- 39، ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان، ص 215، ابن مرزوق: المسند الصحيح ، ص 148، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 95.

فهذه المدينة هي مسقط رأسه ومسرح صباه وشبابه، ومبعث ذكرياته، وإن كان قد خرج منها مرتين خائفا يترقب، فارا بنفسه من عمل يراد إكراهه عليه، لأن طبيعته تأباه، فإنه بعودته، يعود إليها وقد حقق ما كان يداعب أحلامه منذ كان في كفالة جده، عالما مرموقا، لا يشغله شيء غير العلم، يردد المغرب الإسلامي كله اسمه، ويتطلع طلاب العلم الجلوس إليه والتعلم عنه.

وهكذا غادر الآبلي تونس، وينهي بذلك هذه الفترة من فترات حياته ويترك تلاميذه يتأسفون خاصة عبد الرحمن بن خلدون، ويمضي مع رسول السلطان في الأسطول الذي يتجه به إلى تلمسان.

وبمجرد وصوله تلمسان وقدومه على السلطان أبي عنان فقد أحله محل التكريم والإحترام، وضمه في طبقة أشياخه من العلماء. وقد بقي بتلمسان ببقاء أبي عنان فيها، ورحل عنها برحيله إلى فاس، فاستأنف فيها حياته العلمية، إلى أن وافاه أجله، سنة 757هـ، عن سن يناهز 76 سنة[1].

[1]- ذكر ابن مرزوق في المسند، أنه توفي في حدود 756هـ ودفن ما بين المدينة البيضاء وفاس وحضر السلطان جنازته، راجع المسند، ص 147.
أما ابن خلدون، فيذكر أنه توفي سنة 757هـ، راجع التعريف، ص 39.
أما يحي بن خلدون، فقد ذكر في بغيته، أنه توفي بفاس، سنة 757هـ، في شهر ذي القعدة.

مكانة الآبلي العلمية:

كان الآبلي على حد تعبير المقري الجد من الصدر الأول من العلماء أي من العلماء الذين يفرون من السلاطين وهم يطلبونهم. لقد فرّ الآبلي من السلطان يوسف المريني ثم من السلطان أبي حمو موسى العبد الوادي ذلك لأنهما رغبا في إستغلال مهاراته وكفاءته لمصلحة السلطة. وإذا كان قد لازم مجلس أبي الحسن المريني وابنه أبي عنان فلأنهما مكناه من القيام لما كان يرغب فيه، من تبليغ المعرفة لمن يرغب فيها، لقد آمن أن للعالم رسالة هو مرغم على تأديتها تأدية كاملة لجيله، رسالة من شأنها إبقاء شعلة العلم قائمة ومضيئة ولتنفيذ خطته انصب اهتمامه على التعليم، فالتعليم في نظره وفي نظر العديد من العلماء المسلمين السابقين عنه واللاحقين به هو أنجع وسيلة لتأدية الرسالة المنوطة بالعلماء.

وقد وصف الآبلي بالرجل الفطن، الكثير الإطلاع، والحفظ[1] والبارع في حل الألغاز وتصويب التصحيف.

طرق التعليم عند الآبلي:

يفرق الآبلي بين مستويين في التبليغ، هناك منهجية خاصة بالحلقة ومنهجية خاصة بالمشافهة، فالأولى موجهة للعامة من المتعلمين والثانية تستخدم عند توجيه الخطاب للنوابغ من المتعلمين.

1- المقري: نفح الطيب، ج7، ص 245، أنظر: نفس المصدر، ص 246، نيل الإبتهاج: لأحمد بابا، ص 419، البستان لابن مريم، ص 216، تعريف الخلف، برجال السلف، للحفناوي، ص 105.

أ- منهجية الحلقة:

استعمل فيها الآبلي الطريقة الإلقائية ويشترط على المتعلم سلوكا ضابطا لسير الدرس.

وتتضمن هذه الشروط من جهة أخرى إصغاء المتعلم لما يتلفظ به المعلم والتركيز كلية عليه، طريقة تسير للمعلم التحكم في سيرورة الدرس من جهة أخرى، فهي تفرض على المعلم التحضير المسبق والدقيق لما يلقيه على طلاب العلم، وهو بذلك لا يدع مجالا للصدفة والارتجال.

وكانت طريقته في معالجة المواضيع ترتكز على إلقاء محاضرة، وكان يصوغ المعلومات في قالب حواري وفي إطار منهجي واضح ييسر الفهم: فهو يطرح الأشكال، ثم يضع الفروض، ثمّ يحلل حتى يتسنى له تبني موقفا.

فكان الآبلي بهذه الطريقة يثير اهتمام المتعلم فيتتبع الدرس بكل تفاصيله دون كلل، وهو بذلك يقضي على سلبية الطريقة من حيث عدم مشاركة المتعلم خلال الدرس.

إن الآبلي استدرك هذا النقص بتقديم المعارف كبناء فكري، وهو الأمر الذي جعل المتعلم عنصرا يشارك في الدرس بكل قدراته العقلية، وبكل جوارحه ما عدا لسانه وصوته.

ب– منهجية المشافهة[1]:

أما عند المشافهة فترتفع رتبة المتعلم ويصير خلالها عنصرا نشيطا يشارك في سيرورة الدرس ليس بأمثلة، بل بأجوبة وحله المسائل المطروحة، فهو يبني معارفه. وقد سمحت له هذه الطريقة من النفاذ إلى عقول وقلوب طلاب العلم النجباء وذلك حسب استعدادهم، ثم العمل على تنمية ملكاتهم في مواد معينة [2].

موقفه من التأليف وبناء المدارس:

إن الآبلي وعلى غرار علماء عصره الذي نهل من معارفهم، يرفض التأليف الذي لم يقدم جديدا للقارئ. يرفض الآبلي ما سماه هو بتقييدات الجهلة، فإذا كان التأليف ينطلق من مبدأ نقدي، اشتراط الإجتهاد والعمل بموجب الرؤوس الثمانية [3].

أما موقفه من المدارس[4]، فهو لا يرفض المؤسسة التعليمية في حدّ ذاتها، وإنما يرفض المنطلقات السياسية التي من أجلها بنيت هذه المدارس. لقد لاحظ الآبلي أن السلطة المؤسسة للمدارس تخول لنفسها حق توجيهها، في حين يرى الآبلي أن طلب العلم منزه عن أهواء ذوي السلطان ما عدا سلطان العقل. إن غاية المدرسة لا تلبي الحاجات الآنية للسلطة بل عليها أن توثر في المجتمع قصد البناء الحضاري.

1– تعني المشافهة تقديم معلومات ومعارف ذات مستوى عال لشخص واحد، ويرادفها لفظ أسرة أي قدم أسرار علمية لمن يستحقها.

2–المقري: نفح الطيب، ج7، ص 288.

3– كان عادة القدماء من المعلمين أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل انفتاح كل كتاب، وهي: الغرض، والعنوان، المنفعة، المرتبة، وصحة الكتاب ومن أي صناعة هو وكم فيه من أجزاء وأي أنحاء التعاليم فيه.

4– المقري: المصدر السابق، ج7، ص 272.

فالتعليم المرفوض عند الآبلي هو الذي يهدف إلى تعميم مفاهيم معينة، وبث قوالب فكرية لا تعمل على إيقاظ الهمم بل روضت المتعلم على تنفيذ ما أمر به[1].

كما لاحظ الآبلي أن بناء المدارس تزامن في غالبيته مع بداية الجمود الفكري في العالم الإسلامي، وهي بذلك وسيلة دعائية في أيدي السلاطين، أكثر منها أداة للنضج والنبوغ الفكري.

آثار الآبلي:

يمكننا الجزم أن الآبلي لم يصنف في علم من العلوم التي كان يتقنها، كما أنه لم يعثر عن تقييد أخذ عنه، لأن أسلوبه التبليغي لا يساعد على التقيد، فهو لا يملي الدرس ويرفض أن يقاطع أثناء الأداء. وهكذا يمكن لذي بصر ناقد أن يستشف بصمات الآبلي في مؤلفات تلاميذه المباشرين وعلى رأسهم عبد الرحمن بن خلدون، فيروي ابن خلدون، أهم خبر عن يغمراسن بن زيان، خبر وصيته لولي عهده – عن لسان الآبلي –.

من هذا المنظور ليس فقط صاحب فضل على تلاميذه النجباء، إذ أنهم وبفضله تمكنوا من المساهمة الفعالة في التراث المشترك للإنسانية.

---

[1]- ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان، ص 299.

إن المتأمل في تاريخ المغرب الأوسط خلال القرون التي دامتها دولة بني زيان يرى أن تأسيس الدولة الزيانية في الحقيقة كان من صنع رجل واحد من أعلام زناتة، و هو يغمراسن ابن زيان الذي نحت لنفسه و لآله إمارة كبيرة قامت في تاريخ المغرب الإسلامي بدور كبير.

فهذا الرجل هو الذي إستطاع أن يوسع لبني زيان مكانا فسيحا في تاريخ المغرب باستيلائه على تلمسان وتحصينه إياها و إقتداره على مقاومة بني مرين و بني حفص و من فكر في العدوان على إمارته، و هذا الرجل هو الذي أنشأ القوة الإقتصادية لدولته بسياسته الذكية وبعث في كيانها روح الثبات و المقاومة و الصبر، تلك الروح هي التي مكنت للبيت الزياني من البقاء هذا الأمر الطويل.

و لكن هذا لا يعني أن تأسيس هذه الدولة يعود أساسا إلى مهارة منشئيها و لا إلى صلابة بنيان الأسرة التي أقامت الدولة و من أيدها من القبائل الزناتية و العربية، و إنما يعود إلى حصانة الموقع و قدرة هذا الموقع على مقاومة عوامل الإنهيار.

فهي في موقع وعر يحكم الطريق من قلب الصحراء إلى البحر و قوافل التجارة لا بد أن تمر بها و الهضبة التي تقوم عليها تزيد من مناعتها، و السهل المحيط بها يقدم لها موارد العيش في وفرة.

لم يوظف في قيامها حركة مذهبية إصلاحية، كما فعل عبد الله بن ياسين المرابطي والمهدي بن تمرت الموحدي.

لعل فترات الهدنة مع بني مرين، التي تطلع إليها يغمراسن و أوصى أولاده بها كانت نتيجة تجارب حربية و معطيات استخبارية دقيقة عن قوة العدو، و أن علاقتهم بالجارة

الشرقية و الجارة الغربية، غلب عليها طابع التوتر و العداء في جميع مراحلها مما حتم على بني زيان حياة المقاومة المستمرة.

و قد تمكن بنو زيان خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي من المحافظة على حدودهم، و إنتقلوا من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، و أصبحوا يهددون بني حفص في عقر دارهم، و خاصة في عهد كل من أبي حمو موسي الأول و أبي تاشفين عبد الرحمن الأول اللذين أخرجا قبيل بني زيان من طور البداوة إلى طور التمدن.

وهناك من المؤرخين من يقلل من شأنها ولا يرى أنها أضافت إلى تاريخ المغرب العام شيئا كبيرا.

ولكن الحقيقة أن هذه الإمارة أحيت المغرب الأوسط وعمرته، و يعود لها الفضل في تمدين الكثير من بلاد المغرب الأوسط مثل: مرسى هنين ، المدية، ندرومة، وجدة، مدينة الجزائر، نفسها. و بذا تعتبر دولة بني زيان من أهم الدول التي كونت الماضي الحافل لهذا البلد، ويكتفي أن نذكر أنها هي التي أعطت المغرب الأوسط حدوده التاريخية.

لقد كان تاريخ بني زيان على طوله تاريخا عسكريا كله حروب ومنازعات ومكائد وقد درب أمراء بني زيان على العيش في ذلك الجو المضطرب، فكانوا هم بدورهم لا يترددون في التدخل في شؤون جيرانهم وإعانة بعضهم على البعض، وكانت هذه السياسة جزءا من وسائل بني زيان في المحافظة على بقائهم، وكان بقاؤهم عسيرا زاد في عسره أن الحفصيين والمرينيين جميعا ينكرون إمارة بني زيان ويدعون الحق في ضمها إلى بلادهم.

ولقد حاولت إبراز طبيعة العلاقات السياسية المغاربية للدولة الزيانية خلال الفترة المعالجة، وقد قامت هذه العلاقات في محاولة كل دولة من دوله فرض نفسها في المنطقة فكان

التنافس بينها قويا وهو ما جعل يغمراسن يهتم بتأمين دولته الفتية في ظل الحروب المتصلة والقتال المستمر، ولذا يمكن القول أن علاقات دولة بني زيان في عهد يغمراسن وفي عهد خلفائه قد غلبت عليها الناحية العسكرية، غلب طابع الصراع القوي و المستمر في العلاقات السياسية بين يغمراسن وجيرانه الحفصيين، فكلاهما كان يحاول ضم أكبر قسم من التركة الموحدية، لذلك ظلت علاقتهما يكتنفها الشك والريبة منذ الوهلة الأولى.

وأعتقد أن أحسن ما يؤكد طبيعة العلاقات الزيانية الحفصية موقف الزيانيين من الحفصيين إلى نهاية عهد يغمراسن بن زيان في وصيته لإبنه وخليفته عثمان والذي يدعوه فيها بالتوسع شرقا.

ولذا يمكن القول أن سياسة الزيانيين مع الحفصيين كانت في أغلب فتراتها صورة من الصراع الدائم، وذلك لاختلاف أهداف كل طرف منهما حيث كان يغمراسن يريد التوسع شرقا وبني حفص يريدون التوسع غربا، إلا أن هذا الصراع سرعان ما هدأ نسبيا ويظهر ذلك في الاتفاقيات بين يغمراسن وبني أبي حفص ، وكذلك في ربط الصلة معهم عن طريق المصاهرة وفي الهدايا المتبادلة والسفارات.

أما طبيعة العلاقات الزيانية المرينية فقد طبعت بطابع العداء المستمر، حيث أن كل واحد منهما كان يعتبر نفسه الوارث الشرعي والحقيقي لتراث الموحدين، لذا كانت تحدوهما رغبة في التسلط والزعامة على البلاد التي كانت في حوزة الموحدين من قبل.

ولكن نظرا لهزائم يغمراسن المتكررة من قبل المرينيين نجده يوصي إبنه وولي عهده عثمان قبل وفاته، بعدم التعرض لبني مرين أو التحرش بهم، والعمل على مسالمتهم وإبرام المعاهدات السلمية معهم.

– أما علاقات الزيانيين مع بني الأحمر فتعود إلى خشيتهم من ازدياد النفوذ المريني في الأندلس وبالتالي ضياع عرشهم وكيانهم، لأن الانتصارات التي حققها المرينيون في الأندلس أقلقت كثيرا بني الأحمر الذين خافوا من أطماع السلطان المريني، ولذلك عملوا على ربط صلاتهم ببني زيان لمعرفتهم بالعداوة التقليدية بين الطرفين، وتعدد المعارك بينهم، وأقاموا معهم علاقات مودة، تمثلت في قيام بني الأحمر بإرسال الهدايا والأموال إلى بني زيان حتى يشغل عنهم خطر بني زيان.

– أما في الميدان الفكري فقد ظلت العلاقات الفكرية بين أجزاء المغرب الإسلامي في نمو مطرد خلال هذا العصر.

فكانت بجاية وتلمسان ومراكش وفاس حواضر للاشعاع الفكري وظل هذا الوضع قائما حتى في أحلك أوقات الصراع السياسي وأزمنة القطيعة التي كانت تظهر هنا وهناك لأسباب سياسية أو عقدية.

وقد أدى هذا الاتصال والتبادل العلمي والفكري بين أقطار المغرب الإسلامي إلى قيام بيئات فكرية وخاصة بعد هجرة بعض الأسر الأندلسية إلى القيروان وبجاية وتلمسان ومراكش وفاس، وقد ظلت تلمسان طيلة هذه الفترة تستقطب العلماء، وتتجه نحو النمو الفكري والحضاري المطرد.

وهذا يعود إلى جملة من العوامل المستمدة من البيئة وواقعها المادي والبشري.

فقد تميز بنو زيان بعنايتهم بالفكر والعلم ورعايتهم للآداب والعلوم والفنون وتقديرهم لأصحابها، وإحتضانهم لصفوة العلماء والأدباء والفقهاء والوافدين من حواضر المغرب الإسلامي، وتوفير المناخ المناسب للبحث، والتحصيل والإبداع، وأغدق السلاطين عليهم

المنح والعطايا السخية وقربوهم إلى البلاط وأدمجوهم في مجالسهم، وكان للرحلة العلمية دورها البارز في تكوين العلماء وتوسيع معارفهم، وتوطيد الروابط الفكرية وتواصلها بين حواضر المغرب الإسلامي.

وقد وفر هذا وجود تيارات فكرية كان لها صدى في عقول الفئات المثقفة فاهتموا بالتصوف واعتنوا بدراسة القرآن وتفسيره وبالحديث عناية كبيرة، وتوسعوا في دراسة اللغة العربية و لم يهملوا العلوم العقلية، فكانت هي الأخرى لها مكانتها بين علماء تلمسان، فأثروا بذلك الحياة الفكرية ودفعوا بهذه العلوم نحو الازدهار ونبغ فيها العديد، تميزوا بعمق التفكير وغزارة التحصيل، ساهموا في الحركة الفكرية والعلمية في حواضر المغرب الإسلامي.

الملاحق

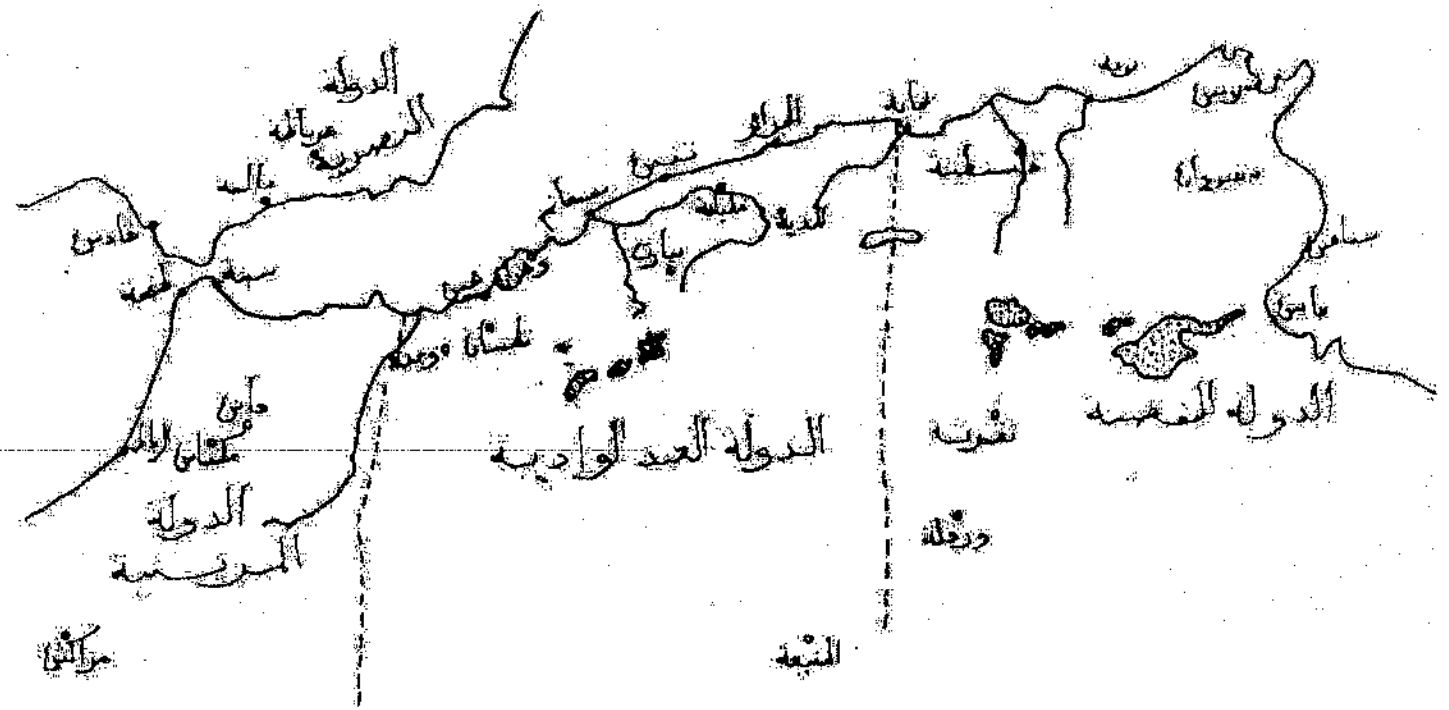

دول المغرب الإسلامي
ما بعد الموحدين

---- حدود الدول
—— الأودية

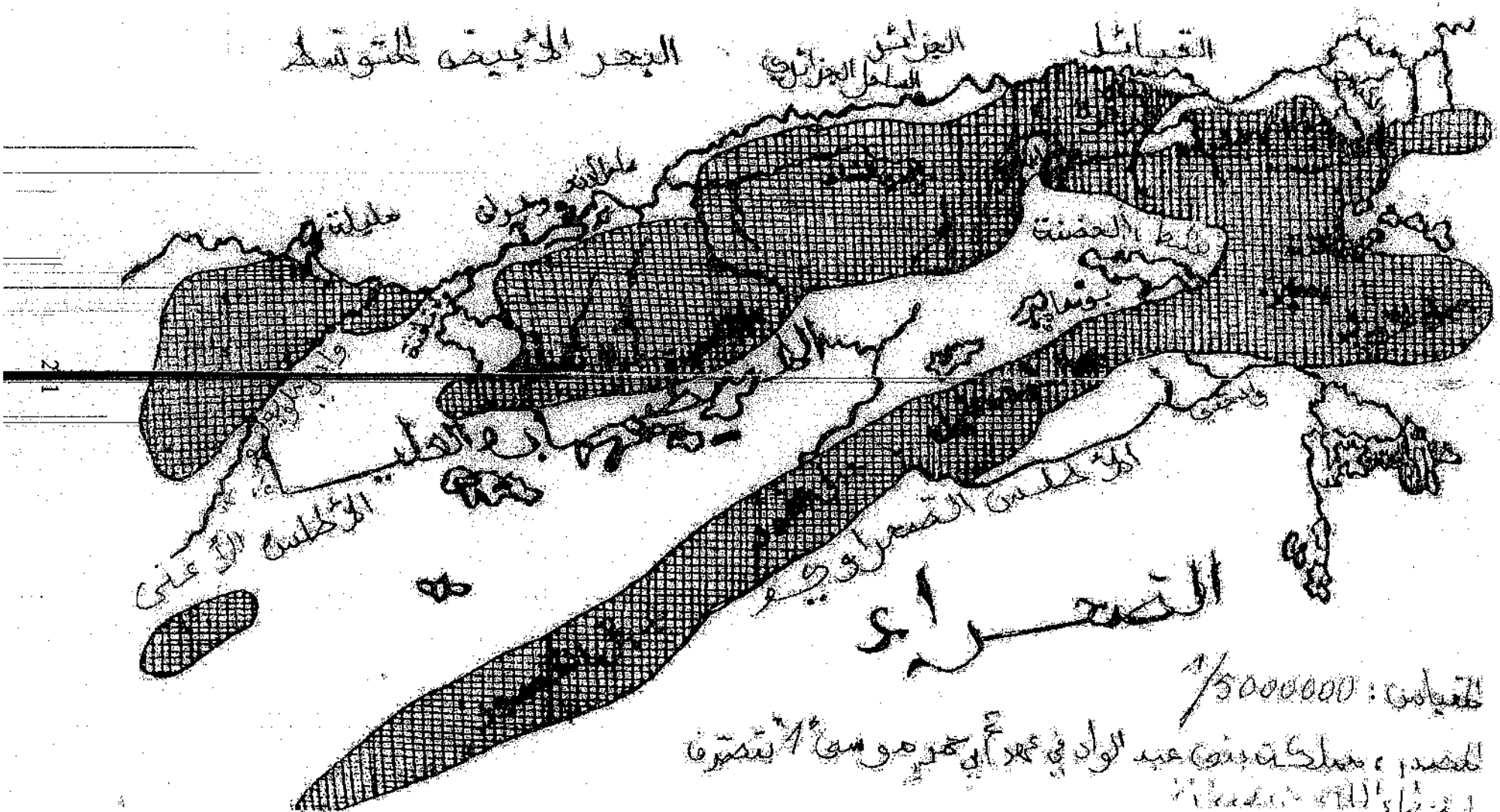

المقياس: 1/5000000

المصدر: مملكات بنو عبد الواد في عهد أبي حمو موسى الأول تتحرف

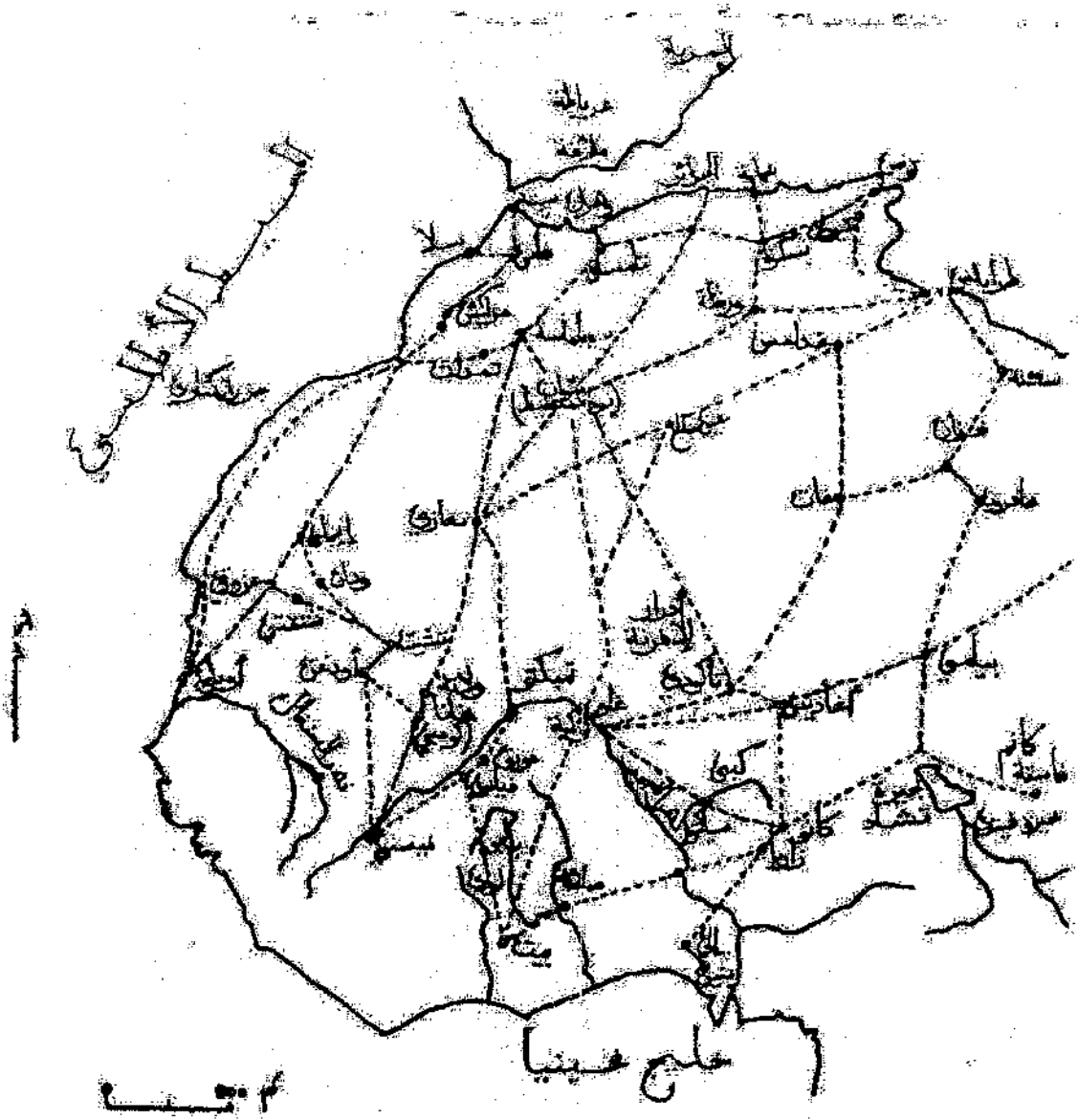

الطرق التجارية عبر الصحراء في القرون الوسطى.

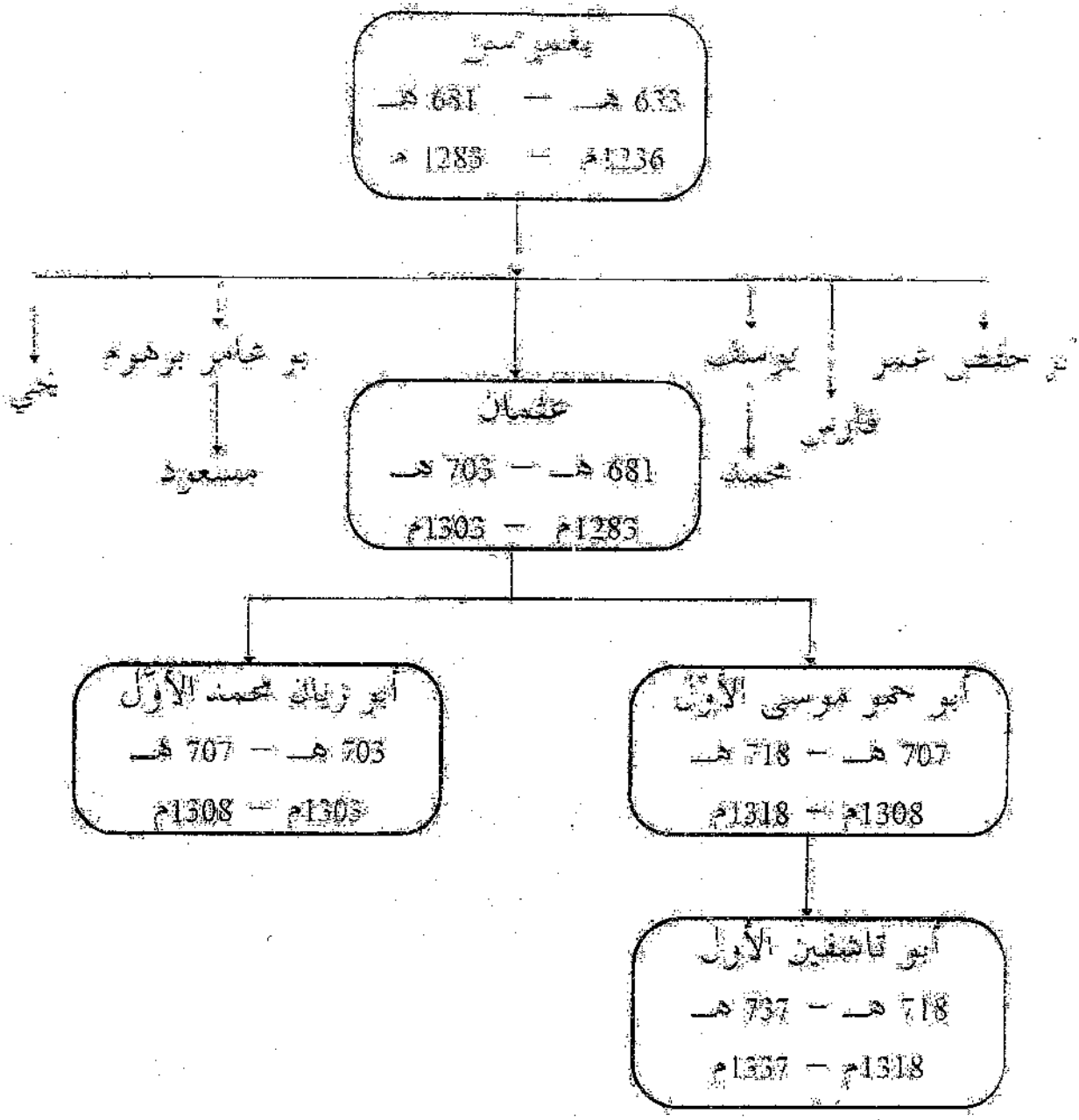

سلاطين الدولة العبد الوادية في دورها الأول

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

1/ المصادر العربية:

أ- المصادر المخطوطة:

- **ابن ادريس محمد رضا:**

- المقالة المرومة في الرحلة إلى تلمسان وندرومة، الخزانة الحسنية الرباط، تحت رقم:12236

- **ابن الخطاب، أبو بكر الأندلسي: (ت 686هـ-1287م)**

- فصل الخطاب في نثر أبي بكر بن الخطاب، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط رقم د. 373.

ب- المصادر المطبوعة:

- **ابن تومرت : محمد المهدي:**

- أعز ما يطلب تقديم و تحقيق عمار طالبي المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985.

- **ابن الأحمر: أبو الوليد إسماعيل (ت810/1408).**

- روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور مطبوعات القصر الملكي، المطبعة الرباط 1962/1382.

- **ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي (ت765/1355).**

- رحلته المسماة تحفة النضال في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار جزءان، حققه و قدم له و علق عليه، على المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر والتوزيع بيروت 1985.

• **ابن أبي دينار: أبو عبد الله الرعيني(ت1110/1699):**

– المؤنس في أخبار افريقية و تونس، 1967.

– ابن أبي زرع: علي بن عبد الله الفاسي: – ت 627هـ– 1326م

– الأنس المطرب بروض القرطاس في أخبار و ملوك المغرب و تاريخ مدينة فارس، تحقيق و طبع دار المنصور للطباعة و الرواقة الرباط 1973.

• **ابن الخطيب: لسان الدين(ت766/1374).**

– الإحاطة في أخبار غرناطة حققه و قدم له محمد الله عنان، دار المعارف بمصر بدون تاريخ.

– أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام و ما يجر ذلك من شجون الكلام، تحقيق أحمد مختار العبادي و محمد الكتاني، دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

• **ابن خلدون: أبو زكريا يحي بن محمد (ت780/1378).**

– بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (جزءان) نشره و ترجمه الفريد بل مطبعة غرناطة الجزائر 1903–1910.

– بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر1980.

• **ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن عمر (ت808/1405).**

المقدمة، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر بيروت1968.

- **ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405).**

– كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزءان السادس و السابع، طبعة بيروت 1968 و طبعة بولاق 1870.

– التعريف بابن خلدون رحلته غربا و شرقا،عارضه بأصوله و علق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي لجنة التأليف و الترجمة و النشر و القاهرة1951

- **ابن خلكان أبو عباس أحمد بن محمد (ت681ه/1283).**

– وفايات الأعيان و انباء أبناء الزمان (8) أجزاء تحقيق إحسان عباس مطبعة الغرب بيروت 1968.

- **عبد الوهاب بن منصور:**

– المنتخب النفيس في شعر أبي عبد الله بن خميس، ابن خلدون تلمسان1365هـ

- **ابن رزين التجيبي:**

- فضالة الخوان في طيبات الطعام و الألوان صور من فن الطبخ في الأندلس و المغرب في بداية عصر بني مرين. حققه و قدم له، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي بيروت1984.

- **ابن سجون احمد الراشدي:**

– الثغر الجماني في ابتسام الثغر المهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي مطبعة البعث قسنطينة 1973.

- **ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله (ت276ه/889م):**

– فتوح افريقية و الأندلس حققه و قدم له عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر بيروت1964.

- **ابن عذاري: أبو العباس أحمد المراكشي (ت ق 5ه/11م).**

– رسالة في القضاء و الحسبة، نشرها ليفي بروفنسال و ترجمها إلى الفرنسية، المجلة الأسبوعية جوان1934.

- **ابن عذاري: أبو العباس أحمد المراكشي (كان حيا سنة712ه/1312).**

– البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ثلاثة أجزاء نشره ليفي بروفنسال وكولان، دار الثقافة بيروت1967.

– و الجزء الرابع الخاص بالموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني و محمد تاويت، محمد زنيبر و عبد القادر زمامة، دار المغرب الإسلامي بيروت1985.

- **ابن القطان: أبو الحسن علي بن محمد (ت810ه/1407):**

– نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق و تقديم محمود علي مكي، دار المغرب الإسلامي بيروت1987، وطبعة جامعة محمد الخامس الرباط.

- **ابن قنفذ: أبو العباس أحمد القسنطيني (ت810ه/1407):**

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم، و تحقيق محمد النير و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر تونس1968.

- **ابن مرزوق: أبو عبد الله محمد الخطيب (ت781ه/1378):**

– المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر1981.

- **ابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان حيا سنة1014ه/1605):**

– البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شنب و قدم له عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1986.

- **أبو حمو العبد الوادي: (ت791ه/1389):**

– كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية تونس 1379ه/1862.

- **الإدريسي أبو عبد الله محمد الشريف(ت548/1154):**

– القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق و تقديم و تعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983.

– المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه و نقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1983.

- **البكري عبيد الله بن عبد العزيز(ت487ه/1094):**

– المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، نشره البارون دي سلان الجزائر1911.

- **البيد ق أبو بكر بن علي الصنهاجي(ت أواخر القرن6ه/12م):**

– كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تقديم و تحقيق، و تعليق عبد الحميد حاجيات الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1974 و النسخة التي نشرها ليفي بروفنسال 1928.

- **التنبكتي أحمد بابا(ت1624/1032):**

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية بيروت.

- **التنسي محمد بن عبد الله بن الجليل الحافظ (1493/899):**

- نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، حققه و علق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1985.

- نظم الدور و العقيان في بيان شرف بني زيان (الجانب الأدبي) تقديم و تحقيق و تعليق بوطالب محي الدين، منشورات دحلب الجزائر1993.

- **الحفناوي أبو القاسم محمد:**

- تعريف الخلف برجال السلف(قسمان) في مجلد، مؤسسة الرسالة المكتبية العتيقة تونس 1985.

- **الحميري، محمد بن عبد المنعم السبتي(ت في أواخر القرن 9ه/15م):**

-كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار(معجم جغرافي) تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت1980.

- **الزركشي: أبو عبد الله بن إبراهيم (كان حيا سنة 894هـ/1488م)**

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماطور المكتبة العتيقة تونس بدون تدوين.

• **الزياني: محمد بن يوسف**

-دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1978.

• **السلاوي: أبون العباس أحمد الناصري (ت 1315/ 1897).**

-الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى المطبعة البهية مصر 1321-1894:

• **العبدري: أبو عبد الله محمد بن محمد توفي في أواخر (ق 7هـ/ 13 م).**

- رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي جامعة محمد الخامس الرباط، 1968.

• **الغبريني: أبو العباس أحمد بن أحمد (ت 1304/704).**

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981.

• **القلصادي: علي بن محمد القرشي الأندلسي (ت1486/891).**

- رحلة القلصادي دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان الشركة التونسية للتوزيع تونس 1978.

• **القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)**

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية القاهرة 1915/1333.

- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب القاهرة 1959.

• **المراكشي: محي الدين عبد الواحد (ت في النصف الثاني من القرن 7هـ/13.)**

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد السعيد العريان، القاهرة، 1963.

• **المقري: أحمد بن محمد التلمساني (ت 1631/1401).**

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، حققه إحسان عباس دار صادر بيروت، 1968.

• **مؤلف مجهول:**

- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، اعتنى بنشره محمد بن أبي شنب الجزائر، 1920.

• **مؤلف مجهول:**

- كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، 1979.

• **النباهي: أبو الحسن علي بن محمد المالقي(ت ق 08هـ/14).**

- تاريخ قضاة الأندلس، المعروف باسم كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا نشره ليفي بروفنسال القاهرة، 1948، وطبعة بيروت 1983.

• **الوزان: حسن بن محمد الفاسي (ت 957هـ/1552).**

- وصف إفريقيا جزءان ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر الرباط، 1980.

• **الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحي (ت 1511/914).**

- المعيار المعرب والجامع عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

- وفيات الونشريسي تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط، 1976.

2/ المراجع العربية والأجنبية:

أ/ المراجع العربية:

- **ابن عميرة محمد:**

- دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي الهيئة الوطنية للكتاب الجزائر1987.

- **ابن منصور عبد الوهاب:**

- أعلام المغرب العربي، الجزء الأول و الثاني المطبعة الملكية الرباط1979

- قبائل المغرب، الرباط1968.

- **نجاة باشا:**

- التجارة في المغرب الإسلامي خلال القرن 8هـ/14م منشورات الجامعة التونسية 1976.

- **ابن عبد الله عبد العزيز:**

- مظاهر الحضارة المغربية نشر دار السلمى للتأليف و النشر و الطباعة و التوزيع الدار البيضاء 1957.

- **بوتشيش إبراهيم القادري:**

- تاريخ الغرب الإسلامي (قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع و الحضارة) دار الطباعة بيروت 1994.

- **بورويبة رشيد:**

– الحياة الفنية في العهد الزيانين و المرينيين، الجزائر في التاريخ تعريب محمد بلغداد المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

- **بوعياد محمود:**

– جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري 15م الشركة النشر و التوزيع الجزائر 1982.

- **بونار رابح:**

- المغرب العربي تاريخه و ثقافته الشركة الوطنية للتوزيع و النشر الجزائر 1981.

- **توات محمد الطاهر:**

- أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع و الثامن ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993.

- **الجزيري محمد عيسى:**

– تارخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني، دار العلم للنشر و التوزيع الكويت 1985.

- **جلاب حسين:**

- الدول الموحدية أثر العقيدة في الأدب منشورات الجامعة مؤسسة الطباعة و النشر الدار البيضاء 1983.

- **الجيلالي عبد الرحمن:**

– تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة بيروت،1965.

- **حاجيات عبد الحميد:**

– أبو موسى الزياني حياته و آثاره، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1982.

– إحياء الدولة الزيانية، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

– إستمرار النفوذ المريني، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

– إمتداد نفوذ الحفصيين، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

– الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

– خطر النصارى و إنهيار الدولة الزيانية. الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

- **الحريري محمد عيسى:**

- تاريخ المغرب الإسلامي في العصر المريني دار القلم للنشر و التوزيع الكويت 1985.

- **دهنية عطا الله:**

– الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

– الحصار الطويل، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

– العصر الذهبي للزيانيين الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

– الغزو المريني، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

- الحياة السياسية و الإدارية، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

- الحياة الإقتصادية و الإجتماعية لدولة بني زيان الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

- **الطمار محمد بن عمرو:**

- تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر1969 و 1973. -

الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1984.

- **عنان محمد عبد الله:**

- نهاية الأندلس و تاريخ العرب المنصرين القاهرة 1949.

- عصر المرابطين و الموحدين في المغرب و الأندلس الجزء الثاني القاهرة 1964.

- **فيلالي عبد العزيز:**

- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و دول المغرب، الشـــركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1982.

- المظاهر الكبرى في العصر الولاة ببلاد المغرب و الأندلس، دار المعارف للطباعة و النشر سوسة تونس 1991.

- **كنون عبد الله:**

- النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر بيروت 1961.

ب- المراجع المعـــربة:

- بيل ألفريد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

- **جوليان شارل أندري:**

- تاريخ إفرقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي وبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1978.

- **لومبارد موريس:**

- الإسلام في مجده الأول، ترجة وتعليق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

ج-الرسائل الجامعية:

- **لحسني مختار:**

- أوضاع الإجتماعية والإقتصادية في الدولة الزيانية، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، - مخطوطة قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 1987.

- **الأخضر عبدلي:**

- الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان – رسالة لنيل درجة الدكتوراه، قسم التاريخ، جامعةتلمسان، 2005.

- **بودواية مبخوث:**

- العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، شهادة لنيل درجة الدكتوراه، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2006.

د- المراجع الأجنبية:

Références:

1-L'ABBE,J.J.L.BARGES

Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom,

Paris,Benjamin,Dupart,1859.

2-BRUNSCHVIG.,ROBERT

La berburie orientale sous les hafsides(des origines à la fin du XVsiècle) Paris,librairie d'Amérique et d'Orient,Tome premier,1970,Tome second,1949Deux récit de voyage inédits en Afrique du Nord

Au XV siècle(abdelbasit Ben Khalil et Adorne) ;la rose éditeurs,1936.

3-DHINA,ALALLAH

Les états de l'occident musulman au XIIIéme,XIVéme et XVéme siècles

Institutios Ggouvernementales et administratives

Thèse pour Doctorat d'Etat.Université de ParisX NANTERE.

Le royaume Aabdelouadite à l'époque d'Abou Hamou Moussa.

1 er d'Abou Tachfine 1 er , office de Ppublications Universitaires,Alger,1985.

4-JEAN,LEAN L'FRICAIN

Description de l'Africque,Librairie d'Amérique et d'Orient

Adien Maison neuve,Paris,1981.

5-JULIEN,GARLES ANDRE

Histoire de l'Afrique du Nord,Paris,1966.

6- marcais, georges

Les arabes en berberie (du XI ème au XIV ème siècle)

Constantine et paris .

La berberie

6-ème année, pp 68/78

3/الدوريات:

- **بلغراد حسين:**

– تلمسان مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975.

- **بورويبة رشيد:**

– جولة عبر مساجد تلمسان، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975.

- **البوعبدلي المهدي:**

– أبو عبد الله بن خميس التلمساني (560_708_1253_1309). مجلة الأصالة السنة (6) العدد 49_50 سبتمبر / أكتوبر 1977.

- **حاجيات عبد المجيد:**

– السلطان أبو حمو موسى الثاني، مجلة التاريخ و حضارة العرب، العدد(5) يوليو 1968.

– الحياة الفكرية بتلمسان في العهد بني زيان، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975.

– مساهمة المغرب العربي في إزدهار الحضارة العربية الإسلامية، مجلة دراسات تاريخية العدد (7) دمشق يناير 1982.

- **حركات إبراهيم:**

– الصلاة الفكرية بين تلمسان و المغرب، مجلة الأصالة السنة (4) العدد(26) جويلية / أوت 1975.

- **دهنية عطا الله:**

– مساعدة الزيانيين لمسلمي الأندلس، مجلة التاريخ العدد(13) الجزائر 1976.

- **زكريا مفدي:**

– النشاط العقلي و التقدم الحضاري للجزائر في عهد الزيانيين ، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975.

- **صاري الجيلالي:**

– أضواء على موانئ دولة بني زيان، " هنين" مجلة التاريخ رقم 21 النصف الأول من سنة 1986.

- **القاضي وداد:**

– النضرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني، و مكانتها بين النظريات السياسية المعاصرة، الأصالة العدد (27) سبتمبر / أكتوبر 1975.

- **مرزوق محمد:**

– الجالية الأندلسية بالمغرب العربي (تونس و الجزائر) المجلة التاريخية المغاربية العدد (13) نوفمبر 1986.

جدول الفهارس

فهرس القبائل و الأمكنة

– أ –

أولاد نايل: 4

أعراب المعقل: 8

أوربا: 20

إفريقيا: 18-19-20-222.

أرزيو: 20

الأندلس: 22-24-28-31-34-35-53-55-56-69-70-71-72-73-80-81-82-83-87-103-113-114-118-119-121-133-149-150-152-162-163-164-171-173-179-183-184-186-195-207-215-217-218-219-222-224-226-230.

الأدارسة: 33-43

إسبانيا: 37-93

أولاد منديل: 62

أولاد سلامة: 62

أراجون: 72

أرفون: 100

أقبو: 101

أكغادو: 101

أولاد مهلهل: 106

أجادير: 113-114

أغمات: 114

آبلة:183

- ب -

بجاية: 2-18-19-27-34-65-66-68-90-99-101-104-105-106-107-
108-112-113-120-132-143-144-153-180-207-221-233

بليدة: 3

بنو شقران: 21

بنو للو: 6-42

بنو وصطف: 42

بنو تومرت: 06

بنو قاسم: 06-39-42

بنو مطهر: 06-42-46

بنو يكثيمن: 06

بنو علي: 06-42

بنو طاع الله:06-43

بنو دلول: 06-43

بنو كمي: 06-43-44

بنو معطى: 06

بنو محمد: 06

بنو عامر: 8-11-56-91

ببو مرين: 08-31-33-37-41-42-44-52-54-55-56-57-58-59-62-64-

65-70-74-75-77-78-79-80-83-88-89-90-92-95-96-98-99-

100-146-159-186-189-203-204-206-215-217.

بنو يغصون:08

بنو شافع: 08

بنو راشد: 11-41-42-46-45-203

برشك: 15-20-130-145-147

بلنسية: 30

بنو غانية: 34-35-44

بنو زيان: 03-31-37-38-39-40-42-43-44-46-59-63-65-66-73-74-

203-205-207

بنو عبد الحق: 37

بنو الأحمر: 37-73-82-83-87-93-152-203

بنو نصر: 37-70-72

بنو واسين: 39-40-41

بنو يفرن: 39-40-41

بنو توجين: 11-40-41-42-43-61-62-63-68-81-203

بنو يلومي: 40-41-43-49

بنو هلال: 40

بنو حماد: 30-40

بنو باديس: 42

بنو زردال: 42

بنو مصابك 42

بنو ياكين: 42

بنو حفص: 58-59-62-68-204-205-206

بنو نصر: 37-70-72

بني وطاس: 93

بغداد: 127-128

بنو عبد الواد: 06-11-12-33-38-51-67-68-77-79-80-81-87-88-92-
93-94-95-100-103-106-107-108-110-121-130-160-161-186-
197-216.

-ت-

تلمسان: 02-03-08-12-13-15-16-18-19-30-37-38-40-41-44-45-
46-51-53-56-58-59-61-62-63-66-69-70-71-73-75-77-80-81-
82-86-87-88-90-92-93-94-95-97-99-100-103-106-112-113-
114-115-117-118-120-121-122-123-128-130-133-134-137-
143-145-146-147-149-150-152-153-155-157-158-159-160-
161-164-165-171-173-174-175-178-179-184-185-186-187-
188-189-192-194-197-198-203-204-207-208-215-217-219-
222-227-229-236-

توات: 03-20

تامرت: 18-26

توجين: 09

تسالة: 12-108

تنس: 12-18-20-144-145

تدلس: 15

تونس:18-19-27-37-44-54-56-58-62-65-66-67-88-89-106-114-
123-124-136-137-148-152-153-155-156-187-196-197-198-
216-218-220-221-226-230.
تغاري: 20
تمبوكتو: 20
تكدا: 20
تينملل: 27
تيكورارين: 41
تامزيزدكت: 65-90-105-106-107
تازة: 18-75-100
تازمات: 106
تاجرارت: 113

-ث-

الثعالبة: 56-100

-ج-

الجزائر:02-18-19-20-35-146-180-205-215-216-219-220-221-
222-223-224-225-226-227-230.

جرجرة: 03-101

الجريد: 35

جبل راشد: 39-41

جبل طارق: 159

-ح-

الحفصيون:2- 30-62-73-104-105

- د -

دانية: 70

درعة: 78

دواودة: 90

دلس: 101

-ر-

الروم: 52-91

رباط العباد: 187

-ز-

الزان:02

زاغري: 19

زناتة: 39-40-41-42-43-44-45-46-52-56-61-74-75-81-98-104-106-203-204-223.

الزاب: 40-66-100

زغبة: 52-56-90-98

-س-

سعيدة: 3-4-62

سجلماسة: 19-20-41-77-78-87

سويد: 56-98-104

سبتة: 159-160-161-162-164-175

-ش-

شرشال: 15-20-145

شلف: 12-59-62-97-99-100

شارات: 22

-ص-

صنهاجة: 33-40

-ض-

الضاية: 03

- ط -

طنجة: 18-83

- ع -

عمور: 04-42

عنابة: 105

- غ -

غرداية: 03

غرناطة: 13-15-37-69-70-71-72-73-83-87-123-152-162-163-164-165-216.

غمارة: 33

الغز: 52

- ف -

فحيج: 39-41

فاس: 18-33-73-74-75-76-77-78-79-80-82-83-87-88-92-93-108-112-113-114-115-116-123-124-159-166-182-188-189-190-192-193-194-195-198-207.

فزاز: 75-76.

- ق -

قلعة بن حماد: 34

قسنطينة: 18-19-35-104-105-106-217.

القيروان: 40-113-148-197-207

قشتالة: 28-72-82-83
قصر عمي موسى: 100

-ل-

لتونة: 34-45
لدية: 62-64-97-205

-م-

المغرب: 2-4-5-11-13-20-21-22-32-33-37-38-39-40-41-43-44-
45-47-50-52-54-55-56-57-59-61-62-67-69-72-74-75-77-82-
93-97-100-106-107-108-110-112-113-115-116-117-118-119-
120-121-124-125-128-129-131-132-133-135-136-144-146-
147-148-150-152-153-156-160-184-187-188-189-192-193-
194-195-196-197-198-203-204-205-207-208-216-217-218-
219-221-222-223-224-225-226-227-229-230-241.
متيجة: 03-12-56-100
مصوفة: 06
مغراوة: 09-39-40-41-43-55-59-61-62-63-64.
مليكش: 09-68
المغرب الإسلامي: 10-11-17-20-21-22-37-47-54-55-57-59-61-67-
69-75-110-112-113-115-118-119-120-121-124-131-132-133-
147-153-156-193-198-203-204-207-208-218-223-224-225.
المغرب الأوسط: 02-04-05-11-13-33-37-38-39-40-41-43-44-45-50-
52-75-93-100-107-108-110-113-115-124-135-144-146-148-
203-204-205-224-227-241.
مستغانم: 15-18-70.
مليانة: 15-18-19-35-59-62-64-90-146.

مالي: 19
منسا: 20
ميمة: 20
مراكش: 21-2-27-28-29-33-35-36-55-57-58-61-62-64-67-74-
76-79-80-83-88-112-113-115-120-136-152-153-156-190-
191-192-195-207.
مصمودة: 21
ميورقة: 34-35-36.
ملوية: 3-11-40-41
مدريد: 183
الموحدون: 11-25-31-35-39-65-70-74-115-117-137-203.
المرابطون: 21-31-34-39-45-70-113-119-120-226-
مغيلة: 48
مازونة: 18-62
منداس: 62
المنصورة: 66-93
مرسى الرؤوس: 66
المرية: 70-163-169
مالقة: 162-163
مكناسة:193

-ن-

ندرومة: 15-18-27-46-88-93-108-205-215
النصارى: 24-28-35-72-76-96-183-225.

-و-

ورجلان: 3
وهران: 03-12-20-44-56-70-221.
وادي شلف: 12

وادي رهيو: 59-100
وجدة: 65-77-81-93-100-108-205.
وادي اسلي: 77-81
وادي تلاغ: 79
وانشريس: 03-82-91-97-99-104
وادي آش: 87
وادي الصومام: 101
واقعة طريف: 195

-هـ-

هنين: 15-20-70-108-205-230.
الهقار: 19
هرغة: 26-27
هوارة: 106
هنتاتة: 73
الهساكرة: 191-192-193-195

-ي-

الياقوتة: 107.

أبو بكر بن جوهر: 149
أبو بكر بن محرز : 149
أبو البركات: 164-166-167

- ت -

ابن تومرت: 25-26-32-33-215.
أبو تاشفين عبد الرحمن الأول: 89-87-102-104-203-205.
التنسي : 86-95-121-131-132-144-151-153-220.
تقي الدين: 146-157-169.
ابن ترومیت : 192.

- ث -

أبو ثابت:87-96-99-188.

- ج -

ابن جامع: 32
جابر بن حيان: 44-45
ابن جحاف: 96
أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي: 114
أبو جعفر أحمد بن غزلون : 114
الجاحظ: 126
جلال القزويني: 146

- ح -

أبو حمو موسى: 07-16-71-97-99-102-122-130-229.
حمامة بن مطهر : 42
أبو الحسن بن حيون: 44

الحسن السعيد : 65
أبو الحسن المريني : 86-87-107-108-110-199.
ابن حبيب: 116
ابن الحاجب: 137- 142-147
أبو الحسن اللخمي: 139
أبو حامد الغزالي: 140
الحجار : 187
ابن حمادو: 178
أبو الحسن بن علي : 187

- خ -

ابن خميس: 122-151-155-156-157-158-159-160-161-162-163-164-165-166-167-168-169-170-171-173-177-179-180-182-183-217-229.
ابن الخطيب: 71-72-122-136-140-148-149-150-152-168-216.
خلوف المغيلي: 190

- ر -

الرشيد: 46-51-62.
راشد بن محمد: 99
ابن رشيق القيرواني : 119
أبو الربيع : 189

- ن -

نظام الملك: 127

– د –

داود بن هلال: 08

أبو دبوس : 78-79

دعدع: 96

دعبل بن علي الخزاعي : 126

أبو داود : 138

ابن دقيق العيد : 144.

– و –

أبو الوليد محمد بن أحمد : 139

– ز –

أبو زيد عبد الرحمن بن أبي زكرياء: 63-64-87-130-145-147-194.

أبو زيد البياسي : 30

زقدان بن زيان: 44-46.

أبو بكر بن أبي جعفر: 114-171.

أبو زكرياء يحي: 73-86-106-143-159.

أبو زيد عبد الرحمن: 87-130-145-147-194-216-217.

أبو زيد القيرواني : 139.

أبو زكرياء الزواوي : 143

زيرم: 145-146

ابن زيتون : 135-146

– س –

أبو سعيد عثمان بن يغمراسن : 2-59-65-66-86-91-92-95-97.

أبو سعدي: 41

سوت النساء: 63

أبو سعيد: 44-64-67-86-87.
السعود بن خرباش: 75-76.
سحنون عبد السلام: 139.
ابن سبعين : 143.
سعيد العقباني : 147.

-ش-

شرير الزنجي : 76
الشريف أبو عبد الله محمد: 134-147-219.
شمس الدين الأصباهي : 144-145.

- ط-

أبو طالب محمد: 140.

- ع -

عبد الله بن ياسين: 21-204.
عبد المومن بن علي: 21-22-33-39-42-114.
عبد الواحد المراكشي : 22-25
عبد الله كنون: 32-117.
علي بن يوسف: 34
عبد الحق بن منغفاذ: 42
عبد الله قندوز: 44
ابن علان: 45-100
عثمان بن يوسف : 46.
أبو عزة: 46-52
علي السعيد: 61
عبد الله بن زكرياء الهزوجي: 61-81

عبد القوي بن أبي العباس : 62
ابن عبد الله بن تافراكين : 106
أبو عصيدة : 66
أبو عبد الرحمن المغيلي : 76
ابن عثمان بن عبد الحق : 78-106
عمر : 68-80-81-106
ابن عبد المالك : 80.
عبد الواحد: 81
أبو عنان : 81-197-198-199
عيسى بن مساي: 81
أبو عامر : 81-90-99-101-189.
عريف بن يحي: 98.
أبو عبد السلام التنسي: 144
عبد العزيز بن الدباغ: 114
أبو عبد الله بن عبد الرحمن التحيبي : 114
أبو عبد الله بن عبد الحق : 115
عبد الله ادريس : 117
عبد الله كنون: 117
عبد الله بن حميس : 122-156-157-166-171-217.
العقابنة: 132
ابن عربي: 133
أبو عبد الله شعيب: 135-136-146.
أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي: 138
أبو عيسى محمد : 139
أبو عبد الرحمن شعيب : 139
عياض بن موسى : 139
أبو علي الفارسي: 140

ابن عبد ربه: 140
أبو عبد الله محمد بن ادريس: 140
أبو عبد الله شريف: 147
أبو عيسى ابن أبي السداد : 150
أبو عبد الله بن الحكيم: 162-163-170-171.
أبو العباس بن البناء : 190
بوعنان : 157-169-197-198-199.

– ف –

فاطمة : 64

– ق –

قندوز بن كمي بن زيان : 44
القطراني : 78
قهرمانة: 96
القطلاني : 101
أبو القاسم بن زيتون: 136
أبو القاسم عمر الزمخشري: 138
أبو القاسم عبيد الله : 139
أبو القاسم عبد الكريم : 140
القرافي : 144

– م –

معروف بن سعيد: 08
محمد العبدري: 19
محمد بن تومرت : 21
المنصور: 22-23-31-35-117.

أبو محمد عبد الله البياسي: 28
المأمون: 28-30-44-45-46-116.
محمد بن عبد الله بن محمد الماسي: 32
أبو محمد عبد الواحد : 36
المهدي بن تومرت: 215-219.
المستنصر : 28-29-63-64-122.
محمد الغني بالله : 71-155.
المرتضى : 76
محمد بن عبد القوي: 81-82
مسامح: 90
محمد بن إبراهيم الآبلي: 157-183.
موسى بن عثمان : 98.
محمد بن يوسف : 104
موسى بن علي الكردي: 90-104.
أبو موسى بن عيسى: 130-145-147-188-194.
أبو موسى عمران المشدالي: 132-136.
بنو الملاح: 16-123.
المرازقة : 132.
مالك بن أنس : 144.
محمد بن اسماعيل البخاري : 138
مسلم بن الحاج: 138
أبو محمد القاسم : 140
أبو المعالي: 140
أبو مدين بن شعيب: 143
المقري الكبير: 147.
ابن مرزوق: 219
محي الدين بن الظاهر : 153

المهدي البوعبدلي : 165
محمد بن غلبون : 184

- هـ -

ابن هدية القرشي: 165-182.

- ي -

يغمراسن بن زيان:02-03-08-11-30-38-44-46-50-51-56-61-62-63-64-65-67-77-78-80-81-82-83-84-86-91-97-101-104-120-145-150-152-158-184-202-206.
يوسف بن تاشفين : 21-113-119-120.
يوسف بن عبد المؤمن: 22-33.
يحي بن غانية: 34-35-45.
يعقوب بن عبد الحق: 57-67-77-79-80-100.
أبو يحي أبو بكر: 64.
يوسف بن يعقوب: 66-81-82-95-96-99-186.
ابن يحي بن مكنن: 80
يوسف بن حبون: 44
اليهود: 96
يحي بن موسى بن اللحمي: 105-106.

فهرس الموضوعات

المقدمة.....أ

الفصل الأول: تأسيس الدولة الزيانية:.....01

المدخل:.....02

الخصائص الطبيعية:.....02

1- إقليم الدولة:.....02

2- التضاريس.....03

3- المناخ.....04

4- الخصائص البشرية:.....06

أ/ قبيلة الأسرة المالكة.....06

ب/ الحلفاء:.....08

جـ/ القبائل الغارمة:.....09

5- النشاط الاقتصادي:.....10

أ-النشاط الفلاحي:.....10

ب- النشاط الصناعي:.....14

ج- النشاط التجاري:.....17

الأوضاع السياسية بمنطقة المغرب الإسلامي قبيل قيام الدولة الزيانية:.....21

إنحلال دولة الموحدين و سقوطها:.....21

1- بداية الانحلال:.....21

أ- الضعف السياسي:.....25

ب- التفكك الإداري:.....29

ج- الانهيار العسكري:.....30

د- اتساع نطاق الثورات و الفتن الداخلية:.....32

2- ظهور بني زيان:.....39

3- عوامل نشأة الدولة الزيانية: 47

أ- العامل الاجتماعي:.....48

ب- العامل الإقتصادي.....49

جـ- العامل السياسي.....49

4- دور يغمراسن في تأسيس الدولة:.....51

الفصل الثاني: العلاقات السياسية الزيانية مع دول المغرب الإسلامي:.....61

العـــلاقـــات الزيانية الحـــفصية: 61

1- الولاء للحفصيين:.....63

2- موقف الموحدين من التحالف الزياني الحفصي.....64

3- إسقاط التبعية الحفصية:.....66

العلاقـــات الزيـــانية الغرنـــاطية:.....69

العلاقـــات الزيـــانية المـــرينية:.....73

1-التنافس الزيـــاني المريـــني:.....75

2- التنافس حـــول سجلـــماسة:.....77

3- التحالف الزيـــاني الموحـــدي: 78

4- التنافس الزيـــاني المـــريني وأثـــره على الأندلس:.....80

5- التحـــالف الثـــلاثي:.....83

الفصل الثالث: تطور العلاقات الزيانية المرينية في عهد خلفاء يغمراسن بن زيان.....86

1-عهد السلطان أبي سعيد عثمان:.....86

سيـــاســـته:.....88

2-عهد السلطان أبي زيان محمد الأول:.....95

3-عهد السلطان أبي حمو موسى الأول:.....97

سياسته.....98
4-عهد السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن الأول:.....102
أ- سياسته: 103
التحالف المريني الحفصي:.....107
استيلاء أبي الحسن المريني على المغرب الأوسط:.....108
الفصل الرابع:الحيـــاة الفكـــرية.....112
المدخـــــــــــــل:.....112
المؤسسات التعليمية:.....125
أولا: الكتاتيب القرآنية:.....125
ثانيا: نشأة المدارس: 126
مدرسة ابني الإمام.....130
المدرسة التاشفينية: 131
التعليم:.....132
أ – التعليم بالكتاتيب:.....132
ب – التعليم بالمدارس:.....134
طرق التدريس: 135
محتوى البرنامج المدرس في ذلك العصر بالمعاهد العليا.....138

1- محور العلوم الدينية.....138

أ – كتب التفسير:.....183

ب- كتب الحديث:.....138

جـ – كتب الفقه: 139

2- محور الأدب:.....139

3. محور التصوف: 140

4. محور علم أصول الدين وأصول الفقه:.....140

الاختصار ومضاره:.....141

* العلوم الدينية:.....142

1- أبو إسحاق التنسي:.....144

2- ابنا الإمام :.....145

العلوم اللسانية: 148

1-أبو بكر محمد بن داود: 148

حياته:.....148

شيوخه:.....149

قدومه إلى تلمسان: 149

وفـــاته: 150

مكانته في الشعر:.....151

مكانته في الكتابة: 152

أسلوب الرسائل الديوانية في هذا العصر: 153

مراسلاته: 154

أثر أبي بكر بن خطاب في الحركة الأدبية بتلمسان:.....155

2-أبو عبد الله بن خميس:.....156

حياته:.....156

وجوده في سبته.....159

إقامته بغرناطة مع الوزير ابن الحكيم.....162

قال ابن خاتمة: 163

تلاميذه وأصحابه:.....164

شخصية ابن خميس الأدبية:.....168

مختارات من شعره:.....171

شوقه وحنينه إلى تلمسان:.....171

3-أبو عبد الله بن هدية:.....178

التعريف به: 178

ومن نظمه الدال على فضله.....179

العلوم العقلية:.....183
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي:.....183
حياته:.....183
رحلته إلى الشرق:.....186
رحلته إلى المغرب:.....189
مكانة الآبلي العلمية:.....199
طرق التعليم عند الآبلي:.....199
أ- منهجية الحلقة:.....200
ب- منهجية المشافهة.....201
وقفه من التأليف وبناء المدارس:.....201
آثار الآبلي:.....202
الخـــاتمة:.....203

المـــلاحـــق:

1- حدود الدول. 210
2- مملكة بني عبد الواد في عهد أبي حمو موسى الأول، خريطة طبيعية.....211
3- الطرق التجارية عبر الصحراء في القرون الوسطى.....212
4- سلاطين الدولة العبد الوادية في دورها الأول.....213
5- توزيع القبائل البربرية والعربية.....214

المصادر والمراجع العربية والأجنبية.....215

جدول الفهارس:

فهرس القبائل والأمكنة.....232

فهرس الأعلام.....244

فهرس الموضوعات.....253